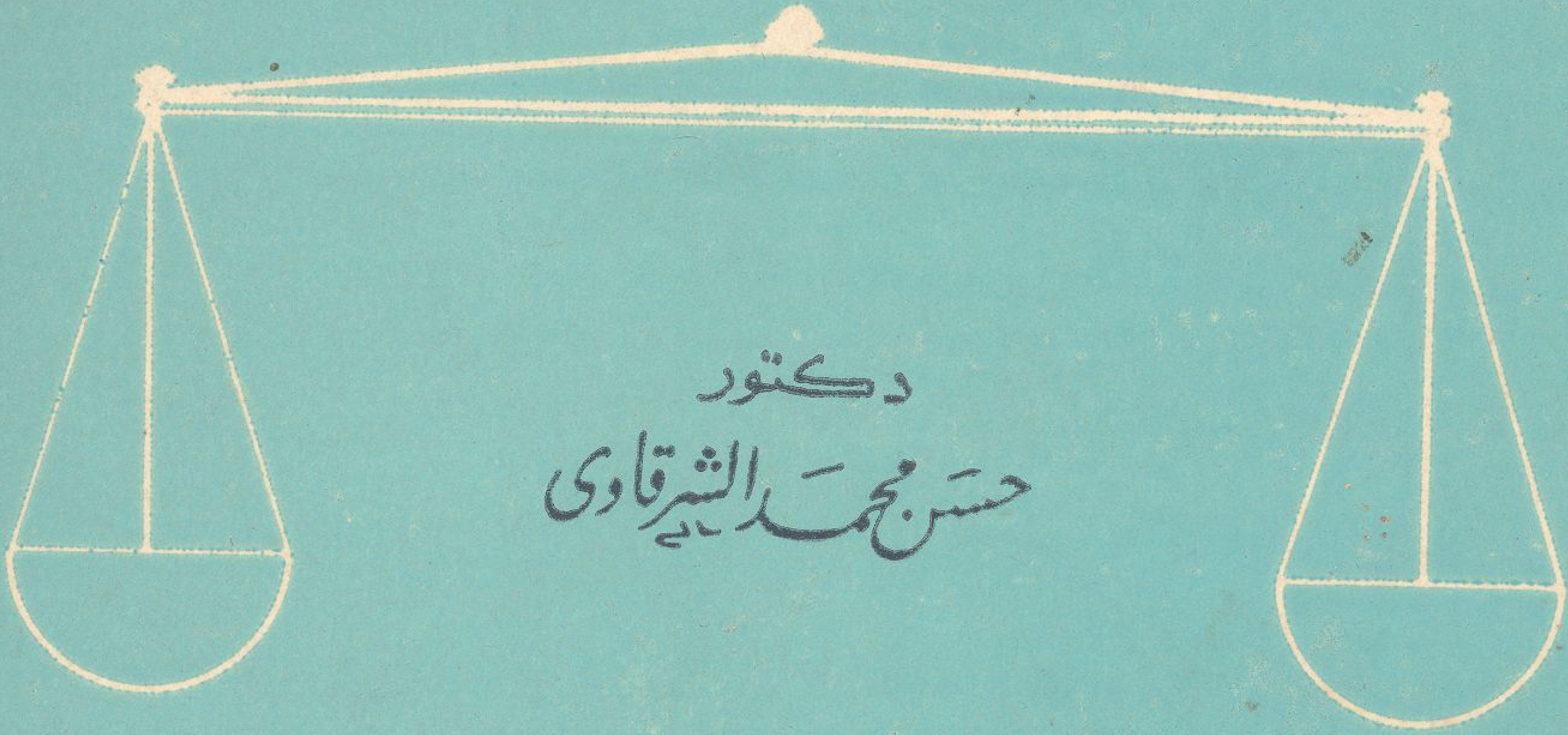
نحو

علم نفس إسلامى



دكتور

حسن محمد الشرقاوى

تقديم

الإمام الأكبر

الدكتور عبد الحليم محمود

الكاتب الكبير

الدكتور مصطفى محمود



الهيئة المصرية العامة للكتاب

فرع الاسكندرية

نحو
علم نفس إسلامى

دكتور
حسن محمد الشرقاوى

تقديم

الامام الأكبر
الدكتور عبد الحليم محمود

الكاتب الكبير
الدكتور مصطفى محمود



الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الاسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

« ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس
به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد »

صدق الله العظيم (ق : ١٦)

تقديم

لفضيلة الإمام الأكبر

دكتور عبد الحليم محمود

شيخ الأزهر الشريف

لقد مر علم النفس الحديث — ولا يزال — بأطوار كثيرة بحثا عن قاعدة يستقر عليها لكي يصبح علما لا وطن له ، شأنه فى ذلك شأن بقية العلوم المادية الأخرى ، ومنذ أعلن العلماء عن إستقلال علم النفس عن الميتافيزيقا ، ومن إنضمامه إلى كوكبة العلوم التجريبية التى سمحت له بهذا الإستقلال ، وهو يمر بمراحل يدخل فى كل منها مدرسة من المدارس ، ولا يستقر به المقام حتى يتبين أن هذه المدرسة غير كافية للنهوض به كما يجب ، رغم إصطناعها الوسائل علمية مختلفة ، فتنشأ على أثر ذلك مدرسة أخرى تحاول أن تتدارك ما فات المدارس السابقة من عوامل أو تفسيرات ، أو أن تظهر ما وقعت فيه من خطأ أو إنحراف ...

فتعددت معامل علم النفس ، وتكونت فرق البحث المختلفة ، وإتجهت كل منها إتجاها خاصا يختلف من حيث إختيار الموضوعات وطرق بحثها وظهرت مدارس متعددة ، تتابعت وتفاوتت فى حظها من الذيوع والإشتهار ، فهناك المدرسة الترابطية ومن زعمائها « لوك » و « هيوم » والمدرسة السلوكية ومن زعمائها « وطسن » و « بافلوف » والمدارس الغرضية ومن زعمائها « ماك دوجل » ومدارس التحليل النفسى وعلى رأسها «فرويد» ، ومدرسة الجشطلت ومن مؤسسيها

« كولر » وغير ذلك من المدارس ، وكل منها يعمد إلى وجهة معينة يرتضيها قاعدة لتفسير النفس وتفسير السلوك .

وقد اندمجت معظم هذه المدارس وتلاقت فى كثير من المباحث ، ولكن الأمر لا يزال كما هو بالنسبة لعلم النفس حيث لم تصل بعد إلى المستوى الذى يبشر به العلماء ، ليكون علما ثابتا مقبولا من الجميع ولا تزال هناك فرصة لكى تنشأ مدارس أخرى ، وأقربها وأحدثها مدرسة القيم التى تفسر السلوك الإنسانى على ضوء القيم النفسية الإنسانية ...

ولا يعيننا — هنا أن نقف — موقف النقد من هذه المدارس مدرسة مدرسة لنبين بعدها عن سواء السبيل فقد تكفل صاحب هذا الكتاب « نحو علم نفس إسلامى » وأشار إلى عناصر أساسية كانت عاملا حاسما فى إنحرافها وعدم توصلها إلى حقائق علمية شاملة ...

ولكنه يلفت نظرنا هذا الإختلاف الكبير القائم بينها ، وإدعاء كل منها أنها واثقة فيما توصلت اليه من أسس ونتائج ...

وكل يدعى وصلا بليلى وليلى لا تقر لهم بذا كا

ولا نغالى إذا قلنا أن علم النفس فى البلدان الاشتراكية الشرقية يتجه إتجاهـا مخالفا لنظيرة فى البلاد الرأسمالية الغربية تبعا لإختلاف المذهب المادى السائد فى كل منها .

ألا يدل ذلك على خلل وإضطراب وفساد كامن فى الأساس الذى اعتمدوا عليه فى قيام هذا العلم .. !!

قد يكون هذا الخلل ناشئا من النظرة المادية الضيقة التى تسيطر على الباحثين المحدثين من العلماء .

وقد يكون هذا الإضطراب بسبب الخلط الشديد فى نظرتهم إلى الإنسان كصنف من أصناف الحيوان يسرى عليه ما يسرى عليها بدون تمييز دقيق صحيح .

وقد يكون هذا الفساد مبنيا على الفصل بين الظواهر والبواطن واعتمادهم على الظواهر وحدها ، مع عجزهم عن سبر البواطن .

وقد يكون غير ذلك من الأسباب ولا بد أن يصل الباحثون إلى معرفتها يوما .. وإنما يجمع ذلك سبب عام مشترك ، هو الجهل المطبق بمصدر الظواهر النفسية التى قام علم النفس الحديث لدراستها ، وليس فى الإمكان أن نتوصل إلى معرفة هذا المصدر بوسائلنا العلمية المادية وآلاتنا الحسية التجريبية .

فهل ينبغى لذلك أن نيأس من وجود علم صحيح للنفس ، ما دمنا عاجزين — بوسائلنا البشرية القاصرة — عن الوصول إلى هذا المدى من الفهم والإدراك ؟؟

الا يوجد أساس وثيق يمكن أن نرجع اليه ونعتمد عليه ، فى إقامة هذا العلم دون أن يتطرق اليه الخلق والشك والإرتياب .. !!

بلى أنه هو الإيمان ، الإيمان الدينى والتسليم بما أنزل الله من الحق ، ولكن هؤلاء العلماء أغفلوه ويستوى إذا كان هذا الاغفال عمدا أو إهمالا أو جهلا فقد توهموا أن : الاعتماد على معطيات الإيمان يتعارض مع المناهج العلمية الصحيحة ولم يثبت عندهم علميا إلا ما كان قابلا للملاحظة والوصف والتجربة ، وتلك هى النواحى المادية الحسية ومعطيات الايمان ليست خاضعة لشىء منها ، لذلك تجاوزوها وركبوا تيارا معارضا فى كثير من الاحيان .

ولقد برىء من ذلك أئمة المسلمين وقدموا لنا كنوزا ثمينة فى هذا المجال ، تعتمد على أسس ثابتة من الكتاب العظيم ، والسنة المطهرة ، ومن أصدق من الله قيلا ومن أوثق من النبى حديثا — ﷺ — .

ولقد غفل المسلمون عن كثير من كنوزهم فترة من الزمن قام فيها الغرب المادى بتأسيس حضارته المادية وكان فيما شيد من علوم.. علم النفس الحديث فلم يظفر فى ميدانه بأرض صلبة ثابتة يقف عليها كالتى ظفر بها العلماء السابقون من المسلمين ،

ولا بأس إذن ــ أن نكون على إختلاف مع بعض ما وصل اليه علم النفس الحديث من نتائج لا تتفق مع أسسنا وأصولنا فان إختلافنا معه لا يزيد كثيراً عما يقع بين علمائه أنفسهم من إختلاف ...

ولعلنا لو عدنا إلى كنوزنا فأبرزناها فى الإطار الذى يليق بها ، وبلغة العصر الذى نعيش فيه وبمصطلحاته الحديثة لقدمنا إلى العلم الحديث وإلى المخلصين من من علمائه خدمة كبرى تضيء المنار وتصحح المسار .

وإنه لما يبعث على الأمل أن ينشط العلماء المسلمون إلى مثل هذا العمل العظيم تقربا إلى ربهم وخدمه لبنى جنسهم وعمرا بأنفسهم إلى حيث ينبغى لنفس الانسان أن تكون .

وعلى درب هذا الأمل يبرز هذا الكتاب كمحاولة فى سلسلة المحاولات الجادة الخالصة تقويما للنهج وتوضيحا للأساس ، وارشادا الى الحق .

ونحن نعرف مؤلفه : عالما متزنا متروبا لا يكل من البحث ولا يسأم من الإطلاع ثم يخرج ثمار أبحاثه فى تواضع وثقة..

ونرجوا الله أن يكتب له التوفيق الدائم فى كل ما يأتى وما يدع إنه سميع قريب مجيب .. ؟

١٥ من رمضان ١٣٩٦هـ
٩ من سبتمبر ١٩٧٦م

شيخ الأزهـــر
(دكتور عبد الحليم محمود)

تقديم

الكاتب الكبير
الدكتور مصطفى محمود (١)

ظهرت محاولات عديدة لفهم النفس فهماً جديداً مؤسساً على القرآن والسنة آخرها وأهمها كتاب دكتور حسن الشرقاوى « نحو علم نفس إسلامى » وهو نظرة نقدية شاملة لعلم النفس الحديث ومحاولة الخروج بعلم نفس إسلامى جديد .

ويعرض الكتاب فى أمانة وجهتى نظر العلم والدين فى ذلك اللغز الذى إسمه النفس ويدعو القارىء ليفكر معه خطوة بخطوة ويأخذ بيده برفق إلى الحقيقة ..

إن علماء النفس لا ينظرون إلى النفس إلا من خلال العيوب والأمراض والآفات والعلل .. ولا يفتشون إلا فى الانحرافات والتشوهات والعقد ولا يقدمون لنا شيئاً إيجابياً عن النفس السوية الصحيحة ... والمنبع الوحيد للسلوك عندهم هو إشباع شهوة ... والمرجع الرئيسى الذى يفسر به فرويد جميع التصرفات هو عقدة أوديب وعقدة ألكترا .. وهى شهوة الطفل فى أن يجامع أمه ، وشهوة البنت فى أن تجامع أباها .. وهى هلوسة سمعها من مرضاه المستهيرين لجعل منها تهمة عامة ألصقها بالكل ، ومن هنا فإن الإحساس بالذنب عند فرويد مرضاً .. والتوبة نكاصاً .. والندم تعقيداً .. والصبر على المكاره بروداً .. وقمع الشهوات كبتاً له عواقبه الوخيمة ...

---

(١) نشر فى جريدة أخبار اليوم بتاريخ ١٩٧٦/٧/٣١ بالعدد ١٦٥٦ .

بينما نرى الدين يقف على النقيض من هذه النظرة .. فيعلمنا أن قمع الشهوات هو شاهد على سلامة النفس واقتدارها ، وأن الإحساس بالذنب علامة صحة وأن التوبة موقف علم والندم موقف عسلم تدل جميعها على فطرة سوية أدركت الله وعرفت أنه دائماً مع الحق والعدل والخير .

ولا يرى الدين أن النفس محض فجور بل يصفها بأنها قابلة للفجور والتقوى ، وأن الله ألهمها فجورها وتقواها معاً فهي تستطيع أن ترتقي في معراج نوراني نحو الله أو أن تتهابط سلفياً في درك الشهوات .. وهي في ذلك مخيرة .. وكل إنسان يتصرف على شاكلته ..

« قل كل يعمل على شاكلته » .

(الإسراء : ٨٤)

ويتوسع فرويد توسعاً معيباً في حكاية الجنس والطاقة الجنسية (Libido) واللذة الجنسية ويتصور أن الرضيع يمتص حلمة ثدي أمه بلذة جنسية (وهو كلام غير مفهوم فالرضيع لم يباشر هذه اللذة بعد بحكم تخلف جميع أجهزته وهو بالتالي غير قادر على تذوق اللذة) ...

كما يتصور أن الصبي يحبس البراز في شرجه بلذة جنسية (وهو يستبدل هذه اللذة حينما يكبر بهوايات جمع الأشياء مثل جمع طوابع البريد) .

كما يتصور كل ما هو مستدير في الحلم رمزاً لعضو المرأة التناسلي (مثل الكهف .. والدائرة والعلبة .. والخاتم .. والحلق .. والزجاجة) وبالمثل كل ما هو مستطيل رمزاً لقضيب الرجل (مثل العصا .. والثعبان .. والقلم .. والمئذنة .. والبرج والسيف .. والمظلة) وكل حركة في الحلم هي رمز العملية الجنسية ، كالجري والتسلق والسباحة وركوب الدراجة .

ثم هو يدمج كل أنواع الحب حتى حب الوالدين وحب النفس في هذه الحلقة الجنسية المفرغة .. فحب الأم (عقدة أوديب) وحب الأب (عقدة الكترا) وحب النفس (نرجسية) وكأنما هي لعنة تمازج كل فعل .. فلا براءة في أي شيء .. ولا طهارة في أي خاطر أو أي فكرة .. وهي مبالغات أقل ما يقال فيها أن صاحبها مريض بهوس جنسي ..

ولا يرى فرويد من الأحلام إلا هذا الجانب الجنسي الحسي الشهواني فالأحلام كلها إشباع لرغبات مكبوته وهي تحرس النوم بهذا الإشباع المتجدد الذي يريح النفس من أشواقها الملحة فلتسترسل في نومها .

وفرويد وأصحابه لا يرون بذلك إلا نوعاً واحداً من الأحلام وجانباً واحداً من النفس هو الجانب المادي والحيواني .

أما القرآن فيعلمنا أن هناك نوعين من الأحلام .. نوعاً يطلق عليه « أضغاث الأحلام » وهو حديث النفس الأمارة بشهواتها ورغباتها أو حديث الشياطين إلى تلك النفس أثناء النوم .. وهو ما اشتغل فرويد بتفسيره ...

ثم نوع آخر من الأحلام هي الرؤى التي تأتي إلى النفس من الملأ الأعلى .. وتكون حديثاً من الله إلى نفس النائم أو حديثاً من الملائكة المكلفين إلى تلك النفس .. ومثال ذلك الرؤى الصادقة التي تتحقق بحذافيرها ونصها ...

ولا مكان لهذه الرؤيا عند فرويد .. ونظريته تعجز تماماً من تفسيرها مع أنها خبرة مادية عاشها كل منا وجرب طرفاً منها .

كما أن رؤية المستقبل قبل حدوثه هي مسألة تهدم الفكر المادي من أساسه سواء الفرويدي منه أو الماركسي لأنها إثبات صريح يؤكد سبق الفكر على المادة ويميز القرآن بين هذين النوعين من الأحلام ويفصل بينهما ...

يقول فرعون :

« يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى » .

(يوسف : ٤٣)

« قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » .

(يوسف : ٤٤)

فهناك إذن أضغاث ... ورؤى ..

ولكن فرويد لا يرى من الأحلام إلا تلك الأضغاث والهلوسة الشهوانية، ولهذا يرى أن السعادة والراحة فى إشباع تلك الشهوات... بينما يرى الدين أن السعادة فى مخالفتها وقهرها والقبض على زمامها والتسلق عليها صعوداً إلى الوطن الأول .. إلى الله الذى منه جاءت كل النفوس وإليه تعود .

والحزن الحق فى الإسلام هو نتيجة فراق هـــذا الوطن والانغماس فى ظلمة الدنيا ...

أما الحزن عند فرويد فهو على العكس نتيجة حب الدنيا والحرمان منها .

وينظر علم النفس الحديث إلى النسيان باعتباره مرضاً ينتج من عدم الاهتمام أو فرط الاهتمام أو كون الموضوع المطلوب تذكره موضوعاً مؤلماً أو بسبب تقادم العهـــد أو بسبب كبت الخبرة المنسية فى اللا شعور .. والطبيب النفسى يحاول أن يصل إلى هذه الخبرة المنسية بالتحليل أو بالتنويم المغناطيسى أو بملاحظة المريض أثناء تداعى خواطره .

ولكن الدين ينظر إلى الموضوع فى إطار أوسع وأشمل ، هو إطار العلاقة بالله ، فمن كان قريباً من ربه ذاكراً له على الدوام كانت قدراته دائمـــاً مكتملة

وحاضرة وجاهزة لا ينسى شيئاً ولا يغيب عن باله شيء لأنه في دائرة النور ..
أما البعد عن الله فيدخل صاحبه في دائرة الظلمة ويجعله من أهل الغفلة .

« نسوا الله فأنساهم أنفسهم » .

(الحشر : ١٩)

وهؤلاء هم الذين يتخبطون في متاهات النسيان والحيرة والضياع ، والفرق بين نظرة علم النفس ونظرة الدين ، هو افتقار علم النفس للشمول والنظرة الواسعة الكلية وسجنه لنفسه داخل إطار الخبرة المادية والدنيا المادية واللذة المادية .

وبهذا المنظار ينظر علم النفس إلى الوسواس والخاطر فيرى أنه نفث من اللاشعور وأنه حديث النفس إلى النفس، ولا يتصور أن تلك النفس تحيا في محيط آخر خفي وأنها يمكن أن تكون محلا لمخاطبة الملائكة أو وسوسة الشياطين أو مكالمة الرب جل جلاله .. وبهذا المنظار ينظر علم النفس إلى العذاب النفسي فلا يكاد يخرجه من إطار الحرمان من اللذات المادية .. ولا يتصور أن العذاب الدنيوي يمكن أن يكون ابتلاء وامتحاناً من الخالق الذي خلق .. كما يفعل الحداد بالحديد حينما يدخله النار ثم يلقي به في الماء البارد ليزداد صلابة .. أو كما يصهر الصائغ معادنه ليفرز ما فيها من ذهب وما فيها من نحاس وما فيها من خبث وتراب .

ويظل علم النفس سجيناً لهذه المحدودية وهذه الرؤية المادية الحسية لكل شيء بشكل ينتهي به إلى الخطأ في جميع أحكامه .. فهو مثل الأعمى الذي اكتفى بأن يمسك الفيل من ذيله ثم راح يصور لنفسه أن هذا الذيل هو الفيل .

ولهذا ينظر علم النفس إلى العمل في نطاق الفعل والحافز دون أن يتعب نفسه في تحليل مدى صدق وإخلاص هذا الحافز ودون أن يتخطى هدف الفعل ويسأل

ماذا يريد به صاحبه .. هل يريد تحصيل المال أو الشهرة أو المجد أو الجاه عند الناس .. أم هو يعمل عاملاً مخلصاً لوجه الله .

والفرق كبير وهائل بين العملين . وهو أيضاً كبير وهائل بين النفسين ، وفصل الأخلاق عن أهدافها هو فى النهاية فصل لها عن منبعها الأصيل الذى هو الدين .. فالدين وحده هو مصدر الأخلاق .. والرحمة والحلم والرأفة والمودة والتكريم هى من الله فهو وحده الرحمن الرحيم الكريم الودود الرؤوف الحليم كما تقول لنا أسماؤه الحسنى وهو الذى يتجلى بهذه الأخلاق على كل من يستحقها ..

ولهذا يختلف علم النفس عن الدين فى علاج الأمراض النفسية ...

فلا يرى علم النفس إمكانية لتبديل النفس أو لتغييرها جوهرياً لأن النفس تأخذ شكلها النهائى فى السنوات الخمس الأولى من الطفولة .. ولا يبقى للطبيب النفسى دور سوى إخراج المكبوت إلى الوعى .. أو فتح نوافذ للتنفيس أو التعبير وتخفيف الغليان الداخلى . . ويهدف الوصول إلى ذلك يلجأ الطبيب النفسى إلى العلاج بالتنويم المغناطيسى أو العلاج بالتحليل أو العلاج بالإيحاء أو العلاج بالتنفيس والتعبير والفن والأدب أو العلاج بالاستغراق فى عمل آلى .

وكل هذه الصور من العلاج أشبه بعلاج السرطان بالمراهم أو المسكنات لأنها لا تحاول أن تغير من النفس شيئاً ، فكلها تقبل وجود الدمل النفسى على حاله ثم تقول للمريض أصرخ أو غنى أو أرقص لتنفس عن آلامك .. أو تضع يده على الدمل وتقول له .. هنا الدمل .. وهذا كل جهدهم ....!!

أما الدين فيقول بإمكانية تبديل النفس وتغييرها جوهرياً ويقول بإمكانية إخراجها من ظلمة البهيمية إلى أنوار الحضرة الإلهية ومن حضيض الشهوات إلى ذروة الكمالات الخلقية وذلك بالرياضة والمجاهدة .. ويكون ذلك على مراحل..

أولاها تخلية النفس من عاداتها المذمومة ، وذلك بالاعتراف بالذنوب والعيوب وإخراج هذه العيوب إلى النور كما قال موسى لربه بعد قتل المصرى خطأ :

« رب إنى ظلمت نفسي فاغفرلي » .

(القصص : ١٦)

وكما نادى يونس فى الظلمات :

« لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » .

(الأنبياء : ٨٧)

والمرحلة الثانية هى التوبة وقطع الصلة بالماضى والندم ومراقبة النفس فيما يستجد من أمور ومحاسبتها على الفعل والخاطر .

والمرحلة الثالثة هى مجاهدة النفس المريضة بأضدادها وذلك برياضة النفس الشحيحة على الإنفاق، وإكراه النفس الشهوانية على التعفف، ودفع النفس الأنانية إلى البذل والتضحية ، وحث النفس المختالة المزهوة على التواضع والانكسار واستنهاض النفس الكسولة إلى العمل . . وبمعالجة الضد بالضد تصل النفس إلى الوسط العدل . . وهو صراط الحكمة وهو حظ الكاملين من البشر .

ولا تنجح تلك الرياضة دون طلب المدد والعون من الله ودون الصلاة والخشوع والخضوع والفناء فى محبة الله ركوعاً وسجوداً فى توحيد كامل (وتوحيد الله لا يكون إلا بطاعته الكاملة والاسترسال معه . . فلا تريد لنفسك إلا ما يريد ربك، ولا تطلب لنفسك إلا ما يطلبه هو لك ، وهنا تحدث المعجزة فيتبدل القلق سكينة، والفزع طمأنينة والخسة الشهوانية عفة وطهارة . . والنواقص النفسية كمالات .

وذروة العلاج النفسى فى الإسلام هى « الذكر » .. وذكر الله بالقلب واللسان والجوارح والسلوك والعمل واستشعار الحضرة الإلهية على الدوام وطوال الوقت فى كل قول وفعل .

وفى الذكر شفاء ووقاية وأمن وطمأنينة لأن الذكر يعيد الصلة المقطوعة بين العبد والرب ويربط النفس بمنبعها ويرد الصنعة إلى صانعها .. حيث هو الأعلم بعيوبها والأقدر على علاجها .

« ادعونى أستجب لكم » .

(غافر : ٦٠)

« فاذكرونى أذكركم » .

(البقرة : ١٥٢)

فيعود النور ليغمر ظلام النفس ويحل العمار مكان الخراب وتتجلى الكمالات الصفاتية الإلهية على قلب العبد الخاشع .

وبينما يرى فرويد الطيبة تخاذلا وسلبية وينصح مريضه قائلا له :

« كل وإلا فأنت مأكول » .

نرى نحن الطيبة قوة وإيجابية .. ونأمر بالصفح :

« فاصفح الصفح الجميل » .

(الحجر : ٨٥)

« فاعفوا واصفحوا » .

(البقرة : ١٠٩)

« وإن تعفوا أقرب للتقوى » .   (البقرة : ٢٣٧)

وبينما يختار فرويد من الأعمال ما يساعد على تفريغ وتنفيس الغليان النفسي .. نشترط نحن العمل الصالح .

وبينما يرى أن ماضي الطفولة حاكم على كل إنسان وموجبه لأفعاله لا نقول نحن بحاكم إلا الله ونقول إننا بفضل الله يمكن أن نخرج من أي حكم ونتخلص من أي حكومة ، وبينما يقول بفطرة عدوانية وبغريزة التحطيم والهدم وغريزة الموت وبالطاقة الشهوانية كدوافع رئيسيـــة نقول نحن أن الإنسان فطر حراً مختاراً بين النوازع السالبة والموجبة يختار ما يشاء منذ البداية .

وسبب كل هذه المادية الفرويدية ومادية علم النفس الحديث بوجه عام هو تصوره للانسان تصوراً آلياً حسياً فسيولوجياً .

وهو عين ما فعله كارل ماركس حينما تصور أن التاريخ غربة تحركها المصالح المادية والقوى المادية وحدها .. وأن حركة التاريخ هي دائماً ثمرة الصراع بين طمع الأغنياء وحقد الفقراء إلى آخر ما حكيناه في الكلام عن الصراع الطبقي .

وهذا التصور المحدود والأفق الضيق المسدود هو الذي أدى بالإثنين إلى اعتساف الفروض والتخريجات .. وهو الذي أدى بالإثنين إلى تلفيق ما قالاه عن النفس وعن التاريخ وهو الذي انتهى بالإثنين إلى اعتساف الأدلة وتزييف البراهين .

وقد ظهر فشل الطب النفسي الحديث من التتبع الاحصائي للحالات التي تم علاجها نفسياً .. فقد اتضح أن معدل شفاء المرضى المصابين ثابت سواء عولجوا على طريقة فرويد أو عولجوا بطريقة أدلر أو لم يعالجوا على الاطلاق .. فمن يشفى منهم حاله كحال مريض الانفلونزا مصيره إلى الشفاء سواء بالعلاج أو بدون العلاج .

كما اتضح أن معظم الأطباء النفسانيين هم مرضى أكثر من مرضاهم وفى حاجة إلى تحليل .

وأخيراً رأينا الطب النفسى ينتكس ويرتد إلى العلاج المادى بالمسكنات والمهدئات والمخدرات .. والمنومات .. وهو اعتراف بالعجز والفشل .. وبهروب من المشكلة كلها بالنوم عنها .

وكيف لا تنتهى الفرويدية إلى الفشل وهى القائلة باستحالة تغيير النفس وتبديلها .. وبأن النفس تتشكل فى سنوات الطفولة الأولى . ثم تصبح قدراً لصاحبها لا خلاص منها .

وماذا أبقت لنا هذه النظرة سوى العلاج بالمسكنات والمراهم الخارجية لقد انتهى علم النفس الحديث إلى الفشل لأن منطلقاته معظمها خاطىء وكان أكبر أخطاء هذا العلم أنه ليس علماً كما أن الماركسية لم تكن أبداً علماً .. وإنما هى مجموعة أفكار ظنية ...

كما أن علم النفس الحديث هو الآخر مجموعة أفكار ظنية وهذا بعض ما أورثتنا الحضارة المادية من ظنون وأوهام ..

وواجبنا أن نعرض هذه الحضارة على الفرز ...

وما فعله الدكتور حسن الشرقاوى فى كتابه الجليل فى علم النفس نفعله فى كل فروع السياسة والفلسفة والفكر والاجتماع ...

لقد عشنا مئات السنين عالة على الغرب ولكننا اليوم نستطيع أن نعطى الغرب ونعطى الشرق وما أكثر ما يستطيع الاسلام أن يعطى لهذا العصر الخرب .؟

د. مصطفى محمود

مقدمة

كان من توفيق الله . . وحسن الطالع . . أن يقدم هذا الكتاب . . العارف بالله . . دكتور عبد الحليم محمود . . إمام الإسلام فى هذا الزمان . .

لقد خط بيده المباركة حروفاً من نور ليؤيد الحق ، وينكر الباطل ، فحمل على أدعياء العلم من الماديين والحسيين ، مبيناً خبث نواياهم ، كاشفاً زيف مزاعمهم ، عارضاً فقر دعاويهم . . . التى تثير الشهوات المنحرفة . . . واللذات الرخيصة ، مظهراً للناس أن ذلك من مرض القلوب . . .

لقد أولانا الإمام الأكبر بجل إهتمامه ، وحسن رعايته ، ولم يبخل عن توجيهنا إلى المراجع الثمينة ، وإرشادنا إلى المخطوطات الطيبة ، فى كل ما كتبنا ونكتب ، ولا شك فى أن ذلك أثرى فى تقدم أبحاثنا المتواضعة . .

فنسأل الله تعالى أن يجزيه عنا حسن الجزاء ، وأن يبقيه ذخراً لتثبيت القلوب المتعطشة لنور التوحيد ، وأن يحقق على يديه العزة للإسلام والمسلمين . .

ولقد سرنا — بفضل تشجيع الإمام الأكبر — على هذا الدرب ، مقتدين بآيات الله . . وسنة رسوله الكريم . . نقتطف من ثمارها اليانعة ، ونرتشف من رحيقها العذب ونتزود منها بالعدة والعتاد . . حتى حان وقت الحصاد . . فكان إخراج هذا الكتاب — منة من الله وفضلا — نقصد به وجه الكريم ، تبصيراً بكلماته التامات ، ودحضاً لمنهج الملحدين والأدعياء من الماديين . . والتجريبيين ، والحسيين ، وأصحاب التحليل النفسى . . .

ولقد حظى هذا الكتاب قبل نشره — بتوفيق من الله — بتقريظ الكاتب الكبير الدكتور مصطفى محمود . . فقد قرأ أصوله . . وفصوله فأعجبه ، وأشاد

إليه في مقالاته العديدة ، وكتبه الطيبة .. وأحاديثه التليفزيونية الشيقة .

ولا شك في أن الدكتور مصطفى محمود من أبرز كتاب العالم العربي .. فهو مفكر جاد .. نشط .. ذا نظرة عميقة ثاقبة فاحصة ، فضلا عن أنه أديب شمولي يمتاز بتنوع ثقافته .. وغزارة علمه .. وبساطة أسلوبه ، وقدرته الفائقة على إيصال الفكر إلى الناس ...

والحق .. فإن الدكتور مصطفى محمود .. لم ينقطع لحظة عن تشجيعي وحفزي على العمل ، حتى أنه دعاني في صيف ٧٦ حيث قضينا سوياً ثلاثة أيام نتناقش في موضوعات هذا الكتاب ، فله شكري العميق .. وخالص مودتي سائلا الله أن يكافئه على حسن صنيعه .

وبعد فإن معالجة هذا الموضوع لا تستهدف منها وضع العقبات أمام العلوم .. والمناهج الوضعية والتجريبية .. إذ أنه مما لا شك فيه أنها تخـــدم حضارة الإنسان ، وتيسر له استخدام الوسائل المحققة لأغراضه .. وتعمل على إثراء معارفه وتوصل له ما كان بعيداً ، وتطور ما كان ضعيفاً .. ومعقداً ، وتعاونه على السيطرة على مواد الطبيعة التي تخدم أهدافه وتحقق مقاصده ...

بيد أن هذه العلوم اغترت بطرائقها ، وانبهرت بنجاحها بما استحدثته من وسائل .. وما استكشفته من صناعات حديثة .. فبـــدل أن تزيد من إيمان الإنسان ، أبعدته بمناهجها عن أهداب الدين ، مدعية أن أبحاثها تتعلق بالعلم الموضوعي .. وهذا العلم ينظر فحسب فيما هو تجريبي وتطبيقي ، وملموس ومحسوس ..

وأما الدين فهو — في ظن أصحاب هذه العلوم — لاهوتي غيبي لا تقبـــل موضوعاته الخضوع الى التجربة العلمية والعملية .. حتى أنه قد نادى بعض العلماء

الماديين — فى تبجح — بضرورة تطوير الدين حتى يمكن أن يواكب متطلبات العصر !!

كما زعم البعض الآخر أن حقائق العلم متطورة ، أما حقائق الدين فجامدة بالية .. ومن ثم يجب أن يعاد النظر فيها .. فلا يقبل منها إلا ما يوافق المنهج العلمى الحديث ..

لقد اشتط هؤلاء العلماء فى تفكيرهم وجنحوا بعيداً عن الحق والصواب.. « وغرتهم الأمانى .. وغرهم بالله الغرور » .

ظنوا أن نجاحهم فى إثبات بعض الفروض - التى لم تصل إلى نظريات قطعية بعد يؤهلهم لإصدار الأحكام على كل شىء .. جربوه أم لم يجربوه .

لقد اعتقدوا كبراً واستعلاء أنه بمقدورهم أن يخلقوا خلقاً جديداً ، وأن يهدموا الدين الذى أسموه رجعياً قديماً .. وحسبوا أنهم بذلك يسيطرون على عقول الناس .. فأطاعوا شياطينهم التى أبعدتهم عن الصراط المستقيم وقادتهم إلى الانحراف وأوقعتهم فى الزلل والخطأ .

لقد غفل هؤلاء عن حقيقة هامة وهى أن جمود الدين وقدمه خير وفضيلة ، وليس عيباً ونقصاً .. إذ أن عدم قابلية الدين للتغيير هو تعبير عن السمو والكمال والصدق .. فرغم وجود التناقضات والاختلافات والتعديلات فى مناهج العلوم الحديثة .. تبقى حقيقة الدين .. وستبقى دائماً رمزاً لليقين النهائى .. والحق الواجب أن يتبع .

والشريعة ثابتة .. فلا تبديل لكلمات الله فليست تجارب تصدق أو تكذب مثل ما يحـــدث فى العلوم الحديثة التى تتغير بتغيير البيئة والثقافة والظروف .. إذ الشريعة هى الحق الذى لا يأتيه الباطل من يمين أو يسار .

« فأما الذين آمنوا آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم » .

لقد نسى هؤلاء العلماء فيما نسوا أن ما أسموه بالتطور العلمى ليس إلا انتقالا من حالة إلى حالة . . ومن تجربة إلى أخرى . . يجوز أن تنجح ، كما يجوز أن تفشل ، بل يمكن أن تتحول التجارب إلى الأسوأ . . كما يجوز أن تنسحب إلى الأحسن والأفضل . . .

إن كثيراً من فروض العلم التى تتعلق بمباحث النفس قد ثبت بطريق الدليل التجريبى ، والتطبيق العملى فشلها ، وأضحت اليوم كماً مهمـــلا . . وفكراً عقيما متداعيا . . .

كما أن هناك أبحاثاً جديدة فى مجالات العلوم المختلفة توصلت إلى نتائج علمية تثبت خطأ نظريات علمية كانت لها الصدارة عند الباحثين منذ أعوام قليلة . . .

يقول وليم جيمس(1) . . أحـــد علماء النفس المعاصرين عن كتابه « مبادىء السيكولوجية » الذى كتبه قبل أن يتحول عن مناهج علم النفس :

« إن كتابى هذا يمثل كتلة كريهة منتفخة متورمة تشهد أنه لا شىء يسمى علم السيكولوجية » .

ورغم كل ذلك يسعى البعض مع تسليمه بقصور المنهج العلمى بمدارسه المختلفة . . عن معالجة موضوعات النفس . . يسعى إلى مهاجمة الدين بدون دليل أو علم . .

إننا نستحسن ـــ كما سبق الإشارة ـــ ما توصل إليه العلم من أساليب جديدة تحقق للانسان استخدام وسائل حديثة تتميز بالبساطة والسهولة ، تساهم فى تحقيق حياة أكثر رفاهية ورغداً .

ولكننا نستنكر محاولات المطابقة بين المـــادة الصماء وبين الإنسان .. وإخضاع النفس الإنسانية إلى تلك المقاييس الجامدة والمناهج التجريبية التى تصلح فحسب فى مجالات العلوم الرياضية والطبيعية .

وحتى يسهل لأصحاب العلم الحديث الوصول إلى أغراضهم .. زعموا أن كل ما لا يثبت عن طريق التجربة .. محض وهم وخيال .. وأنه لا يمكن لمفكر يحترم عقله أن يؤمن بالمغيبات .. ومن هنا نشأت دعاوى لا أخلاقية جديدة .. تشبه فى مضـــامينها دعاوى السوفسطائيين .. يقول أصحابها — مع اختلاف مشاربهم — إن الحرية الفعلية إنما هى فى اختيار الفرد لما يراه صالحاً ..

كما أن بعضهم يجهر بالقول بأن على الدولة أن تنظر إلى ما يحقق لها أكبر منفعة .. دون الاعتداد بالقيم الدينية وما يتبعها من إلزام خلقى .. إذ أن الدين أفيون الشعوب ، وأنه أسلوب من أساليب العبودية .. يفرض نظامه المتعسف على الأفراد والجماعات . فيجعلهم أرقاء لقواعده .. عبيداً لأوامره .

وينتهى أصحاب هذه النظريات الإلحادية — مع اختلاف طرائقهم — إلى أنه لا حاجة لإنسان القرن العشرين إلى الدين ... أو الإيمان بالله .

فإن العلم الحديث فى زعمهم قد حقق انتصاراً عظيما فى مجال العلوم الطبيعية ، وأنه لاشك قادر على تحقيق نجاحات أخرى فى كل مجالات الحياة إذا وجهت جهود العلماء إليها ..

والغريب أن ادعاء العلم الحديث بنجاح أبحاثه لا يؤيده الواقع ، ذلك لأن العلم لم يستطع أن يثبت حتى الآن أكثر من نسبة ضئيلة جـــداً لا تتعدى ثلاثة فى المائة من حقائق الكون .. وأن ذلك الذى أثبته لم يتعارض البتة مع حقيقة

واحدة من حقائق الدين . فكيف للعلم إذن أن يدعى أن الدين غير صالح وغير متطور ولا يتفق مع نظريات العلم الحديث .

كما أن العلم الحديث — كما سبق الإشارة — ما زال يقف عاجزاً عن تفسير غالبية الحقائق الكونية . والتعرف على ناموس الطبيعة ، فكيف له أن يزعم بعد كل ذلك أن سر نجاحه راجع إلى بعده عن الدين . .

فإذا جاء بعض علماء النفس الحديث ، وفرضوا أنفسهم على ما لا يعرفون عنه شيئاً . . وحاولوا تطبيق مناهجهم التجريبية ، وقياساتهم العقلية وافتراضاتهم الظنيه . . فإن ذلك يعد لغواً وعبثاً وإضاعة للجهد ، وإسرافاً فى المال .

ولم يقف هؤلاء العلماء عند هذا الحد ، بل ادعوا كذباً . . أن نظرياتهم التى لا تزال فروضاً لم تثبت بعـــد . . هى الحلول النهائية لمشاكل الإنسان النفسية والخلقية الاقتصادية . . والعجيب أن بعض العقول اللاهية ، والأنفس المغترة ، والقلوب المريضة ، انقادت وراء هذه النزعات الضالة ، والمزاعم الغريبة تحمى تشنجاتها المجنونة . . وصرخاتها المسعورة التى تثير فى النفس الحية الاشمئزاز . . بما توقظه من الشهوات البهيمية ، وتسلط الغرائز الحيوانية ، وموافقة الأهواء للاستمتاع باللذات الرخيصة ، وفى المطالبة بحريات مزعومة التعبير بها عن كل ما هو ساقط وفاجر ومنحرف ، ولا هدف من ذلك سوى القضاء على كل فضيلة واقتراف كل رذيلة ، والانفكاك عن الالتزام بهدى الدين والتمسك بالأخلاق القويمة . .

وهذا الكتاب محاولة للسير فى الاتجاه الصحيح فى دراسة النفس ، واختيار المنهج السليم فى تفهم الدوافع الإنسانية . . قد استقينا مادته الأصيلة من القرآن

الكريم .. والسنة المحمدية ، واجتهادات الأئمة ، وإجماع علماء الأمة . .

ويتحدد المعيار الإسلامى الذى يحكم به على صلاح السلوك الإنسانى وفساده وانحراف النفس واستقامتها ، فى الوسط العدل .. وهو الخير الفاضل الذى ورد فى قوله تعالى :

« يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » .

(البقرة : ٢٦٩)

وتبدو الحكمة فى آيات قرآنية عديدة بمعنى الاستقامة ، والإقامة والقوامة ، والقسط ، والاعتدال ، والعدل ، والقصد ، والاقتصاد :

« وجعلناكم أمة وسطاً » .

(البقرة : ١٤٣)

« قال أوسطهم » (أى أفضلهم رأياً وأتمهم حكمة) .

(القلم : ٢٨)

« إهدنا الصراط المستقيم » .

(الفاتحة : ٦)

« واستقم كما أمرت » .

(الشورى : ١٥)

وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » .

(الرحمن : ٨ ، ٧)

وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين » (أى العادلين » .

(المائدة : ٤٢)

« واقصد في مشيك » . (لقمان : ١٩)

الذي خلقك فسواك فعدلك » . (الانفطار : ٧)

ويوضح لنا القرآن الكريم أن النفس السوية هي التي تنتهج الوسط العدل ، بلا إفراط أو تفريط ، وهذا وارد في آيات عديدة منها قوله تعالى :

« ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش في الأرض مرحاً » .

(لقمان : ١٨)

« ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » . (الإسراء : ٢٩)

« فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات » .

(فاطر : ٣٢)

ولذلك كان الوسط العدل هو المنهج الواجب الاتباع عند جمهرة الأئمة وهو الوسيلة الحقة لبلوغ الأمن والطمأنينة في الحياة الدنيا وفي الآخرة وهو المقياس الذي يمكن أن تقيس به فساد الأمور وصلاحها . . .

وإذ الانحراف عن تلك الوسيلة المثلى . . سواء بالإسراف أو التقتير يعد بعداً عن الغاية التي خلق من أجلها الإنسان ، ومن ثم يتعثر المنحرف في طريقه، ويقع في الأمراض والنقائص ، فيظلم نفسه وتظهر عليه أعراض المرض النفسي كالغفلة واليأس والقنوط والغرور والعجب والحسد والطمع والرياء والنفاق . . إلى غير ذلك من الأمراض التي تصيب الإنسان لبعده عن العدل الواجب الاتباع ومخالفته لناموس الكون الذي خلق بميزان عدل ، وخير فاضل ، فالذي يتبع هواه

يظلم نفسه، إذ أن ذلك يعد من الفوضى والكون لا يعرف إلا النظام ...

أما الذين يخالفون أهواء النفس، ويتجنبون الشهوات الرخيصة، ويعملون بآيات الله .. ويقتدون بسلوك الرسول - ﷺ - فهم الصادقون المؤمنون الصابرون العاملون الحامدون الشاكرون .. وهؤلاء يحظون بالأمن والسكينة النفسية، ويشعرون دوماً من الله تثبيتاً لأقدامهم في العلم والعمـــل .. وينالون رضى الله .. وحب الله .. وعلم الله .

والقرآن الكريم يفتح لنا مغاليق النفس، ويبين لنا في وضوح تام أن النفس الإنسانية تشتمل على خاصتين أساسيتين .

الأولى : النزوع إلى طلب الشهوات والفجور .

الثانية : المجاهدة في طريق الله بالتقوى .

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » .

(الشمس : ٧)

« وهديناه النجدين » (الخير والشر) .

(البلد : ١٠)

ومن هدى هذه القاعدة على الإنسان أن يختار طريقه .. أما إلى الصحة النفسية وذلك بتربية النفس تربية سليمة .. فيخلي عنها الفجور .. ويعمل على تحليها بالتقوى ولن يتحقق له ذلك إلا بالرياضة النفسيـــة التي تتحدد في حراسة النفس وسياستها ورعايتها ومحاسبتها ومراقبتها .. حتى لا تغفل ولا تنسى، وبذلك تستقيم النفس رجاء في وعد الله، وخوفاً من وعيده تعالى . . فيستعيذ الإنسان بالله عند الشدة والضعف فتقوى نفسه وتتجنب الأهواء والشهوات، وتتغلب على غواية الشيطان

ومكائده .. وهنا تشفى من أمراضها ، وتبلى من أسقامها ، وذلك بدوام الذكر وتمام الصبر ، وكظم الغيظ ، وبالهمة والعزم . . وأما أن يختار الانسان الهوى ، فيصير عبداً لنفسه الأمارة بعد أن كان سيداً عليها فتتقاذفه الهواجس ، وتفزعه الوساوس ، ويملأ قلبه الشك والريبة ، ويقع فى اليأس والقنوط ويظلم نفسه ، فينقاد إلى الانحراف ويقترف كل فاحشة ورذيلة حتى يصبح كالميت والحى .

وأخيراً .. لست أدعى لنفسى الإتيان بالجديد فى هذا العلم ، وليس لى أن أتفاخر بأنى أول من ولج بابه . . ووعى مقاصده . . فلقد عرف أئمة الاسلام الأولين أصوله ، وتفهموا غاياته ، وأخرجوا لنا تراثاً ضخماً يبين فصوصه وجواهره .. لكن غزو العلم الغربى الحديث واستعباره القلوب والنفوس حتى أصبح أمراً مسلماً به جعل من الصعوبة بمكان الرجوع إلى الحق ، وقد دفع ذلك كثير من المقلدين والمبهورين بالمناهج الحديثة إلى العزوف عن إخراج هـذه الكنوز الثمينة ، كما عزف كثير من العلماء عن ولوج هذا الباب ، إما خوفاً من هجوم الطاعنين ، وأما جهلا بالشريعة ، فترك هـذا التراث العظيم لعدة قرون مقبوراً داخل توابيت النسيان . . دون أن يحظى بعناية ما من الباحثين والعلماء للاستفادة بمناهجه القويمة . .

ولا يخفى أن كثيراً من طلبة العلم يتشوقون إلى معرفته ، ويودون أن تتاح لهم فرصة دراسته كبديل للمناهج الغربية التى يشعرون أنها جسم غريب .. يدخل كالضيف الثقيل إلى بيوتهم فينفث سمومه ، ويشيع بين جنباتها الشك .. الفوضى .. واللامبالاة .. والضياع . . .

لقد كشف العلم الحديث عن قصور أدواته . . فيما يتعلق بالعلوم الانسانية ..

وعجزت مناهجه عن حل قضايا إنسان القرن العشرين . . ولقد حان الوقت الآن للاستفادة بالمنهاج القويم واستخدامه فى حل مشاكل الانسان المعاصر النفسية . والخلقية .. والاجتماعية . . والاقتصادية والقانونية .

لذلك فإنى آمل أن ينشر هذا التراث العلمى العظيم ليتعرف عليه كل متعطش لمعرفة حقائق الدين .. وحسبى أنى نبهت إلى المنهاج الذى أومن بأنه واجب الاتباع . وعلى الله قصد السبيل .

د. حسن الشرقاوى

الباب الأول

اسس علم النفس الاسلامى

مقدمة

« قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض » (الفرقان : ٦)

« ان الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه » (النمل : ٥٦)

« يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا » (الانعام : ١١٢)

« وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون » (الانعام : ٨٠)

« اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وإنى فضلتكم على العالمين » (البقرة : ١٢٢)

« ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الامانى » (الحديد : ١٤)

« وأن ليس للانسان الا ماسعى وان سعيه سوف يرى » (النجم : ٣٩)

« يا آيها الذين آمنوا أطيعو الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (النساء : ٥٩)

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » (النساء : ١)

« يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة » (البقرة : ١٥٣)

« يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء » المائدة : ٥١)

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وأخواتكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان » (التوبة : ٢٣)

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن » (الحجرات : ١٢)

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم » (الحجرات : ١١)

« يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » (الحجرات : ٦)

« يا أيها الذين آمنو لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم » (المائدة : ١٠١)

« يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم »

(النساء : ١٧٠)

« ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما » (طه : ١١٢)

« فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » (فاطر : ٥)

صدق الله العظيم

الفصل الأول

محنة علم النفس الحديث

تهتم الدولة فى الوقت الحاضر بتدريس مادة علم النفس بالمدارس والمعاهد والجامعات ، وتهدف من ذلك تبصير الشباب بالظاهرات النفسية ، وتعريفهم با لآفات والنزاعات والدوافع التى يصاب بها الانسان إذا ماترك دونما تربية وإرشاد وتوجيه . . . وبالجملة ترمى الدولة إلى المحافظة على الصحة النفسية لشبابنا .

كما تهدف الدولة أيضا من تدريس هذه المادة للطلاب إلى إستجلاء الطرق العملية الموصلة لعلاج الأمراض النفسية والعصابية ، إذ أنه بغير تفهم عميق لمعالم النفس الانسانية يفقد الإنسان سلاحه ضد مواجهة الصراعات الداخلية والدوافع الغريزية ، والتى تكمن مصادرها فى الجهل وعدم معرفة الانسان لحقيقة نفسه . . .

وإذا ما جهل الانسان نفسه فانه لاشك واقع فى الأمراض النفسية المختلفة ، سواء كان ذلك فى صورة شعور بالنقص أو الذنب أو الضعة أو إحساسا برغبات قسرية . . للإنطواء أو العدوان أو السلبية . . وبالجملة فان الجهل موصل إلى مهاوى السلوك الشاذ . .

اذن ، فالانسان محتاج بالضرورة إلى التعرف على الآفات النفسية التى يمكن أن يصاب بها ، وعليه أن يتخذ الاحتياطات اللازمة للوقاية منها والتحصن ضدها حتى يسلم من الوقوع فيها ، والشباب على وجه الخصوص محتاج الى هذا النوع من

التربية النفسية ليعد اعدادا صالحا للمشاركة فى بناء الحياة والمجتمع ، وهو متمتع بالصحة النفسية والبدنية ....

ولاشك أن الصحة النفسية مكملة للصحة البدنية ، كما أنها أولى بالرعاية وأحق بالعناية ، لأنها تتطلب العلم الدائم ، والتربية السليمة، والتوجيه المستنير ، والارشاد المستمر ، اذ انه قد لايكفى جو الأسرة الصغيرة فى العصر الحديث — للقيام بهذا الدور الجوهرى للتحصن ضد الامراض النفسية ، وذلك لتشابك الوسائل بالغايات، وتعقد المجتمع بحيث لايعرف الشباب ماهو غاية ، وما هى الوسيلة الناجعة لتحقيق هذه الغاية .

أما فيما يتعلق بالصحة البدنية فان التقدم العلمى والتكنولوجى قد بصر الانسان المعاصر بالأعراض المرضية وبطرق الوقاية منها، وبسر سبل علاجها، وأنشأ لذلك المستشفيات والمصحات والعيادات ، فضلا عن أن الأمراض الفسيولوجية غالبا مايتمكن الطبيب من تشخيص أسبابها ، ومعرفة أعراضها بما يظهر على المرضى من تغيرات واضحة مصحوبة بآلام وأوجاع ، ومن ثم يتيسر علاجها إما بالعقاقير والجراحات أو بالأشعة .. الى غير ذلك من الطرق العلاجية .

وإننا لاننكر أن الخطوة التى أقدمت عليها جمهورية مصر من ضرورة دراسة علم النفس الحديث بالمدارس والمعاهد والجامعات هى خطوة جريئة الا أننا نتساءل عما اذا كان تدريس هذا العلم فى مدارسنا بصورته الراهنة سيؤدى بنـــا الى تحقيق الهدف الذى تنشدة الدولة من ورائه ؟ . . أننا لانخفى أننا نتشكك فى ذلك كثيرا ، اذ نرى أن هذا العلم بمفهومه الحديث وبمدارسه المختلفة يستهدف البحث عن أمراض النفس ويضع فروضا مختلفة لعلاجها لم يصل ولا نظنه سيصل بمناهجه العلمية والموضوعية الى نظرية صالحة لتفسير السلوك الانسانى ، اذ أنه من المستبعد عن

طريق أستخدام هذه المناهج إصدار أحكام تقريرية عن الشخصية الانسانية ، فمازال علم النفس الى الآن وايدا لم يشب عن الطوق، كما أنه يعتمد على اجتهادات بعض العلماء الذين مايلبث غيرهم ، أن يقيموا الأدلة على تهافت حججهم، وضعف مناهجهم،وضآلة تفكيرهم ، واذا بهم يهدمون هذه النظريات ويدحضون تلك الآراء ويدالون على فسادها وكذب نتائجها تجريبيا ومعمليا . (١) .

والواقع أن علم النفس الحديث بمدارسه المختلفة التجريبية والاكلينيكية والقياسية لم يتوصل حتى الآن الى تعريف الشخصية الانسانية تعريفا كافيا وشاملا وواضحا . .

أننا لاننكر أنه قد وضعت مئات من تعريفات الشخصية ، الا أن جميعها يناقض بعضها البعض ، حتى انتظهر لنا آخر الأمر متهافتة ومعرضة للنقد أو قاصرة عقيمة . .

ويرجع السبب فى قصور هذه التعريفات — فى تصورنا — إلى المناهج التى يصطنعها علماء النفس الحديث ، ذلك أنهم جميعا مع أختلاف مشاربهم وتباين وسائلهم ، يريدون أن يخضعوا الشخصية الانسانية تعسفا لمناهج العلوم الموضوعية والتجريبية ، ولذلك فانهم يضعون النظريات الافتراضية (٢) لعلهم يخلصون الى تعميمات يمكنهم بها تفسير السلوك الانسانى ، وتعريف للشخصية وأبعادها ، بل أنهم

---

(١) راجع فى هذا الموضوع لمزيد من التفصيل :

(أ) ه . ج أيزنك — الحقيقة وتوهم فى علم النفس ص : ١٢ — ١٨ ترجمة قدرى حفنى ورؤف نظمى — باشراف د. يوسف مراد

(ب) أو الطبعة الانجليزية باسم : Fact & Fiction in psychology

(٢) لك . هول نظريات الشخصية ص : ٢٩ — ٣٤ ترجمة د. فرج أحمد فرج

يأملون من ذلك تحديد أنماط وسمات الانسان ، مثلما يجرى على المادة الصماء ، والموضوعات الحسية ، والاشياء الجامدة التى يمكن أن تخضع للتجريب والتطبيق العلمى والمعملى . .

لقد نسى هؤلاء العلماء أن النفس الانسانية غير المادة ، اذ توهموا خطأ أنه اذا تم لهم دراسة النفس دراسة جزئية ، وذلك بتفتيتها الى أجزاء ، وملاحظتها على هذا الاساس ، ووضع الفروض اللازمة للبرهنة على الاختبارات ، فانه يمكن فى ظنهم عمليا الوصول الى بعض التعميمات على صدق هذه الفروض بعد امتحانها عمليا . . (١) .

ولكن تجدر الاشارة الى أنه بافتراض إثبات صحة بعض هذه الفروض على عينات مختارة عشوائيا ، فان ذلك لايمكن أن يكون دليلا على تطابقها على الافراد جميعا ، اذ أنها لاتشمل حقيقة الانسان فى الزمان والمكان واذا صدقت بعض هذه الفروض ، وصادفت نجاحا ، فانما قد تصدق على الجزء الذى أقتطع أو الذى تم دراسته فحسب ، وهذا الجزء يكون قد فقد الحياة التى تمتاز بها الشخصية الانسانية المتكاملة فى تفاعلاتها مع الغير وفى مواقفها المتغيرة وحقائقها الوجدانية المتباينه ، ونشاطها السلوكى ،، وفى اتجاهاتها العامة والخاصة .(٢)

أن هذا الاقتطاع — فى تصورنا — انما هو بتر لجزء من أجزاء الشخصية ومعاملته تجريبيا مثل مادة جامدة صماء ، وبذلك يكون هذا الجزء ليس له أيه علاقة بالشخصية الاصلية فى أكتمالها من قريب أو بعيد .

---

(١) راجع • د• سيد غنيم — سيكولوجية الشخصية طبعه ٧٣ ص ٣١ — ٣٥ •

(٢) د. صبرى جرجس — التراث الصهيونى والفكر الفرويدى — ص٢٤٢ ومابعدها.

ومن ثم فإن النتائج التى يتوصل اليها علماء النفس التجريبى لا تزودنا بفهـم جديد أو بتعميمات كافية أو مبررات وافيه للحكم على الشخصية ،كما أنها لاتبصرنا بما تقدمه الينا من فروض وقياسات قاصرة بتعريف واضح يصدق تماما على الشخصية الانسانية .

ومن ناحية أخرى ، فإن مدارس التحليل النفسى ، وإن إختلفت وسائلها المستخدمة عن مدارس علم النفس التجريبى والقياس النفسى ، الا أنها مع ذلك لم تنجح فى إمدادنا بمعرفة طيبة عن الشخصية ، اذ أنها هى الأخرى قد وضعت فروضا نظرية حاولت بها أن تفسر مظاهر السلوك الانسانى ودوافعه على أساسها .

لقد فرض أصحاب التحليل النفسى تعسفا ، نظريات الشخصية كأمر واقع مسلم به لايقبل المناقشة ، فجعلوا من الحتمية النفسية حكما أبديا عاما على سائر الجنس البشرى ، وتصوروا أن الكبت هو الأساس الوحيد للنشاط البشرى ، فهو عملية دائمة ومستمرة لا تفتر ولاتضعف ، لأن هناك شيئا فى النفس يحاول ويلح فى الوصول الى الادراك الواعى ، أو الخروج الى عالم الواقع من أجل التحقق،وأن المقصود من الكبت هو إبعاد ما هو مؤلم عن نطاق الوعى أو الشعور .

ويمكننا القول أن أصحاب التحليل النفسى لم ينجحوا فى اثبات فروضهم الاسطورية رغم كثرة تفسيراتهم وتحليلاتهم لمجالات الشعور واللاشعور ، والانا والهو ، والأنا العليا ، واستحداث قصص خيالى والصاقه بالشخصية كمحرك وباعث ودافع للأنشطة والسلوك .

لقد جعلوا من أسطورة « أوديب » و « الكترا » حقائق تمتاز بها كل شخصية

انسانية ، ونسوا أن لكل شخصيــة مفردة طابعهـا المميز فى السلوك والحياة والمجتمع .

والدليل على عقم هذه الفروض المتخيلة أنها فشلت - رغم كل التفسيرات والتحليلات — فى علاج أمراض النفس ، بل ربما أزادت من شقاء الانسان المعاصر ...

وها هو أحد كبار علماء النفس المعاصرين ، هو Eysenck ـ ايزنك (١) يقول: « أن معدل شفاء العصابيين ثابت فعليا سواء عولجوا بأساليب العلاج النفسى المعروفةأو تركوا دون علاج ! »

ليس هناك إذن — رغم تعدد عيادات التحليل النفسى فى أنحاء المعمورة — من تقدم فى شفاء الأمراض النفسية والعصابية ، ويرجع سبب ذلك كله ـ كما سبق الاشارة ـ الى عقم الفروض والنظريات التى أسسها أصحاب التحليل النفسى عن حقيقة النفس البشرية .

والواقع أن عالم النفس عالم عجيب ، فهو يتغير باستمرار ولا يمكن التنبوء بتصرفات الفرد وسلوكه المقبل مهما وضعنا من المقاييس الدقيقة،والمناهج الموضوعية، ذلك لأن النفس البشرية ليست مادة جامدة ، إنما هى عالم له أبعاد عميقة الغور ، متشابكة المصالح ، غير مقيدة ولا معينه ولذلك لايمكن قياسها بقياسات وأدوات محدودة ....

---

(١) ه . ج أيزنك — الحقيقة والوهم فى علم النفس ص : ١٥٨ — ١٦٠ ترجمه قدرى حنفى وكذالك :

Eysenck H. J. (Ed.) Handbook of Abnormal psychology chapter one - london. pitman 1960.

كما أنه من الصعوبة بمكان اخضاعها لأى منهج من هذه المناهج سواء كانت علمية أو موضوعية ، اذ كيف نحكم على ماليس مقيد ولا محدود بما هو مقيد ومحدود ؟! .

علينا إذن أن نسعى جاهدين للبحث عن فهم رشيد للشخصية الانسانية لنستق منه الحقائق التى لاجدال فيها،ولانتصور ذلك ممكنا الا اذا اتجهنا الى النبع الفياض، والحق الذى لايتطاوله عقل : فنعرف الشخصية بتعريف لم يضعه بشر عاجز ، ولا حس مريض ، ولا عقل ناقص ، ولا إرادة مائلة الى الهوى ، إنما وضعه إله كامل ، ثابت ، ليس كمثله شىء أزلى أبدى ، لاتبديل لكلماته . . ولاتغيير فى آياته ، فهو تعالى عالم بخلقه وبجبلات نفوس مخلوقاته ، بصير بعيوب عباده . .

لقد عرفنا تعالى بنفوسنا أكمل معرفه وبين لنا الطريق الحق للصحة النفسية فى الدنيا والآخرة ، واذا كان علم النفس الحديث بمدارسه المختلفة قد تخبط فى وصف أمراض النفس ، وحاول علاجها بطرق سلبية ، واساليب تخدير بةهى بمثابة مسكنات لأمراض سرطانية ، مايلبث أن يزول تأثيرها فيرجع المريض الى حالته الأولى من المرض والعصاب .

ولقد استخدم لذلك أساليب وطرقا عقيمة كالايحاء ، والتنويم المغناطيسى ، والتنفيس ، واللعب ، والتداعى الحر ، وتفسير الأحلام ، والأباطيل . وغير ذلك من الطرق السطحية ، وحتى لوأفترضنا تخلص المريض عن طريق هذه الطرق من بعض أمراضه الباطنه فانه مايلبث أن يشحن مرة أخرى بأمراض جديدة أكثر ضراوة تزيد من تفاقم حالته .

إن الطريق الحق لعلاج النفس من أمراضها إنما يكون فى تخلية النفس من نزعاتها الشهوانيه وأهوائها النفسيه ، وأوصافها المذمومه ، وتحليتها بالاوصاف

المحمودة ، وبذلك يمكن شحن فراغ النفس بعد التخلية ، بمفاهيم إيجابيــة جديدة ومبادىء سامية قويمة ، حتى تتغير حال النفس وتتطبع بالمثل العليا والأخلاق الفاضلة ، وتسلك طريقا أكثر أمنا وأعظم أملا .

ولن يتحقق للإنسان ذلك الا بالتربية السليمة ، والتنشئة على محبة الفضــائل وبالتمسك بمكارم الاخلاق . وبالتبصر بطريق الله ، وبالصبر على المكاره ، وتحمل الفاجعات ، والتزهد فيما عند الناس ، والصبر على الابتلاءات والرضا بالاختبارات وبهذا الطريق وحده تتفوق النفس على أنانيتها ، وتقوى على شيطانها ، فلا تنزع إلى الأهواء ولا تميل إلى الشهوات . ...

وإذا أستقام الانسان ، فإنه يلهم بالحقائق — فضـلا من الله ومنة — فيحيـا بالخشية قريبـا من الله ، وينجو بالخوف من وعيد الله ، ويقبل بالرجـاء في وعـده تعالى ، فتطمئن نفسه بحب الله ، فلا تنشغـل بسواه ، ، وبـذلك تنسى غرورهـا ، وتكبرها ، وتجبرها ، وتعاليها ، فينصلح حالها وتبتعد عن النقائص والآفات ، وعن الوساوس والهواجس والأمراض . .

فاذا كان علم النفس يريد حقا أن يتعرف على حقيقة النفس البشرية ويسعى إلى حكم رشيد على الشخصية الانسانية ، فعليه أن يغير من وسائله وغاياته ، ويبدل نظرته المحدودة ليصبح قادرا على الوصول إلى نتائج إيجابية تفسر السلوك الانسانى تفسيرا صادقا وسليما . ...

ولن يتمكن علم النفس من الوصول إلى ذلك إلا إذا اتبـع منهجا إسلاميـا قد إستقى مادته من علم الله، ومن آياته ـتعالى ـ نظرياته وأفكاره .فيعمق بذلك أبحاثه ودراساته ،ولا يتناقض مع نفسه في تبرير فروضه المتخيلةوتفسيراته العاجزة وتحليلاته السطحية الفاترة .

ومعنى أن يكون علم النفس علما إسلاميا أن ينطلق من قوله تعالى :

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » (الشمس : ٧،٨)

«وهديناه النجدين» (البلد : ١٠)

« وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه » (الاسراء : ١٣)

«وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء » (يوسف : ٥٣)

« ياأيتها النفس المطمئنة أرجعى إلى ربك راضية مرضية» (الفجر : ٢٧،٢٨)

« تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب» (المائدة: ١١٦)

« أنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك مالم تكن تعلم» (النساء: ١١٣)

« لم تحاجون فيما ليس لكم به علم، والله يعلم وأنتم لاتعلمون » آل عمران: ٦٦)

« لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » (آل عمران : ٧١)

« أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله مالاتعلمون» (الاعراف: ٦٢)

الفصل الثانى

بين علم النفس الاسلامى وعلم النفس الحديث

أعطى فرويد مفهوما جديدا للشخصية غير المفهوم الذى كان سائدا قبله ، اذ اعتبر الشخصية مجموع ما لدى الكائن من السمات ، أى مجموع حسابى ناتج من عمليات حسابية مجردة .. .

فقال [١] : إن الشخصية عبارة عن تفاعل متبادل بين حاجات الفرد الداخلية « الغرائز » وبين العالم الخارجى « الموضوعات » . .

ومعنى ذلك اشتراك عوامل متعددة فى بناء الشخصية ، تنمو من تفاعلات متبادلة بين البيئة الاجتماعية والتكوين الوراثى .

لقد ركز فرويد على الغرائز واعتبرها الأساس الأول الذى بنى عليه نظريته ، أما البيئة فحدد دورها فى تكوين الشخصية ، بل وحصره فى امكانية اشباع الغرائز وتلبية حاجات الفرد أو احباطهما ...

ويخلص فرويد الى أن الأوضاع الحضارية ، والبيئة تفرضان قيودا وقيما على شخصية الطفل .. ومن ثم تتنازع هذه القيم والقيود مع الحاجات والمطالب الغريزية التى تريد اشباعا فيحدث صراعا بين قيود البيئة .. وبين الرغبات الغريزية الأمر الذى يتحتم معه التلويح بالعقاب من جانب البيئة لمعارضة الغرائز لها ...

---

(١) د . صبرى جرجس - التراث اليهودى الصهيونى والفكر الفرويدى ص ٢٤٣ — ٢٤٩ .

ولذلك تقوم البيئة بتهديد الغرائز فى صور متعددة . . أقصاها الحرمان من الحب ...

ومن حصيلة هذا الصراع ـ فى رأى فرويد (١) تتكون شخصية الفرد سماتها وخصائصها ـ فى الخمس سنوات الأولى من حياة الطفل ، ومهما يكتسب الفرد ـ بعد ذلك ـ من خبرات فى المراحل المختلفة من حياته ، فان شخصيته لاتتأثر كثيرا ، فلا يحدث تغييرا عميقا فى معالم الشخصية ، بمعنى أن ما يحدث بعد ذلك انما هو طلاء وزخرفة لبناء شامخ استقام جدرانه . . أى أن كل اضافة جديدة انما هى داخل الإطار العام للشخصية التى سبق تكونها فى السنوات الخمس الأولى ...

ومن ناحية أخرى تأثر فرويد بالمذاهب التى سادت القرن ١٩ واستعار أراءها وفى جملتها تزعم أنه لا يوجد أى قوة عاملة داخل الكائن ، غير القوى الطبيعية الكيمائية ، هذه القوى ترد الى قوتين : الجذب .. والدفع . .

وخلاصة ما تستهدف اليه هذه المدارس . . أن عالمى الكائنات النباتية والحيوانية أسرة واحدة ، وان اختلفت مظاهرها ..

والنتيجة الحتمية لهذا الرأى انما تكمن فى اعتبار عملية التطور للكائنات عملية دينامية ، وليس هناك من خارجها محركات عليا ، أى انكار تام للجواهر والارواح والتنظيم والتخطيط من أعلى ، بل إعتبار أنه ليس هناك إله كامل يؤثر فى هذا العالم (٢) ....

---

(١) د . سيجموند فرويد ـ الموجز فى التحليل النفسى ـ ترجمة د . سامى محمود على ص : ١٠٦ ـ ١٠٧

(٢) سبق الى القول بهذا الرأى أبيقور الفيلسوف اليونانى القديم صاحب مذهب اللذة

وهذه الفكرة المستعارة من تلك المدارس قد عمل فرويد على تلفيقها فى مذهبه لتفسير السلوك الانسانى ليخرج لنا نظرية غريبة تدعى أنه يمكن اعتبار ما هو غير معقول معقولا ، عن طريق ما أسماه بالحتمية النفسية ، ومؤدى هذه النظرية أن كل مظاهر السلوك التى تبدو غريبة . . وغير مفهومة هى فى واقع الأمر نتيجة منطقية لأسباب سابقة إرتبطت بها وأدت اليها .. فمثلا الأعراض المرضية ، كفقد الذاكرة ، أو عثرات اللسان انما ترجع الى أسباب متصلة بالجانب اللاشعورى فى الانسان .

واللاشعور الذى تناوله فرويد وربطه بالحتمية النفسية ، لم يكن هو أول من اكتشفه .. ذلك أننا نجد احبار اليهود فى التراث الصهيونى قد عالجوا موضوع اللاشعور الذى يعد ضربة موجهة لعقل الانسان وارادته [1] ، اذ أن الانسان عند فرويد مدفوع لامحالة بقوى لاشعورية .. وبذلك أطاح فرويد بالارادة والاختيار والعقل ... واستبدل بهم اللاشعور الذى يراه قمة الدوافع والرغبات والغرائز الحيوانية ...

لقد جعل اللاشعور مستودع المكبوتات من انفعالات وحاجات ، وجمع فيه مايعرف وما لايعرف ، وأرجع اليه مايعقله الانسان ومالا يعقله ، فهو مستودع أوحال .. ومخزن أفكار .. ومحل يحوى من الابره الى الصاروخ .. كل شىء فى اللاشعور .. وكل شىء من اللاشعور ولاشىء خارجه ...

= الذى قال : أن الالهة لا يهتمون بالبشر وأنهم مشغولون عنا .. » راجع لمزيد من الايضاح للاستاذ يوسف كرم — تاريخ الفلسفة اليونانيه ..

(١) د . صبرى جرجس - التراث اليهودى الصهيونى - ص : ١٠ - ٥٠

.. كأن الانسان كتاب تعرف موضوعاته بقراءتها ، أو اطار سيارة يبلى بعد استخدامه ، ٥ ألف كيلو ، أو كأن الانسان عبد طفولته .. لايستطيع عنها عتقا أو أنه أسير لشعوره .. لا يقدر عنه تحررا !! .

لقد جعل الشعور بالإثم ، الخطيئة ، لا شعوريا أيضا .. بلا علم الانسان وبلا ارادة .. وبلا اختيار .. أي مفروض على لاشعور الانسان ...(١)

لقد خلط فرويد بين جبلات النفس ، وبين ما أودعه الله فى الانسان من مواهب ولطائف شريفة .. كالعقل والقلب .. والروح ، فهبط بالانسانية الى أسفل سافلين .. وقد خلقها الله فى أحسن تقويم ...

جعل الغرائز والشهوات .. مصيره الأبدى .. وغايته .. أراد .. أولم يرد .. وحتى إن ارتفع عنها ، وتسامى فما ذلك الا « برقان » يخفى ذئبيته ، ويحتال به لإشباع غرائزه المتوحشة ، ونسى القوة الربانية التى وهبها الله للانسان من خير وصبر وورع .. وتقوى ، ومن ضمير وعقل ...

فلا وسط ولا اعتدال ـ عند فرويد ـ وانما انقياد أعمى للغرائز ، وارجاع أعور للشهوات ، ودفع .. وجذب من آلة صماء يفسر بها قوانين العلة والمعلول ولاتفسير خارج عنها .. ولاقوة عليا تستمد منها حركتها ، وانما سبب ومسبب مادى ... وكأننا فى « ورشة » أو مصنع حديث ...

ولكننا نتساءل .. من خلق السبب ؟ ... بل من خلق العلة والمعلول فى هذا الانسان الحاصل على كل شىء فى داخله ؟ ...

---

(١) د . صبرى جرجس ـ التراث اليهودى ـ ص : ١٠ ـ ٥٠

لقد رد فرويد الشخصية الانسانية المتعددة الجوانب ، والتى تحمل حد الخير وحد الشر ، والحق والباطل ، الايمان والفكر ، السمو الى الكمالات الاخلاقية ، والسقوط الى البهيمية ...

رد فرويد حقيقة الانسان الى قوى غرائزية غامضة .. تدفعه الى سلوك غير متبصر .. وأعمال قسرية غير واعية .. فسحب عقله وجعله حيوانا أعجميا تقوده ضغوط البيئة فى العمل والسلوك والحياة ..

فالذى تقبله البيئة يملكه الفرد ، والذى ترفضه البيئة يكبته .. فأى صورة مشوهة هذه للانسان ؟ ... ألم يرفعه الله !! أم يصوره على صورته [1] . ألم يقل تعالى :

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » (التين : ٤)

ثم أن فرويد يدعى أنه يمكن تفسير أمراض وتصرفات الانسان الحاضرة ، بدون شيء خارجى .. أى أن الانسان يحمل فى ذاته علل معلولاته ، وأسباب مسبباته والمطلوب الرجوع الى السجل لنفتحه ونقرأ ، لنعرف سبب مايحدث له ، وما يحدث ليس غريبا ولاغامضا .. لاننا نكشفه بمجرد أن نرجع لماضى الفرد ، وبالأخص لطفولته .. وبالتحديد للسنوات الخمس الاولى .

لاداعى اذن للتوبة .. لان هناك حياة نفسية حتمية ولاداعى للندم ... فهذا الانسان تحركه دوافع وحاجات قسرية .. وأن الخطيئة والاثم لا يفعلهما الانسان بارادته .. فالانسان مغلوب على أمره .. وهذا الرأى مرفوض فى جميع الشرائع، بل ومرفوض أيضا فى الفطرة السليمة ...

---

(١) «خلق الله آدم على صورته» .. حديث شريف عن أبى هريرة وأحمد فى مسنده .

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » (الشمس : ٨،٧)

« وهديناه النجدين » (البلد : ١٠)

أى طريق الخير وطريق الشر ... وأن الانسان قادر على أن يختار بين :

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه » (الكهف : ٢٨)

وبين :

« من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين » (يوسف : ٩٠)

فإذن الانسان قادر على الاختيار ، بل قادر على الصبر وكظم الغيظ ، وعلى تحمل ضياع المحبوب واحتمال المكروه ، وذلك بالعزم ومخالفة النفس ورياضتها وسياستها ، فالصابر حابس لنفسه عما تنازع إليه من الشهوات .. وما تشكو من الآلام :

« ستجدنى ان شاء الله صابرا » (الكهف : ٦٩)

والصبر يأمر به العقل ... موهبة أودعها الله الانسان ، وليس بصحيح مايدعيه فرويد بأن الكبت لا دخل للعقل فيه ، وبأنه عملية لا شعورية .

ليس بصحيح هذا الرأى ، واذا فاضلنا بين فوائد الصبر وما يجلبه على الانسان من الخير عاجلا ، ظهرت حينئذ فضائل العقل وخساسة الهوى ...

والذى يصبر ويكظم غيظه ، قادر أن يغضب وأن يثور وأن يؤذى لأنه فى موقف اختيار ... إلا أنه يختار الأفضل والأحسن والأبقى .. وذلك وارد فى قوله تعالى :

« والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » (آل عمران : ١٣٤)

لقد كبت سيدنا يعقوب ـ عليه السلام ـ ألمه ، وكظم غيظه ، وكتم حزنه عندما أخبر كذبا بأن إبنه يوسف ـ عليه السلام ـ قد أكله الذئب ،فورد قوله تعالى عنه :

« وتولى عنهم وقال ياأسفى على يوسف وأبيضت عيناه من الحزن فهو كظيم»
(يوسف : ٨٤)

لقد صبر يعقوب ـ عليه السلام ـ وتحمل مفارقة أبنه له ، وحبس نفسه عن الشكوى لغير الله ، لأنه آمل فى الله ، لقد عرف أن ذلك أختبار وأمتحان من الله تعالى بقوله عن الله تعالى:

« ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالاتعلمون » (يوسف : ٩٦)

وكانت ثمرة الصبر أن جمع الله بينه وبين يوسف فى لقاء كريم ، وأرتد بصيرا «فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه ا فارتد بصيرا ،قال ألم أقل لكم انى أعلم من الله مالاتعلمون » (يوسف : ٩٦)

فالانسان المؤمن يكظم غيظه ، ويصبر لله وفى سبيل الله :

«واصبر حتى يحكم الله» (يونس: ١٠٩)

كما يتحمل الالم وهو واع به ، آمل فى الله ، عالم بصبره وإلا كيف يصبر كما يقول الله تعالى:

«وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا» (الكهف : ٦٨)

الصبر موقف علم وحال وعمل وجهاد للنفس ، ومخالفه لاهوائها ، وليس موقفا مرضيا أو عصابيا ، وانما هو موقف يدل على الصحة النفسية والقدرة على تحمل الابتلاءات... [١]

---

(١) راجع ألفاظ الصوفيه ومعانيها للمؤلف ص ٩٩

« فصبر جميل » (يوسف : ٨٣)

وعكس الصبر الجزع والقلق والخوف والهلع ، وذلك وارد فى قوله تعالى عن الصابرين :

« والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس» (البقرة : ١٧٧)

أى الصابرون فى جميع الاحوال دون إعتراض أو تمرد أو رفض :

« إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب » (ص : ٤٤)

« إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » (الانفعال : ٦٥)

والمكبوت غير الصابر لأن المكبوت كما يتصوره ـ فرويد ـ مريضا جزعا ، يحيا فى عالم من الاوهام ، لاتتحمل أعصابه شيئا ، وانه كآلة مشدودة .. تكاد تتقطع أوتارها.

أما الصابر فهو قوى بالله ، آمل فى الله ، لانه صاحب عقيدة .. يؤمن بها إيمانا لاريب فيه ... الصابر يغلب مائة أو عشرة أو إثنين على الاقل غير صابرين ..(١)

والصبر إبتلاء من الله ، وليس ناتجا عن ضغوط بيئيه قسرية كما يدعى فرويد إنما هو امتحان للفرد لمعرفة قدرته على التحمل فى سبيل الله :

«ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين » (محمد : ٣١)

فالصبر خوف من وعيد الله ، فلا يقدم الصابر على إقتراف إثم أو خطيئة

---

(١) راجع ألفاظ الصوفيه ـ ٢٤٠ ـ ٢١١ للمؤلف (الصبر).

ولا يشعر بحقد أو حسد . . والصبر رجاء فى وعد الله ، فلا يطلب الصابر لذة حسية أو شهوة عابرة ، إنما آمل على الدوام فى فضل الله ... ونعم الله . وعطايا الله ، وعون الله :

« إن الله مع الصابرين » (البقرة : ١٥٣)

ليس هناك بين الصابر وبين ربه حجاب ، فهو آنس بالله ، آمن بما يمده الله من سكينة وطمأنينه :

« وما صبرك إلا بالله » (النحل : ١٢٧)

فالصبر ليس سلبيا ، والصابر ليس مغلوبا على أمره ، وإنما يقف موقفا إيجابيا فيه سمو عن الاحداث ، وأرتفاع عن الغرائز ، ورضا بالقضاء ، وليس هو بموقف المرتعب ، وإنما هو موقف المطمئن ، هو سكينة ليس فيها عجلة ... ولا حركة ، وإنما موقف علم أو معرفة إيمانيه أساسها الحكم السليم .. والعقل الراجح الذى يهدف إلى الاستقامة ، والاستقامة هنا : الوسط العدل ، الذى هو العمل الصالح ، والخير الفاضل (١) . .

أما الغفلة فهى حركة فيها ضعف ، والضعف إضطراب وقلق فيعمى الانسان عن الحق ، ويخلط الصالح بالطالح ، فتسير الانسان غرائزه ، مادام العقل غافلا . .

أما الصابر ... فهو كمرآة تتلألأ عليها الانوار وتلقى الحقائق فى انتظار فرج الله . .

---

(١) راجع للمؤلف ـ الشريعه والحقيقه ـ « العدل » ص ٨٥ .

«أنه من يتق ويصبر ، فان الله لايضيع أجر المحسنين » (يوسف : ٩٠)

وفى تصورنا أن الانسان ليس مستودعا للشهوات والرغبات والحاجات الغريزية فحسب — كما يدعى فرويد وتلامذته — وإنما إذا كان الله قد أودع فى جبلة الانسان بعض الشهوات والآفات والعيوب ،فانه أيضا قد وهبه عقلا راشدا، وقلبا واعيا ، وروحا من لدنه تعالى .. فاذا وقع الانسان فى الإثم .. فعليه أن يبادر إلى التوبة . .

والتوبه ندم ، والندم موقف علم ايجابى .. لأن فيه مخالفة لأهواء النفس واختيار للوسط العدل ، ورياضة أساسها العزم وسياسة . . ورعاية . . ومحاسبة ومراقبة .. تستهدف رجوع النفس إلى الاعتدال والتوازن [١] ..

فالندم توبة ، [٢] لانه رجوع إلى الحق ، وبعد عن الاثم والعدوان ، بل عن الجهل والجهالة . . تصديقا لقوله تعالى :

«إنما التوبه على الله للذين يعملون السوء بجهالة» (النساء : ١٧)

أما الذى يعمل السوء ... وهو يعلم الحق ، فهو المنافق والمرائى ، والكاذب والمخادع ، والمرجف ، والفاسق ، والكافر،وجميعهم أصحاب قلوب مريضة وعقول حمقى . ونفوس فاجرة . .

ليس إذن — كما يدعى فرويد — الانسان مغلوب على أمره . وأن الحتمية

---

(٢) حديث « الندم توبه » ذكره ابن ماجة وابن حيان والحاكم وصحح اسناده من حديث ابن مسعود .

(٣) راجع ألفاظ الصوفيه ص ١٠٤ للمؤلف .

النفسية [1] هى ميراث مفروض وقدر محتوم ، لايستطيع الانسان منه خلاصا إنما حقيقة الأمر ، أن الطريق واضح جلى ... والإنسان عليه أن يختار ... إما طريق الحق ،أو طريق الباطل :

«وأسروا قولكم أو أجهروا به ، أنه عليم بذات الصدور » (الملك : ١٣)

فالباطل والظاهر... والشعور واللاشعور...كله بعلم الله . ومشيئة الله ... وقضاء الله ..

والانسان مطالب بأن يتقى ... ويصبر... وأن يهجر فسقه وهوى نفسه ، وأن يصدق ظاهره مع باطنه ، فاذا تم له ذلك وهداه الله إلى الرشد فلا أمراض نفسيه ... ولا عصاب ولا مذلة ... ولاخضوع أو مسكنه لغير الله ، إنما يصحب المؤمن قلبا سليما،وعقلا رشيدا ، أما الفاسق فهو مخادع ... يكذب ويرائى لمرض فى نفسه :

«ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة،فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » (الحجرات : ٦)

وهذا الفاسق قد أختار لنفسه الظلمة طريقا مسدودا ، فأوقع نفسه الامراض والعلل .. لجهله وفساد إختياره .. وحمق عقله...ومرض قلبه ، فغفل عن الحق، واتبع الهوى :

«ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه » (الكهف : ٢٨)

«ومن أعرض عن ذكرى ، فان له معيشة ضنكا » (طه : ١٢٤)

---

(١) راجع د. سيد غنيم — سيكولوجيه الشخصيه ص ٢٨ ص ٤٣

« وإذا ذكر الله وحده إشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذ هم يستبشرون » (الزمر : ٤٥)

«إنما يتذكر أولو الالباب» (الرعد: ١٩)

ونحن لايمكن أن نتفق مع منطق فرويد فى أن العصابيين هم حملة مشاعل الحرية والحضارة ، بل على العكس ، هم حملة الظلمة والخوف والرعب والفزع واليأس والقنوط ، ومادام العصابى كما يدعى فرويد ، بركانا يغلى من الداخل ، ومستودعا للمتناقضات ... والمكبوتات التى لاتستطيع نفاذا على سطح الشعور فان العصاب ليس تعبيرا عن نفس القوى التى أدت إلى أسمى أمانى جنسنا وإنما على العكس من ذلك تماما يمثل العصاب أنواعا من الامراض التى يصاب بها أصحاب الوسواس والرياء والفسق والفجور ... والعصيان !! وكل من فى قلبه مرض ، وكل من يشيع الفاحشة والإضطراب فى الناس . تصديقا لقوله تعالى:

« لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ، والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لايجاورونك فيها إلا قليلا ، ملعونين أينما ثقفوا »

(الاحزاب : ٦٠ ، ٦١)

فالمرجفون كالمنافقين .. توعدهم الله تعالى بالرجفة .. وهى الاضطراب الشديد والقلق والفتنة .. هؤلاء هم المنافقين ، الذين فسقوا وخانوا عهد الله بعد مابلغوا برسالته ونصحهم النبى صالح عليه السلام ...

« فأخذتهم الرجفه فأصبحوا فى دارهم جاثمين، فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » (الأعراف ٧٨ ، ٧٩)

لذلك فاننا نرى أن الامراض النفسية العصابية التى يذكرها فرويد ، إنما تنطق

على مريض القلب ، الذى لا إيمان له ، المتهالك على هوى نفسه ، والذى عبدها ؛ وسجد لها .. وأما المؤمن بالله فلا يصاب ، ولن يصاب بهذه الاعراض مادام مخلصا له تعالى لانه يعرف طريقه ، ويتجه إلى خالقه بكليته، ويخالف حظوظ نفسه وأهوائها وباطنه وظاهره سواء .. فهو صادق فى سره وعلانيته ، لان الله سبحانه وتعالى يطمئن قلبه ، وذلك تصديقا لقوله تعالى :

«قال لا تخافا أننى معكما أسمع وأرى» (طه : ٤٦)

أما الفاسق فهو المذكور فى الآية الكريمة :

«أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وأتبعوا أهواءهم» (محمد : ١٦)

«أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » (محمد : ٢٣)

«صم بكم عمى فهم لا يرجعون» (البقرة : ١٨)

وإذا كان فى زعم — فرويد — أن هناك فى منطقة اللاشعور تناقضات وخلطا بين قوى غريزية جنسية متصارعة [١] .. فاننا نرى أن ذلك فرضا لا أساس له من الصحة ، انما هناك قلب مريض ، فيكون باطن الانسان مريضا ... وقلب سليم ، فيكون باطن الانسان سليما ، لقوله تعالى فى ذلك :

«ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه» (الاحزاب ٤)

فليس هناك اذن .. تناقضات فى قلب الانسان وضمير الانسان وليس هناك ميراث لاشعورى يجهله الانسان ، إنما كل ما يعمله الانسان مسئول عنه

(١) راجع ك . هول — نظريات الشخصية — ترجمه د . فرج أحمد فرج — مراجعه د . لويس مليكه ص ٢٩ — ٣٤ — الهيئه المصريه العامه للكتاب

وكل ما يجهله مرفوع عنه حسابه ، ولا يمكن أن يحمل الحق تعالى الانسان أوزارا أو أعباء هو غير مسئول عنها ...

ولذلك كان الخطاب من الله — سبحانه وتعـالى — دائما للذين كذبوا بآيات الله والذين صدقوا آياته ، فيقول تعالى :

« والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات» (الانعام : ٣٩)

« أفانت تسمع الصم أو تهدى العمى » (الزخرف : ٤٠)

والله ينذر قبل أن يحاسب ويبغى قبل أن يعاقب ، ويعرف قبل أن يسائل :

«إن السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسئولا »

(الاسراء : ٣٦)

الله سبحانه وتعالى إذن يعلم عبده بالطريق الواجب الاتباع :

«فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون » (الحديد : ٢٦)

والادعاء بأن الانسان مغلوب على أمره قول مرفوض ، ذلك أن الله قـد أنذر العباد منذ الخلقة الاولى... وأخذ عليهم ميثـاقا غليظا ولـكن بعضهم نقضوا العهد :

«نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون» (التوبة : ٦٧)

والمشرك بالله فى غفلة ، وهذه الغفلة يظن كذبا أنها مؤدية لخيره وسعادته ...

والشيطان يحسن له سوء عمله ويوسوس له فينقاد إلى الهوى لغروره ...

«قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين »

(ص : ٨٢ ، ٨٣)

« فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » (الحديد : ١٦)

والمنافق فاسق ، مريض القلب ، يخادع الله ، ويستظهر الطاعات وقلبه خال من الصفاء :

« إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم» (النساء : ١٤٢)

بل إن قلبه كاذب ... كذوب :

« والله يشهد أن المنافقين لكاذبون » (المنافقون : ١)

«بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما» (النساء : ١٣٨)

والمنافق والكاذب والفاسق يعلمون الحق ... ومع ذلك يحرفون الكلام عن مواضعه ليخادعون ... ولسان حالهم يكشف عن باطنهم :

«ويقولون سمعنا وعصينا » (النساء : ٤٦)

ومثل الفاسق كالذى يبنى فى ملك غيره ، ويجور عليه ، ويدعى أن ذلك حقه، فذلك استبداد منه وظلم ... وغواية... وسقوط بل هو التسلط والتجبر والتكبر وكذلك حال المنافقين فحكمهم كالفاسقين »

« إن المنافقين هم الفاسقون » (التوبة : ٦٧)

لان المنافقين ولو أنهم يتظاهرون بالاستقامة إلا أن قلوبهم مريضة :

« الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظرة المغشى عليه من الموت»

(محمد : ٢٠)

«يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم »

(التوبه : ٦٤)

فليس هناك إذن موقف لا ادرية ، وإنما هناك موقف إيمانى ... وموقف أنحرافى فالمنافقون ... قلوبهم مشحونة بالحقد والكراهية :

«رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون »

(التوبه : ٩٣)

«يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم » (الفتح : ١١)

« قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم» (المائدة : ٤١)

فاذا ادعى أصحاب علم النفس الحديث بعد ذلك أن المريض العصابى مغلوب على أمره .. فهذا فرض غير مقبول نظرا وعملا ...

الفصل الثالث

١ ـ طبيب النفس الاسلامى

انه لمن الواضح أن أصحاب العلم الحديث قد نجحوا الى حد كبير فى دراستهم المعملية على المادة وأدواتها ومستحدثاتها .. عن طريق الاختبار والتجريب المعملى دراسين ومحللين ومطبقين أبحاثهم على المواد وخصائصها وتفاعلاتها وظواهرها ، والواقع أن سر نجاحهم يكمن فى استخدامهم موادا يمكن الكشف عنها عن طريق العقل والحس .. بل وجائز فيها التحليل الاستنباط والترابط والابتكار والاستحداث والكشف والاختراع .

أما استخدام مناهج علم النفس التجريبى فى دراسة الشخصية الانسانية ، فهو جهد ضائع وأسلوب عاجز ناتج عن معرفة قاصرة ، حيث أن هذه الدراسة كما سبق القول تتبع أسلوب التحليل والتجريب لإجزاء من الشخصية وذلك بتفكيكها الى عناصر لتصبح سهلة طيعة حتى يمكن اخضاعها الى الدراسات العملية والابحاث المعملية .. وهذا لا يمكن تصورة فى دراسة النفس الانسانية ..

كما أنه من التوهم ـ من ناحية أخرى ـ دراسة السلوك الكلى ، كما يستخدم حاليا فى التحليل النفسى ، اذ تستنبط نتائج مفترضة تلصق تعسفا بمفهوم الشخصية باعتبارها حصيلة اكلينيكية، ثم الادعاء تعسفا ـ بعد ذلك ـ أنها مقاييس صالحة لها فى تقييم أبعادها المختلفة .

والحق أن هذه الحصيلة من الدراسات المتناقضة، قد أضرت فى دراسة الشخصية أكثر مما أفادت فان نظريات الشخصية لم توصلنا الى فهم دقيق للسلوك البشرى ،

بل على العكس أضافت صعوبات جديدة فى فهم الشخصية اذ أنها وضعت افتراضات متخيلة ، جعلت تفسيرنا للشخصية أكثر ابهاما وغموضا ، بل وجعلت فهمنا لهـا أكثر استغلاقا ، مما كان قبل نشأة التحليل النفسى بمدارسه ومناهجة المختلفة..

انـا نتصور أنه كان الأجـدر بالنسبة الى أبحاث عـلم النفس التجريبى والاكلينيكى ، أن يتخذا لهما منهجا آخر أكثر ايجابية ، وأقل ضرورا فى دراسة السلوك الانسانى . . بل كان عليهما ان يستحدثا أساليب لاتستند الى الأسـس التجريبية فحسب ، بل تعتمد اساسا على وصف صادق للنفس البشرية . . وبذلك يمكن أن ترتبط الشخصية ارتباطا وثيقا باطار معين ، وأفكار محددة ، قبل البدء فى دراستها ، تكون بمثابة المنار لفهم السلوك الانسانى ..

ومن ناحية أخرى ، انه يتوجب فيما يتعلق بالعلاج النفسى غرس النواحى الايجابية المفيدة المستمدة من نور الايمان كحب الفضائل وأعمال الخير والايثار ، ولاشك أنها جميعا تعاون المعالج على بث السكينة والأمن بدلا من إثارة الغرائز بدعوى التنفيس ، ولاشك أن ذلك يساعد على تكامل شخصية المريض ..

أما النظرة الحالية التى تقوم عل التفتيش عن عيوب النفس ، ومتابعة السلوك الانحرافى وتقييمه ، فهذا فى واقع الامر دراسة للنواحى السلبية وحـدها ، والتى يمكن أن تضر أكثر مما تفيد ..

وبمعنى آخر ..كان على المهتمين بعـلم النفس وفروعة المختلفة أن يتبينوا الطريق الامثل لحل مشاكل هذا العلم .. لعلاج مرضى النفس ، وذلك بتعميق المفاهيم ، وغرس مبادىء الاخلاق ، وتلقين الجهـلاء الاسس السليمة لرسوخ العقائد الايمانية، وتبصيرهم بطرق علاج آفات النفس عن طريق الأمر بالمعروف

والنهى عن المنكر وتغذية قلوبهم بالصدق الذى يساعدهم فى حل مشاكلهم فى الحياة الدنيا والآخرة ..

كما أن على المربين تربية نفوس طلابهم على العادات الصالحة .. كالصبر عند الفاجعات . والشكر عند النعم .. وتعويدهم على الايثـــار بدلا من الأثرة وترشيدهم الى طرق مخالفة النفس، حيث أن النفس لا تصدق ، ولا تشبع عن مداومة الطلب ، كما يجب توجيههم الى تحليـــة نفوسهم بالأوصاف المحمودة ، وتخليتها عن الأوصاف المذمومة ..

ولاشك أن ذلك يساهم مساهمة ايجابية فى علاج أمراض النفس ، والقضاء على التوتر واليأس والزمت ، الذى اذا ترك دونما علاج فانه يسبب الانحراف ، أو يصيب النفس بالتلف والعطب ..

ان المناهج المستخدمة ـ حاليا ـ فى العلاج تعتمد على وصف وتشخيص السلوك الانسانى المرضى باعتبارة حقيقه من حقائق الشخصيه الانسانيه ، وهذه المنـــاهج تزعم فى جملها أن العدوان والشهوة واللذة ، منابع أصيـلة للسلوك ، وأن عقـدة أوديب وعقدة الكترا ، مراجع رئيسية تكمن فيها جميع أنواع التصرفات .. كما نجد ذلك عند أصحاب التحليل النفسى وعلم النفس الفرضى ونظريه التعليم ، وجميع هذه النظريات تدين بوجـــودها الى معامل الحيـــوان !! وشتان ما بين الانسان والحيـــــوان ...

وفى تصورنا أن الطريق الحـق لعلاج الانسان ، انمـا يرتـكز على شخصيه المعالج نفسه ، اذ يتوجب على القائم بالعـلاج أن يكون أخلاقيـا ، صاحب قيم عليا ، سائرا فى طريق الخير، عارفا بطريق الحق ، عاملا عابد الله ، لاينشد منفعه أو مصلحه اللهم الا الحق والخير اللذين هما طريقا الحقيقه والسلوك الصالح ، اذ أن

المعالج الذى تنطبع فى نفسه الصور المشرقه الشريفه بدل الآفات والعيوب والنقائص هو أكثر قدرة على فهم نفسيه الفرد . . ومن ثم علاج آفاتها ...

فالطبيب يجب أن يكون اذن قبل كل شيء مربيا فاضلا ، ذا تجربه شخصيه ذوقيه فرديه ، ومن هنا يستطيع أن يساعد مريضه على اكتساب الفضائل ، وذلك عن طريق مساعدته على جهاد النفس ، ومخالفه أهوائها وشهواتها ، وكذلك تعويده على المحبه بدل العدوان والكراهيه ، وعلى الرضا بدل الثورة والتمرد ، وعلى الصبر بدل الرعونه والحمق والاندفاع ، وعلى التوكل بدلا من الشك والريبه والشرك .. وعلى أسقاط التدبير مع الله بدلا من الاعتراض والمجادلة واللغو .. وبالجملة ابعاده عن الآفات التى تحجب الانسان عن التعرف على الحقائق ، والتى اذا تسلطت على الشخصية الانسانيه أضعفتها وفككتها ، وقادتها الى الانحراف ، واندفعت بها الى طريق الغواية والضلال ، ثم تركتها اخـــيرا نهبا للضيـاع بعد ان يصبح صاحبها شخصية مريضة ... لاينفع معها دواء ولا علاج ..

اننا نتساءل : كيف يمكن لعلم النفس أن يتصور وجود شخصية سوية متكامله دون أن تكون هذه الشخصية آمنة ، راضيه من الداخل قبل أن تتوافق وتتكامل من الخارج ...

لقد عرض فرويد حالة مرضية .. وهى فتاه مصابة بمرض المثلية الجنسية ــ ممارسة الجنس مع نفس النوع ـ ويقول أنه استخدم جميع الممارسات الاكلينيكية لعلاجها .. وفشل فى علاجها .. وهـــذا معناه قصور منهج التحليل النفسى الذى يخضع لفروض متخيلة ونظريات لم يثبت صحتها بعد ..

والواقع أنه لايمكن أن يتحقق للشخصيه كمالها الا اذا وافق خارجها داخلها . . أو ظاهرها باطنها .. وهذا بالتأكيد هو الطريق السليم الموصل عمليا لسبر غور

النفس ، وتفسير سلوكها .. وتقييم تصرفاتها وأعمالها .. بل وعلاجها من أمراضها الظاهرة والمستترة عن طريق تدعيم القوى الايمانية ، والترغيب فى الثواب وبذلك يسهل اقتلاع النقائص والعيوب ..

فاذا كان الحكم على المظهر الخارجى للشخصية وهو الأساس الذى يبنى عليه علم النفس معارفه ، ويؤسس عليه مايصل اليه من نتائج ، فان هذا المظهر الخارجى فى تصورنا ـ محض افتراء لا يصل الى شىء على الاطلاق ، بل على العكس من ذلك تماما .. يصبح شكلا مضللا ، ربما تستنتج منه مبادىء خاطئة تضر العلم أكثر مما تفيد . .

واذا تصادف نجاح العلاج فى حالة واحدة .. فشل فى كثير من الحالات اذ انه ربما يعيش الشخص كل حياته بمظهر سوى لايمكن معه كشف آفاته المستترة ، وانحرافاته الداخلية .. وعيوبه الباطنية ، رغم أنه ـ كما تزعم مقاييس علماء النفس ـ متوازن الشخصية حريص على التوافق والتكيف .. لم يكتشف مرضه .. لانه لم يعرض نفسه على طبيب معالج ، أو أنه عرض نفسه ولم يتعرف المعالج على علله وآفاته ... بل كم من شخصية فى مسلكها الظاهرى الاعتدال والتوازن .. والولاء فى اتباع القواعد .. واطاعة النظم والقوانين . . واحترام التقاليد والعرف والعادات .. التى تحقق الأغراض والمنافع والغايات التى ينشدها المجتمع .. وهى شخصية متمزقة فى الداخل ...

بل كم من شخصية تنتظم فى سلوكها الاجتماعى والاقتصادى بما يحقق غايات الجماعة ثم أن هذه الشخصية فى نفس الوقت مريضة فى باطنها يظلها الخوف ، ويكتنفها الفزع والرعب .. ثائرة على الاخلاق ، حاقدة ومتمردة على الأوضاع والقواعد والقوانين ، بل على كل شىء .. ورافضة لكل شىء ..

وليس من اليسير كشف أغوار هذه الشخصية . واستيبان حقيقة أمراضها وذلك ربما راجع لخبث فيها ، أو لخوفها من توقيع العقوبات أو ضياع الملذات ومن ثم تخفى ما تعانيه من هواجس ووساوس وأمراض ...

وإذا ماتمكنت هذه الشخصية من التعبير عن مسلكها الخفى - بعيدا عن الخوف ، سلكت سلوكا انحرافيا ، ومع ذلك فهى حريصة كل الحرص على ألا تقع تحت طائلة القانون ، اما اذا سنحت لها الفرصة .. وتمكنت من خرق الأوامر والنواهى واللوائح دون أن يطبق عليها جزاء مادى .. أو معنوى .. اذا تمكنت من ذلك فانها لاتتريث فى الوقت المناسب من تمزيق النظم، وتدمير القيم وسحق الأنظمة والقضاء على التقاليد والعادات . وفضائل الدين ...

وبطبيعة الحال فاننا نشك فى قدرة المعالج النفسى الحديث ... مهما بدى بارعا فى التعرف على أبعاد هذه الشخصية ، ومهما استخدم من أساليب وأدوات جديدة فى التجريب والتحليل ...

ويروى انا تاريخ الأفراد والشعوب كثيرا عن الشخصيات النفعية والوصولية، التى تنطبق عليها هذه الأوصاف ، والتى يمكن أن يدخل فى إطارها قادة وزعماء ورؤساء للدول والمجتمعات،وهؤلاء المرضى كانوا فى طفولتهم فى رعايه تامة وتربية سليمة ولم تظهر عليهم الأعراض المرضيه والانحرافات الا فى مواقف لاحقة .. غير متوقعة ...

ومن ناحية أخرى فان مدرسة التحليل النفسى تزعم أنه بالامكان الكشف عن الجانب الباطنى للشخصية ... أو مايسمى عند لفيف منهم الجانب اللاشعورى من الشخصية وهذه الامكانية نراها ادعاء مفترضا ... غير واقعى ذلك لان الادعاء بوجود منطقة اللاشعور هو تفسير خيالى ينقصه الدليل ومن ثم فان منطقة

اللاشعور التي تحتوي على مايسمى بالهو والأنا والأنا العليا، بالاضافة الى الشعور الظاهرى .. وهم لم يثبت له صحة حتى الآن ...

ان هذا التحليل المفترض يتضمن أشد حالات الغموض والابهام والخلط ، اذ تتدخل فيه تخيلات كاذبة وأحلام باطلة ... بل وتجارب شخصية غير محممة أو دقيقة كما تتنازع هذه النظريات أراء متباعدة لاتصلح معها معايير وأحكام الفصل والضبط والتحقيق ، حيث لاتستقيم مع الدراسة العلمية ، ولا يمكن التعرف على السلوك الانسانى من خلال المناهج والتجارب الاكلينيكية ... والتجريبية ، وتطبيقاتها على حالات مستقبلة يمكن دراستها ...

وبمعنى آخر أكثر وضوحا .. إن دراسة اللاشعور انما تقتضى من الطبيب الممارس معرفة خواص النفس ... ورغباتها وطلباتها ونوازعها وآفاتها ، قبل أن يبدأ فى علاج مريضه ... وهذا أمر لم يحظ به بعد علم النفس الحديث بمناهجه المختلفة ...

ب - ضرورة الطبيب المربى

سبق أن أوضحنا وجوب ان يكون الطبيب النفسى بالضرورة مربيا اخلاقيا فاضلا ذا تجربة ذوقية فريدة وبذلك يمكن للطبيب النفسى الاسلامى ... كشف النقائص فى النفس ، ومعاونة المريض فى التخلص من أمراضه ، لذلك يضع الطبيب منهجا واعيا للعلاج لكل حالة على حده ، فلكل شخصية يصلح لها علاجا لايصلح لغيرها ، وبالتالى تبدو الممارسات التى يعالج بها آفات النفس مختلفة عن الممارسات التى يتبعها غيره من علماء النفس الحديث لتطهير الباطن ... ومهمة الطبيب المربى مساعدة مرضاه وتوجيههم بعد كشف العيوب للتخلص منها ...

ويجدر القول أن الطبيب المربى يحدد لكل طالب ما يناسبه من رياضات ومجاهدات وأوراد ونصائح، بل يحدد له مايصلح له ومالايصلح من أعمال وأفعال، كالعزلة والخلوة والصيام والذكر وقراءة الأوراد وتزكية النفس بأعمال البر والخير والاحسان ، وكل طالب يقبل على العلاج حسب ما تيسر له من بناء نفسى واستعداد للمجاهدة ومثابرة لتقبل الطريق الى الله [1] ...

فليس مايطبق على هذا المبتدىء بصالح للتطبيق على غيره ... فمثلا اذا كان الشخص محبا للمال بسبب ذلة طبيعية معينة يعرفها عنه الطبيب المربى .. فلا ينصح بترك المال دفعة واحدة لأن المربى يعلم خفايا نفس مريده ... وأنه فى ترك ماله افساد له ، وضياع لثمرة جهاده فى طريق الله .. اذ أن نقص المال ربما يضعف من

---

(١) راجع كتاب الذريعة الحقيقية للمؤلف الباب الثالث ص ١٩٩ - ٢٥٩

عزمه فى محاربة غوائل الشهوة وغــــواية الشيطان .. وأهواء النفس جميعا ...

ولكن ربما يصلح لمريد آخر التصدق بجزء كبير من ماله لأن فى ذلك مصلحته ومنفعته، بل لأن ذلك يربى فى نفسه فضيلة الإيثار بدل الأثرة .. والتضحية بدل الأنانية ... فيسعى الطبيب المربى فى معالجته بالتصدق لينصلح حاله . ويتحلى بالاحسان والكرم والجود ... ويتخلى عن الشح والبخــل والشره ...وهى من أسباب الأمراض الباطنية ...

وبذلك ينصلح ما اعوج من أمره .. لان طبيبه النفسى قد أيقن من أن حبه للمال سيفسده ويضره .. وأنه باستطاعته أن يخلصه شيئا فشيئا من هذا الميـــل الشهوى للمـال ، لذلك فهـو يوجهه ويعينه على التخلص من الآفة المتسلطة ، وذلك بالتعود على العطاء والبذل والسخاء والاحسان ...

واذا رأى الطبيب النفسى الاسلامى ان بعض المريدين يؤدون الصالحات من الأعمال ، ويتسابقون الى الطاعات لغرض مادى نفعى أى من أجل أن يثمر ذلك أجرا وثوابا عاجــلا لمجاهداتهم ومعاناتهم ، فأن الطبيب النفسى الاسلامى يبين لمريديه أن ذلك مرض من الأمراض التى تحتاج الى علاج حاسم ... لان ذلك نوع من الغرور والعجب بالنفس . والرضا عنها ، بل أن ذلك انحراف عن طريق الفضيـلة والخـير ، لذلك فإنه يأمر المريد بأن يفعل الخير .. ويعمل الصالح من الأعمال دون النظر الى مايثيره هذا العمل من ثواب وثمرات عاجلة ... وذلك بترويض النفس وعدم افشاء واستعراض العمل الصالح والتخـلى عن الرضـا ومخالفة شهوة الاغترار والفضول ...

فالطبيب النفسى الاسلامى يروض نفس الطالب ليجعلها قابـلة لتغيير طبعها وتحسين أخلاقها ... وذلك عن طريق الأدب مع الله ، والتوكل عليه تعالى ، حتى

ترضى بما يأتيها من خير وشر ، وتصبر على الامتحانات والاختبارات . وبذلك يصقل معدنها وتتطهر من دنسها ونقصها [١] ...

ويعمل الطبيب النفسى جاهدا على الأخذ بيد الطالب ، ويحذره من عثرات الطريق ويعرفه أن موافقة الشهوات تقود الى الانتكاس والانحراف والمعاصى والذنوب ، أذ انه مازال فى اختبار ... اذا نجح فيه وصل الى شاطىء الأمان ... وبه يدخل الى طريق الله أما اذا شعر بالعجب والرضا فان ذلك يدل على الفشل والنكسة ... وعليه أن يبدأ من جديد فى مخالفة نفسه الامارة ...[١]

فالطبيب النفسى الاسلامى قريب من طالبه ، يسير معه خطوة خطوة ، وعلى الطالب أن يصارح طبيبة بخواطره النفسية . ويكشف له عن باطن نفسه أولا بأول ... وألا يكذب عليه حتى يتمكن من معاونته وعلاج مابقى فى نفسه من شهوات وأهواء بل ويساعدة على القضاء على أمراضه الباطنة ...

فيتقدم الطالب شيئا فشيئا فى مراحل الشفاء حتى تصفو نفسه، وتترقى من حال الى حال ... ومن مقام الى مقام وتتكامل شخصيته ... وتصل الى مراتب السمو الاخلاقى فيعرف طريقة ، وتهنأ نفسه ، ويعيش فى كنف الله راضيا ، ويشهد مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر ...

الطب النفسى الاسلامى اذن له طموح منظم فى تربية الشخصية الانسانية ، وذلك بطريقين ... أو جانبين :

جانب سلبى ... وجانب ايجابى

---

(١) الإمام الحارث المحاسبى ـ الرعاية لحقوق الله . كتاب الصحب ص ٤٩٨ ـ ٤٤١ تقديم د . عبد الحليم محمود ـ تحقيق الاستاذ عبد القادر عطا

الجانب السلبي يقوم أساسا على أن يخلى عن النفس صفاتها المذمومة ...

وأما الجانب الايجابي فهو مؤسس على تحلية النفس بالصفات المحمودة . . (١)

وأئمة العلاج النفسي لايضعون معايير تعسفية جامدة ... ولاضوابط تحكمية محددة ، ولا نظريات خيالية متوهمة .. ولافروضا تقريبية أو صورية ولا مقاييس استنباطية ، وانما يقوم العلاج فى وحدة شاملة يستهدف الواقعية الصادقة ... ليعين الانسان على الحياة الآمنة والطمأنينة التامة فى الحياة الدنيا والآخرة ... وهم فى ذلك يستمدون مادتهم العلاجية من القرآن الكريم والسنة المحمدية .

فالطريق الى علاج النفس من أمراضها واضح وضوحا تاما عند الطب النفسى الاسلامى ... لأن الطبيب المربى عارف برعونه النفس وجنوحها ... ولذلك فهو يبدأ مع الطالب بأن يطلب منه لتخلى عن الحظوظ الدينويه المؤقته والتوبة عن الآثام والذنوب ...

واذا صدق المريد عرف طريقه . واستنار بأنوار الحق ، فتستجيب نفسه الى العلاج ... وتتخلص من الكبر والتعجب والأثرة وحب السيطرة والرغبة فى الرياء والتملق ...

ج ـ شخصية الطبيب المعالج :

سبق أن أوضحنا أنه يتوجب على المعالج نفسه لكى يعالج أمراض النفس أن يكون هو نفسه قد تخلص من أمراضه النفسية ، أو على الأقل سار شوطا

---

(١) راجع الفاظ الصوفيه ـ الوقف التحلى والتخلى ص ٨٧ ـ ٨٨

بعيداً فى طريق التكامل النفسى والاخلاقى ، وذلك حتى يستطيع أن يتقدم فى علاج مرضاه ، بما خبره من تجربة شخصية ، فيمد لمرضاه ـ عن يقين ـ يد المساعدة للتخلص من الآفات ... والأمراض أو على الأقل يساعدهم على تزكية نفوسهم المريضة بالأمن ومعاونتهم على اختيار السلوك المستقيم وتقوية عزائمهم بالابتعاد عن الأوهام ... والأمانى الكاذبة ... والوساوس المفزعة ...

واذا لم يتيسر للطبيب نفسه ـ لاعتبارات اجتماعية أو دينية أو بيئية ـ تنشئة أخلاقية على اسس ايمانية... فاننا لانتصور أنه يستطيع أن يتفهم طبيعة الأمراض الباطنية التى يعانى منها مريضه ، اذ لايكفى أن يكون الطبيب المعالج ـ كما يدعى علم النفس ـ قدسبق تحليلة ليكون صالحا للقيام بمهمة تحليل الآخرين ... لانه بافتراض أنه يصلح فى فترة زمنية معينة . فاننا نشك فى أنه يصلح فى فترة أخرى ... ذلك لان المهم هو أن يكون المحلل النفسى دائم الترقى فى السلم الاخلاقى ... يستقى عليه من التشريع الالهى وأن يكون فاضلا متمسكا بمكارم الأخلاق ، حريصا على الايثار بعيدا عن المنافع المادية التى تفسد العلاج ..

من هذا المنطلق يمكن للطبيب أن يغير من سلوكه الخاطىء باستمرار الى الأفضل والأحسن .. ويتسامى عن الافعال المذمومة ، ويتخلص من الأنانية والنفعية والمصلحية .

كما أن توقف الطبيب النفسى عن المجاهدة ... والتحلى بمكارم الأخلاق يعد عائقا يحول بينه وبين التقدم فى كشفه لخواص النفس ... سواء كانت نفسه ذاتها أو نفوس الآخرين ... وبالتالى يصبح عاجزا تماما عن علاج أمراضه وأمراض الآخرين بل انه إذا لم يستطع التسامى عن العوائق والاختبارات ..

والتمسك بالمبادىء والمثل العليا . . فلا نشك من أنه سيضر بمريضه ، بدلاً من أن يفيده فى علاج نفسه وجسمه جميعا ...

ومن ناحية أخرى فاننا لا نوافق أصحاب العلاج المتمركز حول العميل [(١)] فى المزاعم التى يدعونها من إمكان قصر مهمة الطبيب المعالج على الملاحظة ، وأن تحدد وظيفته بحيث لا تتعدى أن يترك للمريض الحرية فى معالجة نفسه بنفسه ثم كتابة ذلك فى تقارير !!

ومن العجب أن يتمكن معالج من أن يعـــالج انسانا مشغولا بتحقيق لذاته مندفعا لتحقيق حاجاته محبـــا لإشباع غرائزه ، حتى أصبح ذلك طبعا مميزا له . . اذ تشكلت شخصيته بصورة البخل والشح والشره ... كيف يمكن لمعالج أن يتقدم فى علاج مريض بهذه الصـــورة دون أن يكون هو ذاته خاليا من تلك الأمراض !!

كيف يمكن أن تعالج شخصية أنانية . . طبعت على الشهوة . . والتكالب على اللذات والمنافع . . وحب السيطرة والجزع والخوف والحقد والتنافر والكراهية والغيرة . . !! كيف يتمكن الطبيب المحلل أن يفهم نفس مريضه ويستخلص أسباب مرضه دون أن يكون هو قد عرف الداء المستفحل . . وعالجه فى نفسه أولا قبل أن يعالج منه مرضاه..

حقا أنه لمن المضحك أن يعهد إلى الطبيب الذى لم يستطع أن يتخلص من دائه بمهمة علاج غيره المصاب بنفس الداء !!

---

(١) نظرية جديدة فى العلاج النفسى صاغ أفكارها وليم روجرز — راجع التحليل النفسى والعلاج النفسى — روبرت هارپر ص ١٢٧ — ترجمة دكتور سعد جلال

فهل يصلح بذلك علاج أو دواء أننا نتعجب ! !

إننا لانتشكك فى أن الأساس الحق الذى يمكن أن يقام عليه صرح العلاج النفسى هو بث روح الايمان فى نفوس مرضى النفس . وإدخال عناصر جديدة صالحة تحل محل العناصر القديمة الفاسدة ..

أو بمعنى آخر تحلية النفس بصفات محمودة خيرة .. وتخلية النفس من الصفات المذمومة « الشريرة » ، إذ أنه من العسير أن ينجح علم النفس فى علاج أمراض النفس بدون تغذية العقول . والنفوس والقلوب بمشاعر الصدق والاخلاص والمحبه ... والطاعة والرضا والإيثار والاحسان والصبر والتوكل .. وجميعها لايمكن أن تتوافر لشخص إلا بالاستقامة والعلم والصدق والاخلاص والطاعة لله جميعا ...

كما أن على عالم النفس أن يعرف أن النفس البشرية واحدة ... وأن حب الدنيا والرغبة فى تحقيق اللذات والشهوات ، هو ميل طبيعى لدى غالبية الناس ، لايختلف فى ذلك عالم أو جاهل ... إلا فى الدرجة إذ التباين والاختلاف بينهم فى صدق المجاهدة والرياضة للوصول إلى طريق الله ... وبذلك يكتسب المجاهد صفات الاستقامة والصبر والصدق والاخلاص والتوكل والمعرفة (١)

لذلك فان الانسجام والتوافق بين للفرد وبيئته ليس هو المحك الذى تنطلق منه أهداف العلاج النفسى، إذ أنه من الضرورة أن يكون المحك منعثا أساسا .

---

(١) راجع لمزيد من الايضاح الحكمة الباطنية للمؤلف

من الايمان بالله والعلم اليقيني أن هذه الدنيا ليست غايه فى حد ذاتها ... إذ هى ليست إلا مزرعة الآخرة[١] ...

فاذا بهر الانسان بالدنيا وزخرفها وأعتقد أنها هى غايته وهدفه ... فانه يسعى فى هواها ... ويحبها . وهى المتقلبة . المتغيرة فتعطى له يوما ، وتمسك يدها أياما ... ترغبه حينا وترهبه أحيانا ... فيقف بين اليأس والأمل ... بين القلق والاستقرار ... بين الرغبة والرهبة بين الظلام والنور ... فلا يعرف طريقه ... ولا يتبين سبيله ... فيحيا فى الدنيا حياة قلقه ... مضطربة لا يتذوق فيها هناء . ولا يعرف أمنا .. ولا يتفهم حقا ولا يؤمن بأخلاق . ويزهد فى كل علم ، إلا مايحصله من مألوف العادات أو عن طريق المحاكاة والتقليد أو ما يلتزنه من ممارسات ومجربات وتجاريب وهى أخلاق متغيرة ... وعلوم قاصرة فيها طابع التغير والتلون والنقص

والشخصيه المقلدة تصطدم بعقبات متعددة وتقف أمامها السدود والحوائل والعوائق ... ولايستطيع صاحبها لها وقفا أو صدا ، فتتلف نفسه وتقع فريسه للأمراض ... وتتخبط فى اتجاهاتها وتتناقض فى تصرفاتها وتحيا فى عذاب مقيم ..

أما إذا خلد الانسان إلى نور الايمان ، وعرف أن دنياه قصيرة ... وأن آخرته هى الأبقى وأن مايكابده فى رحلته فى الدنيا إلى الآخرة من نفع وضر إنما هو لصالحه ... وذلك لتربية نفسه ... وتعويدها على مكارم الاخلاق ... والصبر على الفاجعات.. حظى هذا المجاهد بعون الله ورحمة الله وعطاء الله وحب الله،

---

(١) الرعاية لحقوق الله ص ٥٤٤ وما بعدها

وهو فى ذلك لا يخسر شيئا فى دنياه ولا فى آخرته ... وانما على العكس من ذلك تكتسب نفسه السكينه والطمأنينه والأمن ... فتصبح صابرة . . تقية . . قوية . . مؤمنة .. تؤجل مطالب دنياها الزائله لاخرتها .. وتقبل على ما هو خير وأبقى . . وتنبذ ما هو لعب ولهو ...

والتربية الدينية انما تتركز فى تعويد النفس على تجنب الحظوظ والأهواء والبعد عن الرغبات الدنيئة . . ومخالفة الشهوات الدنيوية الرخيصة ورفض ما هو ملذ زائل . . والاقبال على ما هو باق خالد . . عند ذلك ترضى النفس بحالهـــا وأحـــوالها ، وتواكب طريق الله مسترسلة معه أبدا لا تستهدف إلا محبته وقربته تعالى ... ١)

بذلك السلوك المستقيم تتوافق النفس مع ذاتها كما تتوافق مع الآخـــرين ، وتنسجم انسجاما كليا فى معاملاتها بالغير... وتسلك سلوكا إيجابيا مع الناس جميعا .. وهنا يستحق صاحبها أن يسمى شخصية سوية متوازنة ومتكاملة ..

ويتأكد بهذا الطريق للشخصية الانسانية كيانها ووجودها ... فبعـــد رحلة الحياة الفاضلة التى عبرتها ... يكون الثواب والراحة والاطمئنان ... بل الرضا والاستقرار والأمن . . وبذلك تنجح التربية الاسلامية فى التعرف على الداء ووصف الدواء . كما تنجح فى الوصول إلى الشفاء ...

أما الطرق العلاجية المستحدثة فى التربية النفسية فانها طرق ليست مجهولة عند أئمة الاسلام . . فمثلا إذا كان التحليل النفسى يستخدم برامج للعلاج تقوم على

---

(١) راجع الفاظ الصوفية — أسقاط التدبير

وكذلك الشيخ ابن عطاء الله السكندرى — التنوير فى اسقاط التدبير

أساس التنفيس أو التداعى الحر . . فى علاج بعض أمراض الشخصية ... فأن ذلك العلاج يعد من الأوليات ... بل بداية البدايات فى الطرق العلاجية عند أئمة الأسلام . .

فالطبيب المربى الإسلامى يستبطن قلب المريد ويتعرف على خواطره وأمراضه ، لأن النفس البشرية ـ فى رأى جميع الأئمة ـ واحدة الا أن خواصها متعددة ومتكاثرة . . .

النفس إذن واحدة لكن لها علامات سبعة هى :

أمارة ... ولوامة .. وملهمة .. ومطمئنة ... وراضية ... ومرضية وكاملة ... [1]

ونقطة البداية بالنسبة للعلاج النفسى الاسلامى تبدأ بعلاج النفس الأمارة لانها لم تتخلص بعد من الضعف . . والشره .. والظلمة ، أو من جهالاتها وانقيادها إلى الحس الظاهرى . . وميلها إلى التعجب والغرور والتعالى والعظمة والأنانية دون أن تعبأ بالقيم والمبادىء والفضائل ...

فاذا لم يتيسر للنفس الأمارة التخلص من نزعات الأنانية... جنحت إلى الشر وانحرفت إلى الرذيلة ... بل مرضت وتمارضت ... لأن فى طبعها الأنانية وفى خلقها الأثرة وحب الذات والسيطرة ...

وإذا ما تيسر للنفس تحقيق ما تنزع اليه من حظوظ ... طلبت المزيد ، فهى لا تشبع من جوع ... ولا تسكن عن طلب .. ولا تزهد فى شهوة ... وانما

(١) راجع الحكومة الباطنية للمؤلف ـ ص ١٣٠١ ، ١٣٢

تطلب أبدا المزيد . . فاذا ما تحقق لها ما تطلب ، طمعت ثم تعالت واغترت ومالت وانحرفت عن الهدى... وبذلك يصبح حب السيطرة سلوكها... والبطش حالها .. والغضب والحقد معدنها .. والكراهية بيتها والشهوة سلطانها . .

وأخيرا تنتهى هذه النفس بصاحبها إلى الانحراف والضـــلال . . وتسمى بالشخصية غير المستقيمة . . أو الغير متوازية . . وتنطبق عليها أوصاف مخالفة مثل : الضالة ... أو الشرهة ... أو الفاسقة .. أو المنحرفة ... أو المجرمة ... أو الشريرة ...

ولقد وجد أئمة الاسلام أنه لعلاج هذه الشخصية ، يجب البدء بعملية تخلية من الصفات المذمومة ... ثم تحلية هذه النفس بالصفات المحمودة . .. ويتم ذلك بطريق المجاهدة .. (١)

والسبيل إلى ذلك أن يسعى الانسان للتخلص من آفاته ونقائصه ، وذلك بالتوبة والندم على ما فعله من الذنوب والمعاصى ..

وهـذا العلاج كمنهج بمثابة تفريغ الاناء من الخل . . واعادة ملئه بالمـاء النقى فانه لا يكفى ـ كما يزعم بعض علمـاء النفس ـ أن تفـرغ النفس من المكبوتات والرغبات الدنيئة عن طريق التنفيس .. أو التداعى الحر . . أو أى طريقة أخرى من طرق العلاج الحديث سواء كان بالموسيقى أو عن طريق الفن .. لا يكفى ذلك ليكون الانسان صالحا . . متوافقا . . وسويا . . (٢)

---

(١) الامام الغزالى ـ احياء علوم الدين . ج ٨ ـ ص ١٤٣٨ وما بعدها مطابع الشعب

(٢) الشريعة والحقيقة للمؤلف ص ١٩٩ النظرة الاسلامية للانحراف الاخلاقى .

إذ اننا لا نشك فى أن الانسان معرض دائما لأن يعبأ مرة تلو الأخرى ـ بعد عملية التنفيس هذه ـ بحكم العادة والتطبع والمحاكاة والتقليد بشهوات ورغبـــات ومتطلبات أكثر جنوحا واعظم انحرافا . . لأن نفسه فى هذه الحالة فارغة تماما وفى حالة ظمأ شديد . . كما أنها مستعدة لقبول الجديد . . متشوقة لمصادفة أول لذة تشبعها حريصة على الاقبال على الشهوة دون أن نتبين ما هو صالح لها وما هو قبيح . . فتتحرك فى شغف لتتبع جـــرة النفس بكل ما يقابلها من إحتياجات تريد اشباعا . . ومن أفعال تود القيام بها . . واعمال تسعى لها . . دون أن تسكن إلى شىء أو ترضى عن شىء . . فاذا شفيت من مرض . . بليت بأمراض وإذا استكان فيها الخوف . . هاجمها الغرور وحب الذات . . وإذا فرغت من القنوط انتابها الرياء والكبر ...

الفصل الرابع

خصائص النفس

إن الطريق الصحيح الصالح لعلاج النفس الانسانية هو مصارحتها بحقيقتها وكشف ظنونها وأوهامها وتبصيرها بما يجب أن تدركه ، فهناك أفعال وتصرفات خاطئة عليها أن تتجنبها وتعترض عليها ... وأن تدفعها بعيدا عنها ... فتتوقف عن إتباع كل مايخالف القيم الاخلاقية والمبادىء العليا التى أمرت باتباعها... والتى أراد الله للنفس أن تتحلى بها سلوكا وأخلاقا وغاية ...

عليها إذن أن تنتهج سبيل الاخلاص.. وذلك بالاستقامه وأعمال البر والصبر على الابتلاء ... والخوف من الله .. والتوكل عليه فى السراء والضراء ...

فاذا أعترضت النفس على الافعال الخبيثة والاعمال الشيطانية ، فان ذلك يدخل فى باب المجاهدة حيث تتجنب الاهواء وتبتعد عن مهاوى الضلاله ، وتنبذ مسالك الأنانية والشرور ...

وهنا تترقى النفس وتتسامى ... لان سماتها الدائم هو الندم على من أقترفته من الآثام والشرور فتدأب على البعد عن المخالفات وتنشغل باللوم عند إقتراف السيئات ... حتى يصبح هذا الحال ملازما لها ثابتا لديها ... بمثابة مقام لها ومنزلة تنزل بها ـ فضلا من الله ومنة ـ وهنا تسمى النفس نفسا لوامة ...

وإذا صدقت هذه النفس وكانت عاملة عابده لله .. واستمرت فى المجاهدة ولم تتقاعس عن الرياضة النفسيه ... وأمست المحاسبه [1] طبعها الدائم... وخلتها

---

(1) راجع ألفاظ الصوفية — المجاهدة ص١٧٨

الثابت فتتمسك بالقيم العليا من خير وإحسان .. وبر وفضيلة .. فتستحق أن تلقب بالنفس الطائعة ، الطيعة لله ... التى تنشد الخير الفاضل والسبيل الاهدى ، فهى تعترض بالكلية على ماهو شر .. وتقبل أبدا على كل ماهو خير . فتاهم بالصالحات من الأعمال الهاما.. حتى تحظى بالدرجات العليا بفضل الله ومنته وتثبت فى مقام النفس الملهمة...

فإذا واصلت النفس رحلتها فى الخير وأعمال البر والاحسان وأصبح هذا الحال ظاهرها وباطنها فكرها وعملها...استقرت فى مقام السكينة فلا ترى غير الفضيلة مبدأ ولا تختار غير الخير بديلا فأمنها مع الحق ، وأملها فيه تعالى، وهنا تسمى بفضل الله ـ النفس المطمئنة ...

والنفس التى تمضى فى سياحتها الروحية خالصة لله ... متوكلة عليه ... راضية بما ترتزق به من خير وشر .. تجاهد جهاد الابطال ... وتعمل عمل الابرار... وترضى بما أعطاها الله من نعم ورحمات ... غير معترضة على مايختبرها به من امتحانات وإبتلاءات متوكلة عليه تعالى أبدا ... مسقطة للتدبير معه على الدوام ...

هذه النفس ... يرضى الله عنها ، فتكون نفسا حبيبة إلى الله ... مرادة له تعالى متمتعه بالكمالات الاخلاقيه . تحظى بالمقامات العليا التى يحظى بها المؤمنون .. وتسمى فى هذا المقام بالنفس الصديقية مثلها مثل نفوس الأنبياء الاولياء الكمل (١) ...

---

(١) الحكومة الباطنية — الرلاية س ٩٥ — ١٢٣

وفى هذه الرحلة الطويلة ... رحلة صعود النفس فى السلم الروحى ... تعالج النفس شيئا فشيئا من آفاتها ونقائصها وعثراتها .. وذلك بواسطة مرب يعاون ويرشد، وطبيب مجرب يساعد ويوجه ...قد مر بنفس التجربة ... عانى مايكابده السالك ، ثم شرب وارتوى ، واكتمل زاده الروحى، فهو عارف بالآفات النفسية ... واع بالمسالك والدروب الموصلة للحق ... يرشد ويعين كأب مخلص ويساعد مرضاه لله وبالله ... حتى يبلغوا الرشاد دون رغبة فى منفعة زائلة أو نظير مصلحة عابرة ، وإنما أمله كله أن يستقيم مريدوه، وأن يتجنبوا الوقوع فى براثن الشيطان، وأن يبتعدوا عن الظلمة واليأس والقنوط حتى يستظلوا بنور الإيمان ، ويرتقوا إلى عالم النورانية والشفافيه والصفاء ...

والطب النفسى الإسلامى يستهدف إصلاحا ظاهرا ... وباطنا ...وبأمل أن يصبح الافراد فى المجتمع .. متطبعون بالفضائل الظاهرة والباطنة ... شريعة وحقيقه ... إسلاما وأستسلاما لله ...

فالشخصية التى يعالجها الطب النفسى الإسلامى يجب أن تعرف معرفة دقيقة وتفحص فحصا شاملا ، ليس بتطبيق النظريات ، ولا بافتراض الفروض ... المرضية والحلول المتوهمة ... وإنما بفهم واع لإحوالها ، ودرجاتها وخواصها ...

وهذا لايمكن أن يتحقق إلا إذا كان الطبيب صاحب همة كبيرة . وإيمان عميق وعلم غزير ... فبالاضافة إلى مايحصله من العلوم الكسبية ... فانه صاحب علوم وهبية أشرقت نفسه بها ... وفاض الله على قلبه بأنوارها ، وآتاه من لدنه علما... كثمرة لاخلاصه، ومكافأة لطاعته .. وحبا لمحبته ..

وبهذا فقط .. يثمر علاجه لمرضاه ، وتثمر طريقته فى تطهير الباطن مما ألم به من النقائص الخفية والآفات المرضية ..

مقـــارنة .

إذا كان لعلماء النفس المحدثين كثيرا من الأبحاث التجريبية والدراسات النظرية والنتائج العلميه الشخصية الانسانية، إلا أنهم لم يحظوا بشىء من العلوم الإشراقيـة والوهبية .. ذلك لأن هذه المعارف تحتاج إلى رياضة نفسية ومجاهدة ومعاناة .. لأنها تجارب ذوقية من الذات إلى الموضوع ومن الموضوع إلى الذات ... وهـذا الوضوع فوق كل تصور .. وأكبر من كل تصوير حسى أو مادى أو عقلانى .. إذ أنها إسترسال مع الحق جلت قدرته ...

والسبيل الوحيد إلى هذه المعارف التى يشرقها نور القلب، إنما يكون بالاستقامة أى عندما يصبح السلوك علما ودينا ... غاية وأخلاقا .. فهما وسلوكا ...

فاذا كان الطبيب النفسى قد طبعت فى نفسه هذه الأخلاق ، فانه يستطيـع أن يتغلغل إلى أغوار النفس .. ويتعرف على عيوبها وعثراتها .. وآفاتها وميولها .. حتى يتمكن من علاجها علاجا باترا حاسما ليس عن طريق المسكنات أو تغطيـة الجروح بضمادات وأغلفة .. دون تطهير الجرح والقضاء على العلة الموجودة ..

والملاحظ فى ممارسات التحليل النفسى لبعض الحالات المرضية أن العلاج يؤسس على تفسيرات مفترضة ... وخبرات ذاتية فجة .. واجتهادات متناقضة ... بعضها مع بعض ، نتيجة لفهم قاصر لابعاد ومعـالم الشخصية ، فضلا عن ان إستخدام الضوابط التعسفية . القاصرة واعتبارها الاحكام النهائية التى لامحيص عنهـا ... وكأنما لاتستقيم أيه دراسة بدونها ، ولايفسر أى سلوك بغيرها ...

وهذا يعد فى تصورنا لهو لغوا وعبثا .. إذا ـ أنه لا يمكن عن طريق بعض الاصطلاحات والنظريات الافتراضية وصف الشخصيةوعلاجها ذلك لأن الشخصية كما سبق الاشارة تختلف فى خواصها من إنسان لانسان آخر . رغم أن الله خلق الانسان من نفس واحدة . إلا أن تماثل تماثلا يجعلها قابلة لأن تخضع لأنظمه ومقاييس وأحكام واحدة .. إذ أن التمايز والاختلاف بين شخصية وأخرى راجع لخاصيه معدنها ، ومن المعادن ماهو نقى ومنه ما هو خسيس ،فكل شخصية إذن تختلف عن غيرها فى الدرجه والخواص والمقام ...

الفصل الخامس

الابتلاء تجربة واختبار

لم يتعرض علم النفس الحديث للافعال التى تحدث للانسان بدون أسباب منطقية مباشرة ، والتى يجريها على عباده ، والتى هى بمثابة تجارب يرون بها لصقل معادنهم ، وتبيان صدق أخلاصهم فى عباداتهم ، عند إمتحان عزيمتهم ، أو عند أختبار صبرهم وجلدهم وقدراتهم فى تحمل الأذى وكظم الغيظ...

كما أنه لم يتعرض علم النفس الحديث كذلك لمعالجة تلك الافعال التى لم يكن الانسان مقبلا عليها بارادته ، أى التى تحدث قضاء وقدرا أى الأعمال التى تحدث دون توافر السبب والعله والمعلول ، إذ أن مدار بحثهم ينصب على كل ماهو حسى وتجريبى ومادى وملموس ، أما خلاف ذلك فلا يخضع لمناهجهم ، ومن ثم فهم لايعترفون به من قريب أو بعيد [1] ...

وهؤلاء العلماء يزعمون أن كل سلوك يمكن معرفه مصدره وأسبابه ، سواء كان هذا السلوك شعوريا أو لاشعوريا ، فهم يرون أن كل سلوك أنسانى [2] ، هو نتاج تراكمات ، ومحصلة طبيعية لحياة الشخصية الانسانية منذ مرحلة الطفولة المبكرة ، وأن ظهور سلوك معين رهن بوجود ظرف بيئية مناسبه للتعبير عنه بصورة من الصور [3] ..

---

(١) د. صبرى جرجس – التراث الصهيونى ص : ٢٤٥ – ٢٤٨

(٢) سيجموند فرويد – موجز التحليل النفسى ص : ٢٩ – ٣٠

(٣) د. عزت راجح – الامراض النفسيه والعقليه ص : ١٣ – ٢٠

ومن الجلي الواضح أن هؤلاء العلماء ينكرون وجود قوة عليا بل وينكرون كل الصلات التي تربط بين الله والانسان ، فلايعترفون بوجود القدرة الالهية التي توجه وتمتحن وتختبر وتبتلي الانسان بشتى أنواع الابتلاءات ، وذلك راجع إلى غرورهم ، واغترارهم بالمنهج العلمي المادي المحدود ، فهم إذن ينكرون وجود إله واحد صمد كامل أبدى أزلي ، يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ...

«رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون »
(التوبة : ٩٣)

وإذا انتقلنا إلى الدعوة الاسلامية التي تستقي مادتها من القرآن الكريم والسنة المحمدية والتي تصف النفس كما عرفها تعالى ... نجد أنها تتخذ موقفا مخالفا لتلك المذاهب المتهافتة، والمزاعم الضالة ، والنظريات المتناقضة ، إذ يستنار بآيات الله في فهم السلوك الانساني ، وتستجلي غوامض النفس عملا بشريعة الله وبذلك يمكن التعرف على أوصاف النفس وصفاتها ، المذموم منها والمحمود ،فيكشف عن ريائها من علم الله ، وأخلاصها من خلال الامتحانات والاختبارات التي يجريها الله على عباده ، والتي يستوضحها القصص القرآني بالتمثيل بالشرح مبينا مايهدف إليه تعالى من حكمة وعظة وأعتبار ...

والموقف الاسلامي لايرى الانسان مسيرا في أفعاله ، مغلوبا على أمره في سلوكه وتصرفاته — كما يزعم أصحاب مدرسة التحليل النفسي — حتى ولو كان الأمر يتعلق بالابتلاءات إذ أن الابتلاء هو نوع من اختبار الله للانسان سواء كان بالنعم أو بالنقم كما أن النعمة أو النقمة لايعنيان بالضرورة الرضا أو الغضب الالهي في جميع الاحوال ... إذ يجوز أن تكون النقمة أختبارا ، كما يجوز أن

تكون النعمة أيضا إختبارا ، يمتحن بها الله عبده ... فيبتليه بنعمه ليجربه أيرى تعالى هل هذا العبد من الشاكرين ، أم الناكرين ؟ .. كما يبتليه تعالى بنقمتـــه أختبارا لصبره ... ليظهر المخلص من المرائى والمنافق[1] ، — بل أن الله يزيد أحياناً عبده الفاسق فى متاع الدنيا لينتكس بلا رحمه ... فلا تقوم له بعد ذلك قائمة ...

فالابتلاء بهذا المعنى وسيلة لغاية عظيمة ... إذ هو إمتحان يستهدف به الله تعالى ـ بواسع علمه ـ حكمة بالغة ... وخيراً فاضلا وبه يتعرف على عمل عبده المبتلى الذى يختبرة احتباراً عادلا ... فيرى الله تعالى بعدله تقصيره وجهاده ، إيمانه وكفره ، صدقه وكذبه ، باطنه وظاهره ..

«وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون» (الاعراف : ١٦٨)

« وليبتلى الله مافى صدوركم وليمحص مافى قلوبكم »

(آل عمران : ١٥٤)

فهناك من الاشخاص من يدعى الاخلاص والصدق والطاعة لله ... ويسعى لاستظهار ذلك أمام الناس... لكنه ينكشف عند إمتحانه بالفاجعات أو عن نقص المتاع والاموال والاولاد ... وهذا الامتحان يكشف عن أصالة معدنه ، ويبين صدق ورعه أو خبث باطنه ، ويتضح موقفه الحقيقى لا الظاهرى ، وذلك وارد

---

(١) الامام عبد القادر الجيلانى ـــ الفتح الربانى والفيض الرحمانى ص ١٩٠

فى قوله تعالى :

«ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص فى الأموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين» (البقرة : ١٥٥)

كما أن الحق تعالى يمتحن عباده بالابتلاءات لأسباب عديدة منها :

١ — لعل العبد يرجع عن غيه ، ويستيقظ من غفلته ، ويبتعد عن هوى نفسه ... ويقبل على طريق ربه ، ويتواضع لله بعد أن أعماه غروره وأفسده تجبره وتكبره ..

٢ — يكون الابتلاء إما بالخير ... وإما بالشر، ويغتر العبد أحيانا بزيادة فى العلم والمال والحياة ... فيصبح وسيلة لهلاكه ، إذ يعتقد جهلا أنه قد ملك واستغنى فيكفر بنعمة ربه ، ويعظم غروره وتزداد غفلته ... وبذلك يقع فى الضلال حين يكفر بنعمه ربه...

كما يغتر العبد بالشر .. كنقص فى المال ... أو موت الأحباء ، أو حين يبتلى بالخوف أو الجوع ... وهنا يتضح صدق إيمانه بالله وأخلاصه له تعالى ، كما يظهر كذبه وإدعاؤه ...

والمؤمن الصادق يسلم أمره لله ... ويرضى بما قسم له ، ويصبر على ما أتاه من إختبارات وإمتحانات .. أما المنافق فيظهر حنقا وتبرما واعتراضا وافتراء على الله كذبا ...

٣ — والابتلاء بهذا المعنى تجربة إلهيه للحكم على الصابرين والصادقين والشاكرين والمجاهدين العاملين ، وتمييز - الحق تعالى - الخبيث من الطيب فى المراتب والدرجات تعبيراً عن عدله ، وحكمته ليفضل سبحانه العاملين على غير العاملين تصديقا

لقوله تعالى :

«ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين» (محمد : ٣١)

٤ ـــ لاشك أن الآيات البينات فى القرآن الكريم تصف بدائع صنع الله ، وتصور النظام الدقيق المعجز للخلق والكون الذى يجعل الفطرة السليمة تقبل على طريق الايمان وتسمى بالتفكر والنظر إلى التوحيد المطلق ، وبهذا الطريق يزداد العبد إيقانا أن الله تعالى فاطر السموات والارض ... لاشريك له ، لايخفى عليه شىء ... كما يتيقن العبد من أنه تعالى يجرى إبتلاءه على عبادة ليختبرهم .. ويمتحنهم ليحكم بينهم ، وأن حكمه عدل على الأفعال والأعمال [1] ...

٥ ـــ ربما يعترض بعض الجاهلين على إبتلاءات الله فيقولون : أليس المؤمن هو حبيب الله ، فلم يبتلى ؟ ...

والاجابة على هذا الاعتراض السطحى ، هو أنه لو أفترضنـــا أن المؤمن فى منأى عن الابتلاءات وفى أمن من نقص الأموال والمتاع والأنفس ، فانه لاشك سيغتر ويظن أنه نظراً لحب الله، له وقربه منه تعالى، لن يعاقب على هفواته، فيركن إلى ذلك ، ويقصر فى العبادات والطاعات ، فتفتر همته فى المجاهدة ومغالبة الشيطان، ومصارعة أهواء نفسه ، ويتعود على التبطل والخمول ، فبـدلاً من أن يزداد قربه من الله ، يزداد بعدا ، وبدلا من أن يجاهد فى سبيل الله يقع فى غواية الشيطان ، ويصبح من حزبه ... فينتكس حيث يظن العزة ، ويسقط حيث يعتقد النجاة ...

لذلك كانت حكمة الله ... وفضل الله على الانسان... أن يبتليه حتى لا يغفـل ولاينسى وحتى لايقعد مع الخاملين المتبطلين ، [2] إذ عليه أن يعمل ويجاهد ليحظى

(١) أ ماظ الصوفية ـــ الابتلاء ص ٢١

(٢) لقوله تعالى : «إنا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا» (الكهف-٧)

بمحبة الله وقربته تعالى ويستمر ارتقاؤه عن طريق المجاهدة وأعمال البر إلى المنازل العليا والدرجات العظيمة ...

فالابتلاء إذن طريق للصحة النفسية ، إذ به تستقيم حال النفس وتتخلص من شوائب الأهواء ومقتضى العادات ... وتستقيم خوفا من الله ، طمعا فى رحمته...

وهكذا نجد علم النفس الاسلامى يضع التفسير السليم للأعمال التى تحدث للانسان بدون أسباب مباشرة .. أو بدون سابق معرفة ... إذ أن تفسير معنى الابتلاء يحسم الخلاف فى غموض المزاعم والتأويلات والفروض التى وضعها علماء النفس لتفسير السلوك الانسانى المعقد [1] ... يقول تعالى :

« ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم » (المائدة : ٤٨)

ويضع علم النفس الاسلامى كذلك يده على حقيقة الانسان واتجاهاته وسلوكه فيصف جبلات النفس ويحللها تحليلا شاملا عميقا وواعيا ، مستقيا مادته من الكتاب الكريم ، والسنة المحمدية ، فيبين أن الانسان المؤمن الذى يسير فى طريق الله ، لايصاب بالأمراض النفسية ، ولايقع فى الصراعات الحادة ، ولاينتابه الخوف والفزع والقلق واليأس ، لأنه عند صابر ... راض بما يأتيه الله من خير أو شر... يقول الرسول — صلى الله عليه وسلم :

« إن [2] من أخلاق المؤمن قوة فى دين ، وحزما فى لين ، وإيمانا فى يقين وحرصا فى علم ، وشفقة فى مقة [3] وحلما فى علم ، وقصدا فى غنى ، وتجملا فى فاقة ، وتحرجا عن طمع ، وكسبا فى حلال ، وبرا فى إستقامه ، ونشاطا فى هدى ، ونهيا عن شهوة ، ورحمة للمجهود ، وإن المؤمن من عباد الله لايحيف على من يبغض ، ويأثم فى من يحب ، ولا يضيع ما أستودع ، ولا يحسد ولا يطعن ولا يلعن ،

(١) (الكهف ٠ ٧) (٢) رواة الحكيم عن جندب (٣) المقة ٠ الحب

ويعترف بالحق ، وان لم يشهد عليه، ولا يتنابز بالألقاب .. فى الصلاة متخشعا، إلى الزكاة مسرعا..فى الزلازل وقورا ، فى الرخاء شكورا ،قانعا بالذى له، لا يدعى ما ليس له ، ولا يجمح فى الغيظ ،ولا يغلبه الشح عن معروف يريده ، يخالط الناس كى يعلم ويناطقهم.. كى يفهم ، وإن ظلم وبغى عليه صبر... حتى يكون الرحمن هو الذى ينتصر له ...»

أما العاصى أو المعترض ... فانه يمضى حياته شقيا ... تعسا يتظاهر بالسعادة رغم شقاوته، ويحيا حياة التعساء ولا يعرف طعما للراحة ولا يذوق معنى السكينة ، أنما حياته غم وهم وحسرة وقلق .

فاذا تاب الله عليه ـ فضلا ومنة منه تعالى ـ تقلب فى نعم الله وعطايا الله، وعرف أنه كان ظالما لنفسه .. مضيعا لعمره فى العبث واللهو ، حتى إذا أدركته رحمة الله عاش فى نور الإيمان ، وفتح الله له باب العز ، وأغلق عنه باب الذل ، وسبح فى الأنوار ، وهنا يعرف نفسه ، ومن عرف نفسه ، عرف ربه...

الفصل السادس

الخواطـــر

الخاطر هو خطاب يرد على النفس .. وقد يكون شيطانيا أو ملائـــكيا .. أوربانيـا [1] .

وسبب التمييز بين الخاطر والخـاطر راجع الى حال النفس .. اذ أن سبب غلبـة الخواطر المذمومة ، انشغال النفس بحظوظها وشهواتها واهـوائها ، [2] فترد عليها الوساوس الشيطانية التى تحجبها عن الحقائق وتحسن لها الأعمـال والأفعال المستقبحة شرعا ... وتشغلها باللذات التى تطلبها . . والشهوات التى لاتشبع منهـا ، وبالرغبات التى لاتنتهى عند حد . . والأمانى التى تنزع الى تحققها عاجلا والأهواء التى تجنح بها عن الطريق المستقيم .. تصديقا لقوله تعالى :

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا »

(الكهف : ٢٧)

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » (الشمس : ٧)

« فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا » (البقرة : ١٠)

أما اذا سكنت النفس .. وهفت هواجسها ، وأقبلت بهمة فى رحاب الحق .. واسترسلت مع الله ... واستطاعت أن تقهر غلبة هوى النفس، وغواية الشيطان ..

---

(١) الامام القشيرى ـ الرسالة القشيرية ص : ٢٤٣ ج ١

(٢) الامام الكلاباذى ـ التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٠٩ .

فتميز تمييزا واضحا بين الخاطر الشيطانى والخاطر الربانى ، وتعرف انّ خاطر النفس لايصدق ، كما تعرف أن خاطر القلب لايكذب ... [١]

ويبين لنا الامام عبد القـــادر الجيلانى[٢] ـ رضى الله عنه ـ أن للقلب ستة خواطر هى :

١ ـ خاطر النفس .

٢ ـ خاطرالشيطان .

٣ ـ خاطر الروح .

٤ ـ خاطر الملك .

٥ ـ خاطر العقل .

٦ ـ خاطر اليقين .

يصف لنا الامام الجيلانى [٣] كل خاطر من هذه الخواطر التى ترد على القلب فيوضح لنا أنّ خاطر النفس يأمر الانسان بالنزوع الى الشهوات ، وتناول المحرمات ، ومتابعة الهوى ، وموافقة الحظوظ المباح منها ، وغير المباح !!!

اما خاطر الشيطان ... فانه يأمر بالكفر والفسوق والعصيان ، ويشكك

---

(١) رسائل ابن عربى ـ ج ٢ ـ كتاب اصطلاح الصوفية

(٢) الامام عبد القادر الجيلانى ـ الغنية ص ١٥١ ج ١

« هو العارف بالله الامام عبدالقادر الجيلانى توفى ١ ٥ هـ وهو شيخ الطريق القادرى له مؤلفات عديدة منها الفتح الربانى والفيض الرحمانى »

(٣) الشيخ الشطنوفى ـــ بهجة الاسرار ص : ٦٧

الانسان فى دينه ليشرك بربه ، وايطلق التهمة لله تعالى فى وعده بغية ارتكاب المعاصى ، وفعل المهلكات ، والتسويف فى التوبة وكل ما فيه هلاك النفس فى الدنيا والآخرة ...

ويؤكد بعض أئمة الصوفية أن خاطرا النفس والشيطان مذمومان ، ويبتلى بهما العامة من المؤمنين ، وهما طريقا الشر والسوء ..

« وسولت له نفسه قتل أخيه فقتله ، إن الشيطان كان للانسان عدوا مبينا » (الاسراء : ٥٣)

أما خاطر الروح .. وخاطر الملك ... فانهما يردان على القلب بالحق والطاعة ... والصدق ... والاخلاص لله تعالى :

« أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه » (المجادلة : ٢٠)

وهذان الخاطران عاقبتهما الأمن والسلامة فى الدنيا والآخرة ، واذا كانا يوافقان العلم والشرع ... فانهما محمودان لايعدمهما خصوص الناس ... اذ تتوارد هذه الخواطر على قلوب أصحاب الصدق من الصالحين والأولياء كبشرات تطمئن أفئدتهم وكثمرات تؤيد يقينهم وتنير طريقهم ...

أما خاطر العقل .. فهو يأمر تارة بما تأمر به النفس والشيطان وتارة أخرى يأمر بما تأمر به الروح والملك .. وذلك لحكمة يعلمها الله ، وذلك لكمال جوده، وإتقان صنعته ، فيجعل العبد الصالح يدخل فى الخير ، والطالح يدخل فى الشر وذلك عن طريق رجاحته وصدق التمييز ... وصحة الشهود ... فيكون عقابه وجزاؤه عائدا اليه وعليه ...

ولقد أوجد الله تعالى خاطر العقل كالملكة فى الإنسان ، وبين له الخير والشر والحق الباطل ، ليعرف العبد سعادته وتعاسته وشقاءه بوجود معقول ، فجعل له له الجسم كمكان لجريان أحكامه تعالى ، ومحلا لنفاذ مشيئته ، وبديع حكمته ... وكذلك الأمر بالنسبة للعقل الانسانى ... فهـــو الذى يحمل اليه الخـــير ... والشر ، الحق ... والباطل ، ويجرى معهما العقل فى خزانة الجسم ، لأن العقـــل مكان التكليف ، وموضع التصريف ، وسبب التعريف بالله ... فاطر السموات والارض ...

والعاقل من الانسان ينال النعيم ولذاته ثوابا من الله تعالى ، كما ينال العـاصى عذاب الجحيم وآلامه عقابا من الله ... على شركه وآثامه ، لأنه تعالى وهبه العقل فاتبع هواه وغوى ، أما الذى سقط عنه التكليف لنقص عقلة ، وضعف كماله كالمجانين والقصر ، فان الله سبحانه لايحاسبهم .. وهو أرحم الراحمين ...

أما خاطر اليقـين .. فـيراه الامام الجيلانى (١) روح الايمـان ، وهو يأتى فى صورة مزيد من العلم فهوعلم وايمان من الله يرد على قلب العبد الصادق الذاكر :

« ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (الرعد : ٢٨)

ويختص بهذا العلم نفر قليل ... هم خواص الخواص ، من الأوليـاء الكمل والصديقين الشهداء ، ولايرد على القلب الا بحق وان خفى معناه ومغزاه ، ودق مجيئه ، وهذا الخاطر لاينقدح الا بعلم لدنى ، وأخبار عن بعض أسرار الأمـور ، وبعض المغيبات ...

---

(١) الشيخ الشطنوفى ـــ بهجة الأسرار ص : ٢٨

ويحظى بهذه العلوم والأسرار التى ترد من خاطر اليقين المحبوبين والمرادين المختارين ... أصحاب المقامات العليا ... التى أصبحت عبادتهم الظاهرة باطنة، ما خلا الفرائض الشرعية، والسنن المؤكدة، فهؤلاء أبدا فى رعاية بواطنهم، ومراقبة أفئدتهم، والله تعالى يتولى تربية ظواهرهم، كما ورد فى قوله تعالى :

« وهو يتولى الصالحين » (الأعراف : ١٩٦)

« وهو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم »
(الفتح : ٤)

فالله تعالى قد شغل قلوبهم بمطالعة أسرار الغيوب، فانشغلوا بعلم الله ... ومن الله... وعطايا الله وأضاء نفوسهم بالتجليات، واختصهم بالأنس به، والسكون اليه، والطمأنينة لديه ... فهم فى كل يوم يزدادون من الله قربا على قربهم ... ويفيض الله عليهم من علمه ونوره ومعرفته، ولانفاذ لعلمه ومعرفته، لانهاية ولاغاية يقفون عندها، فاذا إنتقلوا الى الدار الباقية، فقد انتقلوا من جنة الى جنة ولكن الآخرة هى الجنة العليا لانهم هناك يرون الله بغير حجاب ولاباب، ولا حاجب ولا مانع، ولا انقطاع ... ولانفاذ ... بباب مليك مقتدر لقوله تعالى :

للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » (يونس : ٢٦)

يقول الامام الجيلانى [1] - رضى الله عنه - « والنفس والروح مكانان لالقاء الملك والشيطان»... فالملك يلقى التقوى الى القلب، أما الشيطان فانه يلقى الفجور الى النفس، والنفس دائما تطالب القلب باستعمال الجوارح لتأتى بالاثم والفسق.

---

(١) الشيخ الشطنوفى - بهجة الاسرار ص ٦٨ ومابعدها

كما أن هناك مكانين فى البدن ... هما العقل والهوى ، يتصرفان بمشيئة حاكم ، وهذا الحاكم اما أن يـــكون التوفيق والاستقامة ، وأما أن يكون الغرور والتعجب ...

أما القلب ... فله نوران ساطعان ... هما العلم الايمان ، وجميع ذلك الذى ذكرنا ... أدوات القلب وحواسه وآلاته ، والقلب هنا فى وسط هذه الآلات كالملك ... وهذه جنوده ، تعمل من أجله ، وتؤدى له ما افترضه عليها ، أو كأن القلب مرآة مجلوه ، وهذه الأدوات حوله تظهر فيها ، وتنقدح فيه ، فيجدها أمامه ..

وخلاصه القول ، أن الخواطر خطاب يرد على الضمائر ، فاذا كان من قبل الملك .. فهو الالهام ، وهو على لدنى ... تصديقا لقوله تعالى :

« وأتينـاه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما »　　　(الـكهف : ٦٥)

أما اذا كان الخاطر من قبل الشيطان ، فهو الوسواس الذى يوسوس فى صدور الناس ، فيجعل ماهو باطل حقا ، وما هو حق باطلا ، أما اذا كان الخاطر من قبل النفس ، فهـو الهاجس ، وهو ينزع الى الملذات والشهوات ، ولا يشبع من جـــوع ، ولذلك وجب على الانسـان أن يستعيـذ بالله من الشيطان ، كما يقول الله تعـالى :

« قل اعوذ برب الناس ، ملك الناس ، اله الناس ، من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس »　　　(الناس : ١ - ٦)

أما اذا كان الخاطر من قبـــله تعـالى ، فهـــو خاطر الحق ، لأنه يلقى فى القلب القـــاء ...

وعلامة الإلهام الذى هو خاطر الملك ، انه يرد على القلب بموافقة الشرع والعلم ... وكل الهام يرد على الانسان لايوافق الشريعة ولايشهد له بالصدق ... فهو باطل .

أما علامة غلبة الهواجس على النفس ، كثرة اللجاج ... واللغو فى الطلب بل الالحاح فى وصف خاصية من خصائص جبلات النفس ، كالشره ، والطيش ، ولايزال الهاجس يعاود الانسان مرارا وتكرارا بين الحين والحين حتى يأتى الانسان ذلك الوصف الذى طلبه هذا الخاطر الشيطانى ...

« ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه » (ق : ١٦)

والغريب فى هذا الخاطر الوسواس أنه اذا جاء فى صوره إثم .. وخالفه الانسان ودفعه عنه ، وامتنعت النفس عن اقتراف ذلك الإثم ، فانه لايسكن .. ولايهدأ الا إذا وسوس له باثم آخر ، لأن جميع المخالفات عندهذا الخاطر سواء ، فالشيطان كما قال عز من قائل :

« انما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » (فاطر : ٦)

« قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين، الاعبادك منهم المخلصين » (ص ٨٢ ، ٨٣)

فالشيطان دائب الغواية ، عامل لها ، ولا يهدأ له بال الا اذا وسوس للانسان ليشرك بربه ، ويخالف أمره ، وينزلق الى هوى نفسه ...

« فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد »
(طـه : ١٢٠)

أما علامة الخاطر الحق [١] ، الذى هو خاطر اليقين أنه لايؤدى الى حيرة ولا الى ضلالة وسوء ، وانما يزداد به الانسان علما وبرهانا ، ويعرف عند حضوره

---

(١) الشيخ الشطنوفى ــ بهجة الاسرار ص ٦٨

الى قلب الانسان ووجد انه ، فاذا ورد خاطر الحق على القلب ثم ورد بعده خاطر حق آخر ، فان الخاطر الثانى فى رأى ابن عطاء أقوى ، لأنه ازداد بالأول قوة ..

ويرى الجنيد [٢] ـ رضى الله عنه ـ أن الخاطر الأول أقوى ، لأنه اذا بقى واستمر دعى صاحبه الى التأمل ، وهذا هو مجال العلم الحق ...

ويتفق أئمة الصوفية على أن من أكل الحرام ، لم يستطع أن يفرق بين أى من الخواطر ، اذ يلتبس عليه الأمر بين خاطر النفس ، وخاطر الشيطان ، وخاطر الملك جميعا ..

---

(٢) الشيخ أبو بكر محمد الكلاباذى — التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٠٩ . تحقيق الاستاذ محمود النواوى .

الباب الثاني

أمراض القلب

مقدمة

« لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها » (الاعراف : ١٧٩)

« كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين » (الاعراف : ١٠١)

« وقذف فى قلوبهم الرعب » (الاحزاب : ٢٦)

« فيطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » (المنافقون : ٣)

ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم » (آل عمران : ١٥٦)

« يقولون بأفواهم ماليس فى قلوبهم » (آل عمران : ١٦٧)

« وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون » (التوبة : ٤٥)

« وزين ذلك فى قلوبهم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا » (الفتح : ١٢)

« رضوا أن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون » (التوبة : ٩٣)

« انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا » (الكهف : ٥٧)

« فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » (الزمر : ٢٢)

« لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم » (الأحزاب : ٦٠)

« أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم » (المائدة : ٤١)

« لو أنفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم » (الانفال : ٦٣)

«يرضونكم بأفواهم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون» (التوبة : ٨)

«يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم» (التوبة : ٦٤)

«وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة»

(الزمر : ٤٥)

«كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر جبار» (غافر : ٣٥)

«وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة» (الجاثية : ٣)

«كذلك نطبع على قلوب المعتدين» (يونس : ٧٤)

«ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم» (التغابن : ١١)

صدق الله العظيم

الفصل الأول

داء الرياء

ينطوى الرياء على الخداع ، فمن يرائى الناس يخدعهم لأنه يظهر غير مايبطن والرياء نوع من الشرك الخفى ، إذ أنه إدعاء كاذب ، حيث يزعم المرائى أقوالا أو أفعالا خلافا للحقيقه ليغش الآخرين به ...

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : إن ادنى الرياء شرك [1]

والرياء يمشى إلى النفس البشرية مثل دبيب النمل ، فلا يسـلم منه أحدا إلا العارفين بالله المخلصين الطائعين ، لأنهم أرتفعوا عن رؤية أنفسهم بما أودعه الله في قلوبهم من نور اليقين ، فلا يطلبون من الناس منفعة ولا يرجون منهم خدمة ، ولا يخشون منهم ضرراً ، إذ أن أعمالهم جميعا خالصة لله ، وإن كانت ظاهرة للناس ...

أما المرائى فانه يولع بالأقنعه الكاذبة ، ويتلثم بالاغطية البالية ليكتم باطنه القبيح ، ويتستر على نفسه الأمارة ، فيوارى الشر ، ويحسن الباطل ، ليخفى الحقيقة غشا وخداعا يقول الرسول — صلى الله عليه وسلم : —

«تجدون شر الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين ، الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه [2] ...

( ) رواه البخارى ومسلم

(٢) عن معاذ وقد ذكره المحاسبى فى الرعاية .

والمرائى فاقد الجمال والصدق، وفاقد الشيء لايعطيه ، فهو وإن كان يتكلم كلاما ظاهره الرحمة، فباطنه العـــذاب .. كالذى يدس السم لمضيفيه ، أو يطعن أصدقاؤه ...

والمرائى يصير بالتعود كاذبا منافقاً ومخادعا ومن ثم يعمى قلبه عن كل بصيرة ويقع فى شرك خداعه ،فيحجب قلبه ويعبد ذاته ولايرى غيرها محبوبا .. حتى ولو ظلم الناس جميعاً ...

«يراؤن الناس ولايذكرون الله إلا قليلا » (النساء : ١٤٢)

والمرائى خادع مخدوع،خادع للناس ولنفسه ، يهتم بنفسه ويقدمها فى كل الأمور وينافق ليحقق لذاته ويشبع حظوظه وأهوائه وشهواته .

«نسوا الله فنسيهم ، إن المنافقين هم الفاسقون» (التوبة : ٦٧)

الرياء إذن فسق [1] وعبادة للذات ، ونسيان لله ، وهو ثمرة فجة لاستحواذ الشيطان على نفس المرائى الذى يغويها بالأباطيل، ويوقعها بالتلبيسات والاكاذيب حتى إذا لبست قناعه الخادع، ظنت أنها مركز الكون كبرياء وغرورا .. والمرائى وإن عرف حقيقة نفسه إلا أنه ينعزل ناسيا ربه فى غربة غريبة ...

«يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ، مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء» (النساء : ١٤٢)

يقول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم : [2] ..

« أخوف ما أخاف على أمتى ... الرياء والشهوة الخفية »

---

(١) الامام عبدالقادر الجيلانى ــ فتوح الغيب ص : ٩٢

(٢) المرجع السابق

ويقول صلى الله عليه وسلم :-

« يخرج فى آخر الزمان رجال يختلسون الدنيا بالدين ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين .. ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم قلوب الذئاب»

جاء رجل إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال [١] : « إنى أقف الموقف أريد وجه الله ، وأريد أن يرى موطنى... فلم يرد عليه رسول الله لأنه مراء رغب أن يعمل لله ، على أن يراه سبحانه وهو يعمل ليكافئه على صنيعه أول بأول، فهو يريد أن ينتقد ثمن ما يعمله، ومعنى ذلك أنه يساوم الله ليبدل آخرته بدنياه .. ويورد صاحب الرعاية [٢] أن رجلا عاد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ... قال يارسول أسر العمل لاأحب أن يطلع (غيرى) عليه فيطلع (غيرى) عليه فيسرنى (عندما أعلم ذلك) فقال الرسول لك إحسان أجر السر ، وأجر العلانيه ...

والمرئى ثوبه نظيف ، وقلبه نجس ، يزهد فى المباح ، ويتكاسل عن الجهاد فى العمل وطلب الرزق ، ويأكل بدينه ، ولا يتورع عن الحرام يخفى أمره عن الناس ولا يعرفه إلا أهل الحق... أصحاب الفراسات [٣] ...

ويعدد لنا الامام الغزالى [٤] ... بعض أصحاب الكبر والرياء والحسد وطلب الرياسة ، فيقول عنهم ما قاله الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أنهم أصحاب الشرك الاصغر ، لأنهم تركوا المعاصى الظاهرة ، ومع ذلك فإن قلوبهم

---

(١) الامام الشعرانى — كشف الغمة ص : ٣٤ ج ١

(٢) الامام الجيلانى — الفتح الربانى ص ٣١ — ٣٤ وكذلك ص ٩٥

(٣) الحارث المحاسبى — الرعايه ص ٢٧

(٤) الامام أبو حامد الغزالى — ص ٣ — ٢٠ الكشف والتبيين

لم تمح عنها الصفات المذمومة ، ومثلهم كالذى أصيب بالجرب فأمره الطبيب بتناول الدواء ، ودهان جلده، فترك شرب الدواء ، واهتم فقط بالدهان ... فأزال ما بظاهر الجلد من أمراض ، ولم يزل باقيا ما بباطنه ، فلا يستقيم له حال إلا إذا عالج ما فى باطنه من الجرب الذى يطفح على ظاهره ويزداد يوما بعد يوم ..

كما يوضح الامام الغزالى بعض فرق المغترين فيقول : « ونفر أغتروا بالصوم، وربما صاموا الايام الشريفة ، وهم فى ذلك لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة ، ولا بطونهم عن الحرام عند الافطار ، ولا من الهذيان بأنواع الفجور» ...

وهؤلاء المغترون تركوا الواجب واتبعوا الجائز ، وظنوا أنهم يسلمون ... ثم يوجه إليهم لومه قائلا : هيهات ... هيهات إنما يسلم من أتى الله بقلب سليم » [١] ...

ويتشابه المرائى مع [٢] النرجسى الذى يراه علماء النفس الحديث عابدا لذاته، لا يعمل إلا لمنفعته الشخصية ، أو لاشباع غروره وتعجبه بنفسه أو مداراة أمراضه الدفينه من نقص وعجز باستظهار العظمة والاستعلاء والغطرسة ... وطلب مدح الناس له وثناؤهم عليه وتقريظهم لأعماله لتسكن بذلك مخاوفه، وهذا ما يسمى بغوبيات الهستيريا [٤] ...

ويعتقد بعض علماء النفس أن الطريق لعلاج النرجسية أو حب الذات ، أنما

---

(١) الامام أبو حامد الغزالى ـ الكشف والتبيين فى غرور الخلق أجمعين (هامش كتاب تنبيه المغترين ١ ص : ٣ ـ ٣٠

(٢) يستخدم علماء النفس تعبير نرجسى ويقصدون به المحب لذاته لدرجة العبادة

(٤) موجز التحليل النفسى ص ١٦٠ Narcissium

يتم بشغل النرجسى باهتمامات أخرى ، وتبديل أفكاره بافكار جديدة ، غير التى تستحوذ عليه وتستعبده ، فاذا إستبد بشخص حب التعظيم ، فعليه أن يعالج نفسه بمشاعر أخرى بديلة ..

وربما لا يكون ذلك علاجا باتر لأمراض النفاق والرياء ، إذ أن علاج الداء بزرع داء آخر صورة ذات وجهين ... وأما الطريق الاسلامى فى علاج المرائى يكون فى كسر شهوته ، وهذا لايتـأتى إلا بالتواضع ، وأن يغرس فى نفسه أن خالق الكون وصاحبه هو الله ، وأنه لايستطيع أن يفعل شيئا إلا إذا أراده الله ، فينتقل من حب ذاته إلى المحبة الالهية ، ومن الشك إلى الايمان ، ومن الكذب إلى الصدق ومن الخداع إلى الحق ، وبذلك يمكن أن تتغير نفسه تغيرا عميقاً فلايطمع فى مرضاة الله ، فتهدأ نفسه بعد أن أفرغت من اهوائها الدنيويه ، ولايعود إلى تبرئة نفسه عند الناس ، ولاتشغله عيوبه ، ولايحاول أن يسترها بقناع الغش والخداع ، ويعمل على تخليه ما فى قلبه من العجب والكبرياء ، وبذلك يتجنب الشعور بالنقص والذنب ، ويستعيد ثقته بالله ... وليس هذا العلاج كما يدعى علماء النفس تخفيفا أو تنفسيا أو حيلة هروبية ، وإنما ذلك تقويما للنفس ورجوعا لحظيرة الإيمان ، وبترا لأمراض القلب ، فيعود المريض صحيحا سليما عارفا بنفسه وربه جميعاً ...

ومن الرياء حب الرياسه والتعظيم وتسخير الناس لمصلحة المرائى كما أن من الرياء سواء فى العلم أو العمل حب الاستعلاء ليعلو صاحبه وليعلم الآخرين وليعلم الناس أنه أعلم العلماء وتظهر المباهاة فى العمل ، فان صلى المرائى ركوعا أو سجوداً فانه يزيد أمام الناس خوفا أن يسبقه أحد ممن يصلى معه ، ويجزع إن علاه غيره فى عمل من الأعمال كما يجزع عندما ينفق غيره أكثر منه ، ويحاول أن يزيد عليه ... ولو كان وحده ما أنفق .. وكذلك فيما يتعلق بالرياش والخدم .

والمرائى يتفاخر بالدنيا ويتباهى بها فيقول لغيره أنت فقير لامال عندك ...أو يسأل كم ربحت وكم عندك من المال ... وأنا عندى أكثر مما عندك ... ويتفاخر أيضاً فى العمل فيقول لغيره أنا جاهدت وحاربت — وأنت لم تحارب وقد جبنت عن الاشتراك فى النضال ..

وفى مجال العلم يتفاخر بعمله ومجالسة العلماء وتقديمهم له على غيره ...

الفصل الثاني

كلمة الغضب

الغضب ابتلاء ، وكظمه تكليف ، والانسان محوط باللذات والمكاره ويمتحن العبد فى عمله ، وفى سلوكه الذى يسلكه ليعرف صدقه من كذبه ...

والغضب من القوى الشيطانية[1] التى أودعها الله فى الانسان، فاذا استفز الانسان الغضب ، فقد ارتبط بهذه القوة النارية ، والانسان من طين ساكن فيه وقار ، وأما الشيطان فمن نار تتلظى بالحركة والاضطراب ، لذلك يقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« ليس الشديد بالصرعة ، انما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب »[2] .

ومن نتاج الغضب الحقد والحسد ، وهو يسوق الانسان الى المرض وتكدر الطبائع واختلالها ، ولذلك وجب معرفة مكانته ليمكن علاج المذموم منه ، وبيان فضيلة كظم الغيظ ، ثم الحلم والعفو والرفق ، وفى ذلك ورد قوله تعالى :

« اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية ،[3] حمية الجاهلية ، فأنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » (الفتح : ٢٦)

سأل أبو الدرداء ـ رضى الله عنه ـ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

---

(١) قوت القلوب ج ٢ ص ١٧٤ وما بعدها .

(٢) عن أبى يعلى فى مسنده عن زيد بن أرقم وذكره السيوطى فى الجامع الصغير .

(٣) الحمية . الصادرة عن الغضب .

دلنى على عمل يدخلنى الجنة ... قال: لا تغضب [١] .

وقال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل » [٢] ... اى كما تفسد المرارة الحلاوة ..

حقيقة الغضب : [٣]

ركب الغضب فى الانسان ليحميه من الفساد ، ويدفع عنه الهلاك ، ففى تكوين الانسان وفى داخله حرارة ورطوبة ، وبينهما عداوة وتضاد ، فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة وتجففها وتبخرها ، ولولا اتصال مدد الغذاء بالرطوبة لفسد الحيوان ، فخلق الله الغذاء الموافق للحيوان ، وخلق فى الحيوان شهوة للغذاء ...

أما فى خارج الانسان ... فيظهر الغضب عند تعرض الإنسان للاخطار وهنا يجب أن يحصل على قوة وحمية تثور عند الحاجة وهى بمثابة رد فعل للعدوان فتشعل نار الغضب فى نفسه كما يشتعل النار فى القدر ، وينصب ذلك على الوجه فيحمر الوجه والعين ، والبشرة لتبين ما وراءها من حمرة الدم ، كما تبين الزجاجة لون ما فيها ...

وقوة الغضب محلها القلب [٤] ، ومعناها غليان دم القلب لطلب الانتقام ، وتتوجه هذه القوة فى ثورتها الى دفع الأضرار قبل وقوعها والتشفى والانتقام

---

(١) ذكره ابن الدنيا والطبرانى فى الكبير والاوسط باسناد حسن .

(٢) ذكره الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى الشعب من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن

(٣) الامام أبو حامد الغزالى — احياء علوم الدين ج ٩ ص : ١٦٤٠ — ١٦٤١ وما بعدها .

(٤) الامام أبو حامد الغزالى ـ حياء علوم الدين ج ٩ ص . ١٦٤٠ ـ ١٦٤١

بعد حدوثها ... والانتقام هو قوت هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها ، ولاتسكن الابه ... الا أن المؤمن عندما يستفز بالاساءة اليه يصفح عن المعتدي :

« واذا ما غضبوا هم يغفرون » (الشورى : ٣٧)

الحد الفاصل في الغضب :

التفريط(*) في القوه الغضبية دليل ضعفها ، وهو مذموم ، ويقول الشافعي رضي الله عنه : « من استغضب فلم يغضب فهو حمار » [١] ، لأن فقد قوة الغضب نقص في الانسان لقوله تعالى :

« أشداء على الكفار رحماء بينهم » (الفتح : ٢٩)

جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم » (التحريم : ٩)

أما الافراط ، فهو الزياده في الغضب حتى يخرج عن العقل والحكمة والدين ، ولايبقى للانسان بصيرة ونظر وفكر ولا حسن اختيار للافعال والأعمال فتغلبه كلبية الغضب[٢] التي هي قوة في النفس الأمارة ، فينزع الى التشفي والانتقام ... وبعضهم يسمي ذلك شجاعة ورجولة، كأن يقول أحدهم : أنا لاأصبر على أحد أو لا أحتمل من أحد أمرا ، وهذا يعني انه لاعقل له ولا حلم ... ولاحكمة ...

ويتأثر بعض الناس بهذا الرأي الفاسد فيرسخ في نفسه طبع الغضوب ويتشبه بهؤلاء الجهلة في تقويه نار الغضب ، فمهما وعظ لايسمع لأنه عمي عن كل نصح

---

* التفريط : قلة الغضب

(١) الاحياء : ج٩ ص ١٦٤٠ وما بعدها

(٢) الشريعة والحقيقة ـ عجائب القلب ص ٧٥ ـ ٧٠

وموعظة ، بل انه على العكس يزداد غضبا مع النصيحة وتسود الدنيا أمامه ، واذا راجع نفسه لم يقدر الى ذلك سبيلا ، اذ ينطفىء فى نفسه نور العقل ... وينهك مسلك الحيوان الهائج ...

وفى الغضب يتصاعد دخان مظلم الى الرأس ، فيستولى على معادن الفكر ، بل ربما يتعدى ذلك الى معادن الحس فتظلم عينه حتى لايرى بها شيئا [1] ...

وربما يتمكن الغضب من الانسان ، فلا يستطيع اطفاؤه لامن الداخل أو الخارج حتى يحترق مايقبل الاحتراق ، وربما تجف رطوبة القلب فى الغاضب ، فيموت كمدا وغيظا ، اذ أن السفينة التى تجرى فى بحر لجى ، متلاطم الامواج أفضل حالا من النفس المشحونة غيظا ، لان السفينة يحاول ربانها انقاذها ، أما فى الغضب ، فالقلب هو صاحب السفينه ، وقد سقطت حيلته وأعماه الغضب ، فلا يستطيع أن يدبر شيئا .. يقول الرسول [2] صلى الله عليه وسلم : « ان الله تعالى لما خلق الخلق كتب بيده ان رحمتى تغلب غضبى »

ولو رأى الغضبان ـ فى حاله غضبه ـ قبح صورته لسكن غضبه حياء من نفسه بل لوجد أن قبح باطنه أعظم من قبح ظاهره ، اذ أن الظاهر عنوان الباطن ..

يقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« ألا إن الغضب جمرة توقد فى جوف ابن آدم ، ألا ترون الى حمرة عينيه ، وانتفاخ أوداجه (٣) . . . . فاذا وجد أحدكم شيئا من ذلك فالارض

(١) رواه ابن ماجة عن أبى هريرة ...
(٢) الاحياء ـ جزء ٩ ص ١٦٤٠ ـ ١٦٤٢ مطابع الشعب
(٣) العرق الذى يقطعه الذابح.

الأرض . . . الا أن خير الرجال من كان بطيء الغضب سريع الرضا ، وشر الرجل من كان سريع الغضب ، بطيء الرضا » (١)

أما أثر الغضب فى الظاهر فيظهر فى السباب والاعتـــداء بفحش الكلام ، أما أثره على الأعضاء ، فالضرب والتهجم والقتل والجرح بدون مبالاة ، فاذا لم يتمكن الغاضب من المغضوب عليه ، رجع غضبه الى نفسه فمزق ثوبه ، ولطم وجهه ، أو حفر الأرض أو الجدار ، وأحيانا يعدو مسرعا ويقع على الارض لأنه يضيق العدو من شده الغضب ، ثم أنه يفعل أفعال المجانين . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ــ :

« إن الغضب من الشيطان ، وان الشيطان خلق من النار .. انما تطفأ النار بالماء ، فاذا غضب أحدكم فليتوضأ » (٢)

أما أثر الغضب فى القلب ، فانه يولد الحقد والحسد واضمار السوء والشماتة ، والحزن على نعم الغير ، وافضاء الأسرار ، واهتاك السر ، والاستهزاء ... ولذلك يقول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ :

« لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان » (رواه الجماعة)

واذا كانت زيادة الغضب دالة على المرض النفس ، فكذلك فإن نقص الحمية تولد قلة الأنفة ، وضعف النخوة فى الدفاع عن العرض والوطن ، واحتمال الذل من الاخساء ، وصغر النفس والدناءة ، وهذ مذموم أيضا وفى ذلك يقول الرسول صلى الله علية وسلم ـ :

---

(١) رواه الترمذى
(٢)) رواه أبوداورد عن ابى نعيم عن معاوية مع تغير فى اللفظ (فليغتسل بدلا من فليتوضأ).

« ان سعدا لغيور ، وأنا أغير من سعد وان الله أغير منا »(١)

لقد خلقت الغيرة لحفظ الأنساب ، ولو تسامح الناس في ذلك لاختلطت الأنساب ، ولذلك قيل أن كل أمة وضعت الغيرة في رجالها ، ووضعت الصيانه في نسائها ...

ومن ضعف الغضب الخور والسكون عند مشاهدة المنكر والفسق ، ومن فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه ، اذ لا تتم رياضة النفس الا بتسليط الغضب على الشهوة، فيغضب الانسان عند ميل نفسه الى الشهوات الجنسية... (٢)

والغضب المحمود هو الذى يساوق العقل، ويواكب الدين ويستمد منهما اعتداله واستقامته التى كلف الله بها عباده ، وهو الوسـط الذى قال فيه — صلى الله عليه وسلم — :

« وخير الأمور أوسطها »(٣)

ومن مال غضبه الى الفتور ، ضعفت نفسه كأنه علامة على الخسة والذلة والظلم في غير محله ، ومن مالت نفسه الى الغضب المفرط ، جـرها الى التهور والفواحش ، وفى كلا الحالين ينبغى أن يعالج نفسه بالوسط الحق ، لانه الصراط المستقيم ، والخير الفاضل ، وهذا أرق من الشعرة ، وأحد من السيف ، وهو من أشق الأمور لقوله تعالى : —

« وان تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل »
(النساء : ١٢٩)

---

(١) ذكره أبو هريرة وهو متفق عليه من حديث المغيرة
(٢) الشريعة والحقيقه المؤلف عجائب القلب ٥٧ الى ٧٠
(٣) ذكر هذا الحديث البيهقى فى الشعب ..

لماذا يغضب الانسان :

يحب الانسان بعض الأشياء والأعمال ، فاذا سلبت منه يغضب ، وبعض هذه الأشياء ضرورى له وبعضها كمالى ، ومن ذلك :

١ ـ الغذاء والكساء والمسكن وصحة البدن . فاذا أعتدى على النفس، أو سلب المال أو الملك أو جزء منها ، أو كلها غضب الانسان ، وكلها من الضروريات التى يغضب الانسان من زوالها ...

٢ ـ المال والجاه العريض ، والأدوات النافعة للانسان ، وهى محبوبة له ولو أنها ليست ضرورية ، ولكنها مطلوبة بالعادة فيغضب الإنسان على من يسرقها ، وأكثر غضب الناس على ما هو غير ضرورى ، لحبه الشهوات ذلك أن بعضهم يغضب إذا قيل له أنت لا تحسن اللعب بالنرد (الطاولة) مثلا أو لا تقدر على شرب الخمر الكثير ...

٣ ـ ما هو ضرورى عند بعض الناس دون البعض . وذلك مثل الكتب عند العالم فيغضب لحرقها ، أو أدوات الصانع فيغضب لسلبها ...

علاج الغضب :

الرياضة النفسية وسيلة لتخفيف الغضب إلى ما هو ضرورى ، أو اضعافه لحد الاعتدال وليس مقصوداً بالرياضة محوه واعدامه وانما المقصود منها عدم اطاعة الغضب عملا بالشرع ، وبما يستحسنه العقل ، وذلك ممكن التحقق بالمجاهدة، وتكلف الحلم حتى يصير الحلم طبعا راسخا ، وخلقا دائما (١) ...

أما قمع الغضب واستئصاله فهو ليس من الممكن ، لأنه ضرورى فى حق كل شخص، وانما الرياضة تمنع الغيظ وتضعف الغضب وهيجانه فى الغاضب ..

---

(١) الأحياء الجزء التاسع مطابع الشعب ص ١٦٤ وما بعدها .

أما ما هو ليس بضرورى من الغضب فيمكن عن طريق الرياضة النفسية اخراجه من القلب ، وذلك بتذكير الانسان أن وطنه القبر وانه مستقره الأخير، وأن الدنيا لهو وعبث فيزهد فيها ، ويمحو حبها من قلبه ، وإذا كان للانسان كلب لا يحبه . . فانه لا يغضب لضربه فالغضب يتبع الحب ...

والغضب إذا كان لله . . فهو محمود ، وإذا كان لغيره فهو مذموم ، والمؤمن يغضب لنصرة دينه ، إذا خرق أحد حدا من حدود الله ، كما يغضب النسر إذا أخذوا صيده (١).

ولكن إذا غضب الانسان مدعيا أنه غاضب لله ، وهو غاضب لنفسه كان منافقا . . فالغضب لله يبقى ويزداد ويستمر ، أما لغير الله فيتغير ويزول . .

« فرجع موسى إلى قومه غضبان آسفا » (طه : ٨٦)

وينبهنا الرسول ﷺ أن الرجل الشديد هو الذى يستطيع أن يكظم غيظه ، ويملك زمام نفسه الثائرة ، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا بمجاهدة النفس ومخالفة أهوائها ـ يقول الرسول ﷺ :

« ليس الشديد ، بالصرعة ، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » (٢).

---

(١) سيدى عبد القادر الجيلانى — الفتح الربانى ص ١٠٩ — ١١٠ .

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة .

الفصل الثالث

الغفلة والنسيان

يرى فرويد أننا ننسى ما لا نريد أن نتذكره .. وما لا نهتم به ، وما هو مصطبغ بصبغة وجدانية غير سارة (١) .

ويعتبر النسيان عند بعض علماء النفس .. اخفاق تام فى الاسترجاع حتى ولو توافرت جميع الظروف التى يجب أن تسترجع فيها الذكريات عادة ، وقد أجريت تجارب فى موضوع النسيان أدت إلى نتائج منها :

١ ـ أن بين الناس فروقا من حيث قدرتهم على الوعى ومن جهة سرعة نسيانهم ما قد تعلموه .

٢ ـ أن مراعاة شروط التحصيل الجيد .. هو أمان من النسيان إلى حد كبير .

٣ ـ دلت بعض التجارب على أن النسيان يكون فى أول الأمر سريعا ، أى بعد التحصيل مباشرة . . ثم يأخذ فى التباطؤ تدريجيا بمضى الزمن حتى يصبح فى النهاية بطيئا جدا .

ومعنى ذلك أن النسيان له علاقة بمرور الزمن ، كما أن له علاقة بالاهتمام بما يحدث كما يؤكد بعض علماء النفس أن الاسراف فى تعاطى المواد المخدرة يؤدى إلى النسيان ، وكذلك فان كبت الدوافع تساعد على النسيان باعتبارها عجز عن إسترجاع ماتم تحصيله . . .

---

(١) د . عزت راجح ـ أصول علم النفس ص : ٢١٩ طبعة ٦٩

ويخلص علماء النفس الحديث إلى أن النسيان راجع إلى الاهتمامات الزائدة وليس راجعا إلى عدم الاهتمام ... فالنسيان فى رأيهم ليس عملية سلبية ، بل هو عملية ناشئة عن تداخل أوجه النشاط المختلفة .. ولذلك ينصح أصحاب هـــذه النظرية بوجوب التريث فترة من الزمن فى تحصيل موضوع ما ، وعدم المبادرة بتحصيل موضوع جديد غيره .. حتى لا يتلف أحدهما أثر الآخر ، كما ينصحون بالاسترخاء .. أو النوم فترة من الزمن كوسيلة لاسترجاع ماتم تحصيله .

ويعتقد هؤلاء العلماء أن الوعى الجيد لا يضمن الاسترجاع الجيد ، إذ أن هناك عوامل تعوق الفرد عن الاسترجاع .. كالخوف من الاستهجان ، والخجل من حادثة الفتاة ، والصدمات الانفعالية ، والتداخل .. كأن يتذكر اسم شخص معين .. فتتداخل أسمــــاء أخرى ، فيستعصى استرجاع الاسم المطلوب ، أو أن تعـــترض الخطيب طريقتـــان فى التعبير عن نفس الفكرة ، فيتردد ويختلط عليه الأمر .

ويستخدم علماء النفس طرقا عديدة للتخلص من النسيان منها :

١ ـ الاسترخاء وعدم بذل الجهد ... كأن يترك الموضوع الذى يريد تذكره فترة معينة ، وموضوع آخر ، فاذا به يتذكر بعد أن يتضجع ... أو يسترخى .. ليتذكر كل ما يطرأ على ذهنه .

٢ ـ ما يسمى باكتمال الملابسات ، كأن يؤخذ الشاهد إلى مكان الجريمة ليتذكر ماقد نساه ، لأن وجود المرء فى نفس المجـــال السلوكى يساعد على استرجاع الذكريات .

٣ ـ التنويم المغناطيسى .. وهـذه وسيلة بها يتذكر الانسان حياته الطفلية ، وقد قام بعض العلماء بتجارب على بعض الأطفال ، وكانت من نتائجها أن الاطفال

استطاعوا أن يصفوا الأحداث وصفا واضحا وكاملا وصحيحا .

٤ ـ طريقة النظر فى بلورة ، إذ ثبت أن النظر فى بلورة من الزجاج يساعد على استرجاع الخواطر .. بل قد يرى بعضهم صورا وهمية ، ولا يعرف أنها جزء من خبرته السابقة .

وقد دلت التجارب العملية على أن الذكريات المؤلمة أعصى على الاسترجاع من الذكريات التى لا يهتم بها المرء ، فقد طلب من مجموعة من طلبة الجامعة أن يتذكروا بعض الذكريات السارة (١) ، فوجد أنهم تذكروا نسبة ٥٤،٤ ٪ من الذكريات السارة ، وأعيدت التجربة على نفس الطلبة على أن يسترجعوا الخبرات الغير سارة ، فكانت نسبة الاسترجاع ٤٣،٤ ٪ ، وكان الفرق هو ١١ ٪ ....

ومعنى ذلك أن الانسان يستطيع أن يسترجع الخبرات السارة أكثر من الخبرات المؤلمة ...!!

ويزعم فرويد (٢) أن النسيان ... أو فقد الذاكرة .. ليس اختفاء حقيقيا لانطباعات الطفولة ، وإنما هو أشبه بفقدان الذاكرة لدى العصابيين ، أى هو عبارة عن محو ذكريات أحداث طرأت فى عهد متقدم أى أن النسيان نوع من الكبت للأحداث .

ونحن نرى أن هذه التجارب إذا أدت إلى بعض النجاحات ، فهى مجرد

---

(١) أصول علم النفس : ٢١٩ وما بعدها .

(٢) سيجموند فرويد ـ الموجز فى التحليل النفسى ص : ١٠٣ ترجمة د . سامى محمود على .

فروض أو استنتاجات غير محققة . فلا يعقل أن يكون النسيان السبب المباشر الإهتمام الزائد بالموضوع ، أو أن الغفلة لا علاقة لها بالوعى والرشد ..

لقد ربط علماء النفس النسيان والغفلة بالتحصيل والحفظ ، لكنهم لم يهتموا بنوعية العلم المتحصل ... هل هو صالح للانسان ... وهل النسيان المقصود خاص بموضوعات محققة الكمالات الأخلاقية أم موضوعات مؤدية إلى الأباطيل والأوهام وغلبة الأهواء ..؟

إن علم النفس الاسلامى يعالج موضوع الغفلة والنسيان من قاعدة أكثر شمولية ... فينظر للانسان كوحدة .. ولا يركز على الذاكرة أو الحافظة . أو الوعى فحسب . أنما ينظر إلى النفس الانسانية فى غفلتها ويقظتها .. كما أوحى الله لبعض أنبيائه :

« إنى آليت على نفسى أن من ذكرنى .. أذكره ، فاذا ذكرونى بوصف الغفلة ... أذكرهم بالغضب عليهم » (١) .

وهذا تنبيه .. بل وزجر عظيم للغافلين ، كى يحافظوا على أوصاف العبودية ، أى يراقبوا الله فى أعمالهم .. ويشكروه على ما أسبغ عليهم من النعم ... فلا يغفلوا أو يتغافلوا ..

وآية الذاكر أن لا تميل نفسه إلى هوى ... انما حركاته ... وسكناته لله ... ومن الله .. وفى الله ..

فيرى علم النفس الاسلامى أن الغفلة باب للنسيان الحق ، ومنبع للأنانية ، والشره ، وقسوة القلب .. وأنه من طول استحواذ الغفلة على الإنسان يأتى

---

(١) الشيخ أبو بكر بنانى — مدارج السلوك ص : ٩٩ ، ١٠٠ .

النفاق .. والكذب .. وأباطيل الشيطان ،وثمرة الغفلة الخيانة ..وغلبة الأهواء .. لقوله تعالى :

« استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله » (المجادلة : ١٩)

وفى الخبر أن آدم استوحش كلام الملائكة فقال : «يارب .. لمَ لا أسمع كلام الملائكة ، فجاء الرد :

« خطيئتك .. يا آدم »(١) .

فاذا زادت الغفلة .. غلب على الطبع النسيان ، وكان البعد وقسوة القلب ، لأن الله وضع مقدارا محددا للذنوب إذا تجاوزه الانسان طبع على قلبه .. فلا يوفق إلى الخير أبدا ، وإذا غفل الانسان ونسى ، فان الله لا يغفل ولا ينسى ..

« وما الله بغافل عما تعملون » (البقرة : ٨٥)

ولقد قسم سيدنا على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — الشرك بالله إلى أربعة مقامات ... الشك ... والجفاء ... والعمى ... والغفلة ... فاذا زادت الغفلة فى القلب ، ضعف استلهام الإنسان الحقائق ، فلا يسمع ولا يرى :

« والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات » (الانعام: ٣٩)

وعدم رؤى وسماع خاطر الحق ،يبعد الإنسان عن الخير والرحمة فينقاد بذلك إلى الأهواء ويقع فى التهلكة والضلال والظلمة :

« والظالمون مالهم من ولى ولا نصير » (الشورى : ٨)

« ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » (الأعراف :١٤٦)

---

(١) الأمام أبو طالب المكى ـ قوت القلوب ج ١ ص : ١٨١

والغافل ينسب جميع الأفعال والأعمال إلى نفسه تكبرا وغرورا ، وينسى أن هناك خالقا مدبرا فيرجع إلى نفسه كل توفيق ونجاح ويصيح زهوا واستعلاء .. ماذا أفعل اليوم ؟ .. وينسى أن الله هو الفاعل على الدوام ، وأن العبد مهما ينجح ويوفق مفتقر إلى الحق تعالى على الاستمرار ، لأن كل فعل وأمر بمشيئته تعالى .. والناسي لله .. ينساه تعالى لقوله:

« نسوا الله فنسيهم ، إن المنافقين هم الفاسقون » (التوبة : ٦٧)

أما العاقل ، فلا ينسى الحق تعالى ، ولا يغفل عنه ، كما أن كل مايجول بخاطره يرجعه اليه ، فيقول : ماذا يفعل الله اليوم بى ؟ .. فهو عبد ذاكر له ، موافق لقضائه ، يدفع عن نفسه غوائل الشيطان التى هى الغفلة والنسيان ، بدوام التفكر وذكر الله عملا بقوله تعالى :

« واذكر ربك إذا نسيت » (الكهف : ٢٤)

والخاطر الشيطانى يغوى الإنسان ويدفعه إلى الانحراف والميل به عن جادة الحق وعن سبيل الرشاد والسواء ، بل أنه يورده مورد التهلكة ، وأما الخاطر الملائكى فانه يوثق العبد بالله ، فيوفقه ويرشده ويبشره بالأمن والأمل والسكينة، ولذلك فان الآيات القرآنية الكريمة تحث الانسان دوما على البعد عن الغفلة والنسيان ، لانهما طريقا الضلال والإنحراف لقوله تعالى :

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه » (الكهف :٢٨)

« قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى » (طه : ١٢٦)

والتمييز بين العبد الغافل والعبد العاقل ، أنما يظهر فى القدرة على استخدام الميزان العدل الذى يحكم به على الخواطر الشيطانية والملائكية ، فاذا كان العبد

حكما عرف طريقه إلى التوحيد ، فلا يرى فعلا ولا قولا ولا عملا إلا وينسبه إلى الله تعالى ، ولا يرجــــع إلى نفسه حولا ولا قوة ، وانما يرى ما يراه الله بارادته وحوله وقدرته ..

أما الغافل ، فيزن بميزان حظوظ نفسه ، ويهمل فى حراستها ويرجىء محاسبته لها ، ويؤخر التوبة ، ويترك الاستغفار ولا يقبل على الندم ،وينسى الرعاية لحقوق الله ، فيغلب على القلب الهوى ، والبعد عن الاستقامة ،ويمضى فى طريق الغفلات، وأصل ذلك كله راجع إلى حب النفس ، والانغماس فى شهوات الدنيا .

« وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا »   (الجاثية : ٣٤)

وأفضل السبل لعلاج الغفلة ، انما يكون بالتوبة ، وهى الندم على ما اقترفه الانسان من الذنوب والآثام ، فاذا تاب العبد توبة نصوح :

« فيكشف ماتدعون اليه إن شاء الله وتنسون ما تشركون » (الانعام : ٤١)

كما أنه لكى يصلح العلاج بالتوبة .. لابد أن يبدأ العبد بالاستغفار والاعتذار اليه تعالى ، وهذا باب الهداية ، إذ أن الذى ينقاد إلى حظوظ نفسه ، لا يمكن أن يهتدى إلى الله ، ولذلك يتوجب على الإنسان أن يراقب نفسه دائما ، وينظر إلى ما يشغلها فاذا راجع قلبه ثم وجــــده يرد الأفعال إلى حوله وقوته ، فليعلم أنه سينقطع عن الله ، أما إذا راجع قلبه فوجده مشغولا بالله ، فهو المتصل بالحق تعالى فيقول (١) :

« اللهم وفقنى لمـــا تحبه وترضاه من القول والعمل فى طاعتك ، انك ذو الفضل العظيم » ..

---

(١) الشيخ ابن عطاء الله السكندرى ـ التنوير فى اسقاط التدبير ص : ٧ ـ ٨

ومن هنا نجد اختلافا بينا بين نظرة علماء النفس الحديث ، ونظرة علم النفس الاسلامى .. فنظرة الاسلام إلى الانسان الغـــافل ترتبط بالسلوك الأخلاق فى الدنيا والآخرة ، كما ترتبط بالصدق والاخلاص والطاعة لله جميعا .. وكلما غفل أو تغافل الإنسان .فان ذلك معناه أن الشخص يسير فى طريق الغواية والبعد عن الحق ، والانقياد إلى الشهوات .... لذلك كان التذكير هاما لتجنب الغفلة ، وكان الترهيب وسيلة لرجوعه من غيه ، وكان الترغيب طريقا لتحلية نفسه بكل وصف محمود ، وتزكيتها بالأعمال الصالحة ...

وهكذا يصبح النسيان آفة يجب القضاء عليها لأنه يباعد بين العبد وربه ، بل يجعل بينه وبين الله حجابا كثيفا ،بما يوقعه فى الانحراف والغواية ..بل فى الضلال والضياع .. فلا يعرف طريقه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ..

وبالجملة فان أصحاب القلوب السليمة يخلدون إلى الراحة ،وينعمون بالطمأنينة لقوله تعالى :

« إلا من أتى الله بقلب سليم » (الشعراء : ٨٩)

وما دام الإنسان بعيدا عن الغفلة ، متجنبا الأهواء ، فانه ينعم بلذات عظيمة فى المعانى (١) ... فكما تنعم البطون بلذات الأطعمة ، تنعم القلوب بلذائذ الفكر ، والذى يتذوق هذه اللذات حقا .. من رضى بالله ربا .. فوجد لذات المعانى فى التفويض ، وعدم التدبير مع الله .. فيحيا حيا هنيئة بالرضا مع الله ، ويجد حلاوة ذلك فى قلبه ونفسه وعقله جميعا ...

---

(١) الشيخ ابن عطاء الله السكندرى ـ التنوير فى اسقاط التدبير : ٧ ـ ٨

الفصل الرابع

الوســـاوس

يرى بعض علماء النفس المحدثين أن الوساوس تطلق على فكرة أو مجموعة أفكار تفرض نفسها بالحـــاح على لا شعور المريض ، مخالفة إرادته ورغبات نفسه ، حتى أن المريض النفسى يستطيع أن يتعرف على شذوذ هذه الفكرة ، بل ربما يشكو منها .

فالوسواس بهذا المعنى عند علماء النفس حالة نفسية قهرية تبدو فى صورة فكرة متصلبة أو شعور متسلط أو اندفاع اجبارى للقيام بعمل معين (١)..

ويصف علماء النفس حالة المريض المصاب بالوسواس بأنه تستبد به أفكار وخواطر تلازمه كالظل ، فلا يستطيع منها فكاكا ، مهما بذل من الجهد والطاقة أو حاول اقناع نفسه بالبعد عنها بالعقل والمنطق ، إذ أنها تحاصره وتضيق عليه ، فلا يستطيع أن يتخلص منها بأى صورة مهما حاول اقناع نفسه بفسادها ..

يقول فرويد (٢) : « كان المرضى الذين حللتهم يتمتعون بصحة نفسية جيدة حتى عرضت لحياتهم النفسية حالة لا تطاق ، أى حتى واجه الأنا لديهم خبرة أو تصوراً أو عاطفة أثارت انفعالا من العنف جعل الشخص يقرر نسيانه لأنه فقد الثقة فى قدرته على إزالة التناقض بين التصور المؤلم والأنا ، أى أنه عجز عن دفع هذا التصور عن طريق عمل الفكر ، فعمد إلى أن يتعامل معه وكأنه لم يحدث على

---

(١) د. أحمد عزت راجح — أصول علم النفس ، ص ٢٠٣

(٢) سيجموند فرويد — الموجز فى التحليل النفسى — ترجمة د. سامى محمود ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

الاطلاق ، الأمر الذى ينشأ عنه صراع يؤدى فى النهاية إلى استبعاد هذا التصور من الشعور ، ولما كان ذلك محالا .. لأن هناك انفعالات مرتبطة بهذا التصور بل هناك ذكريات لا يمكن محوها من الذاكرة، لذلك فانه فى حالة العصاب الوسواسى ينفصل الانفعال من الفكرة المؤلمة ، ويستبدل بهـــا فكرة أخرى ليس فيها الطابع المؤلم » ...

فريض الوسواس بهذا المعنى تكتنف نفسه قوى شعورية قهرية كالاحساس بالنقص أو الشعور بالخجل ، أو الاندفاع للقيام بنشاط معين ، أو التلفظ بألفاظ نابية أو جارحة .

ويمثل بعض علماء النفس المحدثين لعصاب الوسواس بأمثلة عديدة كشعور الموسوس أنه لا يقلق لشىء .. أو أنه مريض بمرض معين ، أو أنه سيكون ضحية لحادثة فى الطريق ، أو أنه آثم أو عاجز، كما تنتابه أحيانا مشاعر وحالات وجدانية ، كأن يستبد به الشعور بالخجل ، أو الخوف أو القلق أو الوحدة ...

ويرى بعض علماء النفس أن الفرد الذى يصاب بعصاب الوسواس يرغم على أفعال معينة تكون غالبا ضارة أو سخيفة ، يمكن أن ينفذها عمليا وقت تسلطها أو لا ينفذها ، ويميل علماء النفس إلى اعتبار عصاب الوسواس حيـــلة دفاعية لتخفف مما يعانيه المريض من شعور نفسى بالاثم والذنب ، كأن يغتسل المريض مرارا ، أو يسرف فى تنظيف يديه ، أو أدواته وهذا يقترن عادة بخوف ساذج من التلوث والقذارة ، كما أنهم يرون أن عصاب الوسواس يرتبط بالأفعال التكفيرية التى تتخذ طابعا معيناً ، كأن يعذب المريض نفسه ويعاقب ذاته ، ويرجعون ذلك الشعور إلى أن الوسواسى صاحب ضمير قاس وصارم لا تهدأ شدته إلا إذا عوقب صاحبه عقابا شديدا (١) ..

(١) أصول علم النفس — ص ٢٠٣ وما بعدها .

أى أن المريض يشعر بالذنب ولا يذهب قلقه إلا إذا وقع عليه العقاب ، ويضربون أمثلة بمرضى عصابيين يحرمون أنفسهم من مباهج الحياة ومن الظفر بالنعيم الذى فى متناول أيديهم ، بل يرون أن هناك من العصابيين من يسرف اسرافا شديدا فى إقامة الشعائر والعبادات ، أو يجهد نفسه فى العمل دون جزاء ..

ويتفق كثير من علماء النفس المحدثين على أن الوسواسى يفطن إلى ما يستبد به من وساوس وأمور سخيفة حمقاء ، لكنه لا يملك أن يخالفها ، كأن يشعر الزوج برغبة فى ايذاء زوجته التى يحبها كثيراً ، أو أن يلقى بنفسه من مبنى مرتفع أو يرمى بنفسه فى البحر وهو لا يجيد السباحة . . .

ومريض الوسواس يشعر بشذوذ تصرفاته، بل ويستبصر حالته، وهو بذلك يختلف عن مريض الهذيان الذهنى «الجنون» ، وهذا الاستبصار من الوسواسى دليل على أنه غير مجنون ، الا أنه يقف حيال الضغوط من حوله موقفا سلبيا ، ولو لم يفعل مايؤمر بفعله..اشتد به القلق والضيق ، وكأن عصاب الوسواس - فى رأيهم - هو نوع من المخدرات والمكيفات التى اعتاد المريض على تعاطيها . إذ أن المصابين بهذا المرض يغلب على قلوبهم العناد والحذلقة والتردد والتشاؤم، كما أن بعض هؤلاء المرضى يغلب عليهم المبالغة فى ادعاء الذمة ، والتظاهر بالعلم ، كما ينصب اهتمام بعضهم بالمظهر السلوكى أكثر من اهتمامهم بروح القانون ، ومراعاة الدقة الغريبة أكثر من انجاز عمل خلاق ، وكلها تعد سمات خلقية تسلطية .

وينتهى رأى هؤلاء العلماء إلى أن المرضى بعصاب الوسواس هم قوم فضلاء ، لكنهم غير سعداء ، ويرون أن الخلق الرفيع ليس دليلا على صحة النفس ، إذ أن الوسواسى يبدو أحيانا هادئا مسالما وخجولا، لكنه بركان يغلى من الداخل

فهو فى دخيلة نفسه عنيد يتوق إلى السيطرة والتسلط والعناد ، ويرجعون بعض أمراض الوسوسة إلى الوراثة ويؤكدون أن السمات الوسواسية أنها ترجع إلى أسر الوسواسيين ، بل يحددون ذلك بأن ثلث آباء المرضى وخمس أبنائهم تبدو لديهم أعراض وسواسية . . . (١)

بعد أن عرضنا لموقف علماء النفس المحدثين من الأمراض العصابية الوسواسية، نود فى هذه العجالة مناقشة هذه الآراء . .

يصف علماء النفس الحديث أعراض الوسواسى ، فيزعمون أن الوسوسة قوة قهرية لا يستطيع الانسان منهـا فكاكا مهما بذل من الطاقة ، واستخدم من الطرق لاقناع نفسه بفسادها .. انهم يرون أن الوسواسى يستخدم بعض الحيل الدفاعية الإجبارية للـدفاع عن الذات ضد القوى الغريزية المتسلطة ومنازعة الدامس والشهوات ، ثم ينتهون إلى أن العقاب هو الوسيلة الوحيدة لتعقل الوسواسى ، بل هو الطريق الذى يحل به مشاكله ...

وهم يؤكدون على العزلة والسلبية كطريقين وحيدين يدافع بهما المصاب عن نفسه باعتبارهما رد فعل للأفكار المتسلطة عليه ، والتى لا يستطيع منها فكاكا مهما بذل من الجهد والطاقة ...

ولكننا نتساءل : إلا تفسد العزلة أو السلبية توازن الذات وتدفعهـا إلى الأهواء والتخيلات ، بل إلى الظلمة والهواجس ؟ ... دعنا نرى اذن كيف نظر أئمة الاسلام إلى الوسوسة ...

ينظر أئمة الاسلام إلى الوسوسة على أنها نتاج حديث النفس (٢) ، وأما نيها

---

(١) د. أحمد عزت راجح – الامراض النفسية والعقلية ص : ١٤٢ – ١٥٠

(٢) الأمام السمرقندي ، تنبيه الغافلين ص ٢٠٥ وما بعدها

وأحلامها فى الشهوات والملذات، وتوقد نارها الغفلة ونسيان الحق، ويزيد سعيرها الشيطان ، وذلك بتحسين الأفعال والأعمال ، وما يفتأ يزيد فى لهيبها حتى ينحرف الموسوس إلى الغواية والضلال ويرتكب أفحش الأعمال ويسقط فى النهاية صريع الفتنة وثقل الأمراض ، وإذا اعتاد الإنسان على الغفلة أصبحت الوسوسة طبعه الغالب . واستمرأ ذلك الطريق الذى لا يملك منه هروبا .

ويعالج علم النفس الاسلامى مرض الوسواس بغير الطرق المستخدمة فى علم النفس الحديث ، فالأصل فى الوسواس عند الأئمة أنه شيطان رجيم يدخل إلى صدر العبد الذى يوسوس له .فاذا ذكر الله خنس الشيطان وخرج من صدره . .

والشيطان يزين للعبد طريق الضلالات ويحسن له سبل العصيان ويخدعه بوسوسته ، إلا أنه لا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك لقوله تعالى :

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه » (ق : ١٦)

ويستطيع العبد أن يجتهد فى دفع وسوسة الشيطان عن نفسه وذلك بمخالفته، والابتعاد عنه ، لأنه عدوه اللدود ، كما ورد فى قوله تعالى :

« إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا » (فاطر: ٦)

والعاقل (١) يعرف عدوه من صديقه ، فيطيع صديقه ، ولا يتبع عدوه ، أما الجاهل فيتبع الشيطان . لأن الجاهل له أوصاف أربعة :

١ ـ الغضب بغـــير سبب ٢ ـ اتباع الباطل ، ٣ ـ انفاق المال بغير حق ، ٤ ـ قلة معرفة صديقه من عدوه . . .

(١) الإمام السمرقندى ـ تنبيه الغافلين ص : ٢٠٥

لذلك فهو يختار طاعة الشيطان ، وهذا هو طبع الجاهلين ، تصديقا لقوله تعالى عن الشيطان :

« أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو » (الكهف : ٥٠)

أما العاقل ، فله أربع علامات ، ١ ـ الحلم ، ٢ ـ رد النفس عن الباطل ، ٣ ـ انفاق المال فى الحق ، ٤ ـ معرفة الصديق من العدو ...

ويروى لنا صاحب تنبيه الغافلين (١) .. أن الشيطان قابل سيدنا يحيى بن زكريا عليهما السلام ـ فقال له يحيى : « أخبرنى عن طبائع بنى آدم » فقال ابليس : « هم ثلاثة أصناف » : صنف منهم مثلك ... معصومون لا نقدر لهم على شىء ، وصنف منهم فى أيدينا كالكرة فى أيدى الصبيان ، وأما الصنف الثالث فاننا نقبل على أحدهم حتى نغريه وندرك حاجتنا منه ثم ما يلبث أن يستغفر الله فيفسد علينا ما أدركنا منه فلا نحن فى يأس منه ، ولا نحن ندرك حاجتنا منه»...

وهناك موعظة (٢) تبين كيف يستخدم إبليس وأصحابه مكائدهم وحيلهم فى الإيقاع بالناس وفتنهم :

« كان هناك رجلا متعبدا يأتيه الناس بمرضاهم فيدعو لهم ويستبشرون به ، فيبرأ كثير من المرضى ـــ باذن الله ـــ على يديه فاغتاظ إبليس منه واجتمع مع الشياطين وقال لهم : من يفتن هـذا العابد الذى لم تفلح معه حيلة من الحيل لغوايته . فقال أحدهم : أنا أفتنه ... فان لم أستطع فلست من حزبك ...

فقال إبليس : إنه لك ...

فانطلق الشيطان حتى أتى منزل ملك من الملوك له ابنة غاية فى الجمال والحسن،

---

(١) الامام السمرقندى ـ تنبيه الغافلين ص : ٢٠٥

(٢) المرجع السابق ص : ٣١٦ ـ ٣١٧

وكانت جالسة مع أهلها فأفزعها وأطار عقلها ، فصارت كالمجنونة ، وحار الملك في علاجها ، وحزن حزناً شديداً ، فأتاه الشيطان بعد أيام في صورة إنسان ، وقال له : إذا أردت أن تشفى ابنتك فاذهب بها إلى فلان العابد ... يعالجها ويدعو لها ، فهو خير طبيب للنفوس ...

عند ذلك (١) ذهبوا بها فبرأت من مرضها ، ثم عاودها المرض ثانيا ... فجاء الشيطان وقال للملك : إذا أردت أن تبرأ ابنتك تماما فاستبقها عند العابد أياما ... فلما ذهبوا اليه رفضها العابد في أول الأمر ، ثم ألحوا عليه وتركوها عنده ...

وكان العابد دائم الصيام ، كثير التهجد ، فلم يستطع الشيطان أن يغويه ، إلا أن الشيطان كان يتحين الفرص ، وخاصة عندما يقوم العابد إلى طعامه فيكشف له الشيطان عن جمال الفتاة ويوسوس لها ، فتراوده عن نفسه ، فيعرض العابد عنها ، حتى غفل مرة ونسى ، فنظر إلى جمالها فرأى جسداً رائعاً لم ير مثله أبدا ، فلم يستطع أن يصبر ، فاقترب منها حتى ضعف فأغوته فجامعها فحملت منه ...

فجاءه الشيطان وقال له : إنك قد فعلت فعلتك هذه ، وإن ينجيك مما صنعت إلا أن تقتلها وتدفنها عند صومعتك ، فاذا أتاك الملك وسألك عنها فقل : أتى أجلها فماتت ، وسوف يصدقك الملك لما له من الثقة بك وبخلقك ، فقام العابد إلى الفتاة فذبحها ودفنها ، فلما سئل عنها أخبرهم أنها ماتت ، فصدقوه ...

ولما رجع أهلها ... جاء اليهم الشيطان وقال : إن العابد قد كذب فقد زنا بابنتكم .. وحملت منه .. فلما خاف أن يكشف أمره ذبحها ودفنها ، وانطلق الملك

(١) الإمام السمرقندي ـ تنبيه الغافلين ص ١٣٧

مع حاشيته فحفر فى المكان الذى دله عليه الشيطان ، فوجد ابنته مذبوحة ، فأمسك بالعابد وصلبه ، فجاءه الشيطان وهو مصلوب وقال له : أنا الذى فعلت بك كل هذا ، وأنا قادر أن أنجيك من هذه المحنة ، وذلك بأن أدعى أن الذى ذبحها غيرك كما أنهم سوف يصدقوننى ، ولكن لى شرط واحد ، هو أن تسجد لى سجدة من دون الله ، فقال العابد : كيف يتسنى لى أن أسجد لك وأنا على هذا الحال ، فقال الشيطان : يكفينى أن تومىء برأسك ... فسجد له العابد سجدة ، فقال الشيطان قول الله تعالى :

« إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك . إنى أخاف الله رب العالمين » (الحشر : ١٦)

ويكشف لنا الامام السمرقندى (١) عن مكائد الشيطان ويبين لنا أنه يأتى للانسان من عشرة أبواب :

الباب الأول :

يقبل الشيطان على الإنسان فى صورة الحرص وسوء الظن ، فاذا قابله الإنسان بالثقة فى الله والقناعة به تعالى ، ورده مستعينا بقول عز من قائل :

« وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » (هود : ٦)

ينحسر الشيطان عندما يجد العبد يحسن الظن بالله ويثق فى منته وعطاياه وفضله ، فيهرب الشيطان من هذا العبد القانع الشاكر ..

الباب الثانى :

يأتى الشيطان أحيانا إلى الإنسان من باب الحياة الدنيا ، وزينتها وطول

---

(١) الامام السمرقندي ـ تنبيه الغافلين ص : ٢٠٥

الأمل فيها ، فاذا قابله الإنسان بالزهد فيهـا والخوف من الله ، ودفعه بقوله أن الدنيا قصيرة مها طالت وأن الموت آت لا ريب فيه ، وهنا يرتد الشيطان خاسئا عندما يذكر العبد الموت ويتلو الآية الكريمة :

« وما تدري نفس بأى أرض تموت » (لقمان : ٣٤)

وعندما يسمع الشيطان هذه الآية يعلم أنه لا يستطيع أن يغوي هذا العبد فيهرب ...

البـاب الثالث :

يأتى الشيطان من ناحية طلب الراحة والاستجمام والميل للأيسر ، والرغبة فى التنعم (١) ، فاذا ما صدق الإنسان نفسه وخالف هواهـا ، وذلك بطول المجاهدة والزهد فى النعم وتذكر عاقبة الخمول والتبطل والتنعم ، وسوء العاقبة ، وعمل بقوله تعالى :

« ذرهم يأ كلوا ويتمتعوا » (الحجر : ٣)

« أفرأيت إن متعناهم سنين » (الشعراء : ٢٠٥)

انحسر الشيطان ، وكسرت شهوته ، وابتعد عن العبد وهرب منه ...

البـاب الرابع :

أحيانا يوسوس الشيطـان للإنسان من باب التعجب والغرور ، فيحسن له عمله ويزين له المعاصى ، وهنا يتوجب على العبد الصادق أن يقابل الشيطان بخوف العاقبة ويصده مستعينا بقوله تعالى :

---

(١) تنبيه الغافلين ص ٢٠٥ وما بعدها .

« فمنهم شقى وسعيد » (هود ١٠٥)

وهنا ينكسر الشيطان ولا يستطيع ان يأتى إلى العبد فى هذه الصورة من ذلك الباب ...

الباب الخامس :

يدخل الشيطان أحيانا موسوساً فى صدر العبد من باب الإستهزاء والإستخفاف ، بل والتعالى على الاخوان وعلى العبد أن يصده ، وذلك بالقيام بواجباته نحو أخوته فى الدين ومعرفة حقوقهم عليه وحفظ حرماتهم ، وبتقوى الله ويستعين بقول عز من قائل :

« ولله العزة ولرسوله والمؤمنين » (المنافقون : ٨)

وبذلك ينكسر الشيطان ويبتعد عن وسوسته من هذا الباب .

الباب السادس :

يأتى الشيطان إلى الإنسان من باب الحسد والحقد على غيره من الناس ، ويجب أن يتقوى العبد من هذه الغواية ، ويقابل الشيطان بالعدل وقسمة الله التى قسمها على عباده ، كما يجب أن يرد وسوسة الشيطان مستعينا بقوله تعالى :

« نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا » (الزخرف : ٣٢)

وهنا ينهزم الشيطان وينكسر ويهرب من العبد ولا يأتيه من هذا الباب .

الباب السابع :

يدخل الشيطان أحيانا من باب الرياء ، وهو نوع من الشرك الخفى، فيحسن العبد أعماله ، ويمتدح أفعاله ، ويشكره على احسانه ، ويثنى على أخلاقه ، وهذا الباب باب خطير إذا لم يغلقه العبد بالاخلاص ، ويرد على الشيطان بالإيثار

والتواضع ومخالفة الأهواء والحظوظ ، وقع فى غواية ابليس اللعين ، ولذلك يتوجب أن يرد العبد هذا الوسواس بقول عز من قائل :

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحداً »
(الكهف : ١١٠)

فاذا رد العبد على الشيطان بأنه مخلص لله على الدوام طائع له على الإستمرار متبعاً شريعته التى شرعها لعباده من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتخلق بأخلاقه تعالى مسرعا إلى اعمال البر ، إنكسرت شوكة الشيطان ولم يستطع أن يغوى الإنسان.. وابتعد عنه ولا يرجع اليه من هذا الباب ..

الباب الثامن :

يأتى الشيطان أحيانا من باب البخل ، والبخل جبلة فى الإنسان فطر عليها ، وهوى من أهواء النفس تنزع اليه . فاذا لم يخالف العبد وسوسة الشيطان ، فى هذا الباب انتصر عليه وأغواه ، لذلك يتوجب على العبد أن يقابل الشيطان الذى يوسوس له بالشح والبخل ، بأن يقول : كل ما فى يد الخلق فان .. وما عند الله باق ، أى عليه أن يتقوى ضد الشيطان مستعيناً بقوله تعالى :

« وما عند الله باق » (النحل : ٩٦)

وهنا ينكسر الشيطان ولا يستطيع إلى صدر العبد نفاذا ، ويرجع خاسراً مدحوراً ...

الباب التاسع :

يدخل الشيطان موسوساً إلى العبد من باب الكبر ، وهو آفة مذمومة ، وعلى العبد أن يقاوم الشيطان بالتواضع ، ويعلم أنه عبد مخلوق لله ، وأن الله هو

الكامل على الحقيقة ، ويتذكر قول الله تعالى :

« إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (الحجرات : ١٣)

وهنا تنكسر شوكة الشيطان ، ولا يستطيع أن ينفذ بالوسوسة للعبد من هذا الباب ...

الباب العاشر :

يدخل الشيطـــان إلى صدور العبد موسوساً له من باب الطمع ، وعلى العبد الصادق أن يصده باليأس فى الدنيا والثقة فى الله ، أى اليـــأس فيما عند الناس ، والثقة فيما عند الله ، ويتقوى بالله تعالى ويصد الشيطان بقول عز من قائل :

« ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » (الطلاق : ٢)

وهنا ييأس الشيطـــان من هذا العبد ، ويهرب منه ولا يرجع لغوايته من هذا الباب .

هذه هى الأبواب التى يأتى منها الشيطان ليوسوس فى صدور النـاس ، كما يتأيد ذلك فى الآية الكريمة :

« قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس » (النـاس)

والوسوسة بهذا المعنى تحتاج فى ردها إلى الاستعاذة بالله من الشيطان الذى لا يفتأ يعاود منازعة الإنسان إلى التشكيك فى دينه ، ويزين له قبح أمره ، ويحسن له سوء أفعاله ، بل ويأتيه من جهة الدين والطاعات ليفسدها عليه ، ويأتيه من شماله ، ومن جهة المعاصى ليحسنها له ويأمره بالفحشاء والمنكر ، وفى ذلك يقول

الله تعالى :

« الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا »
(البقرة : ٢٦٨)

ولكن الوسوسة ليست فقط من الشيطان فحسب ، فهناك أعداء للمؤمن من غير الشيطان ، كما ورد ذلك عن الرسول - ﷺ - من حديث أنس بن مالك(١) :

(قال الرسول - ﷺ - : للمؤمن خمس أعداء ...

١ - مؤمن يحسده
٢ - منافق يغلبه
٣ - عدو يقاتله .
٤ - شيطان يضله
٥ - نفس تغويه

---

(١) ورد في حديث آخر عن ابن عباس قوله - صلى الله عليه وسلم - للمؤمن أربعة أعداء .. مؤمن يحسده ، ومنافق يبغضه ، وشيطان يضله ، وكافر يقاتله » ذكره الديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة ويرى السيوطي أن هذا الحديث ضعيف ...

الفصل الخامس

اليأس والقنوط

اليأس هو إنقطاع الأمل والرجاء ، والوصف من اليأس — يائس — ويقال أن من كثر يأسه فهو يئوس لقوله تعالى :

« وإذا مسه الشر كان يئوسا » (الإسراء : ٨٣)

واليأس أعلى درجات القنوط .. والقنوط إنقطاع الأمل فى الخير ، أو اليأس منه ، فيقال رجل قانط .. وإمرأة قانطة ، وفى هذا المعنى ورد قوله تعالى :

« ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » (الحجر : ٥٦)

« قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله »

(الزمر : ٥٣)

اليأس صفة لازمة .. دائمة للمشرك والكافر عند تجربته بالفاجعات وإمتحانه بالمصائب ، وإختباره بنقص فى الأموال والأملاك ، لأنه يظن أن الأحداث يجب أن تسير وفق هواه ، فإذا جاءت بخلاف ما يهواه ، ضاق وتبرم ويأس من رحمة الله ، ونعم الله ، وفضل الله .

وكذلك القانط ، شديد اليأس فى الخير والبركة والهدى :

« وإن مسه الشر فيئوس قنوط » (فصلت : ٤٩)

إذن سليم القلب لا ييأس ، ولا يقنط من روح الله . لأنه يعلم أن الله يختبره بشتى أنواع الإبتلاءات ، ويختبره ليعلم هل هو مؤمن حقا أم مراء ... فاذا إتجه إلى الله وعلم أن لا ملجأ إلا اليه ، وضاقت عليه الدنيا بما رحبت .. جاءت رحمة الله ، فتاب عليه من الهم والغم ، وبشره بالنجم :

« ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب إلى الله متابا »

(الفرقان : ٧١)

« ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » (النحل : ١٠٢)

الله يجرب عباده ويختبرهم ، فنهم من يصبر ويتق ويحسن ومنهم من ييأس ويقنط ويكفر ليمضى إلى الضياع ، ويقع فى الإنحراف ، ويهوى إلى الضلال ، ويصبح صدره ضيقاً حرجاً :

« ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً »

(الانعام : ١٢٥)

فاذا جرب القانط فى إمتحان أو إختبار أو إبتلاء ،إنهار ولم يتحمل وسقط وفقد ثقته فى نفسه التى يعبدها ، وشيطانه الذى يؤلهه :

« ولإن أذقنا الإنسان منا رحمة ، ثم نزعناها منه أنه ليئوس كفور »

(هود : ٩)

أما إذا تاب وأناب ، كشف الله عنه الغمة ، ورفع عنه القنوط وفتح له باب الرحمة .. وأغلق عنه باب المذلة :

« وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا » (التوبة : ١١٨)

ويبدو على اليائس القانط الخمول والتبطل والبلادة، ونقص شديد فى النشاط والحيوية ، فلا يتكلم كأنه أبكم ، ولا يجيب كأنه أصم ولا يبذل جهدا فى عمل شيء من الاشياء ، إذ يسلط عليه الخوف الدائم ، والرعب القائم .

« سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله »

(آل عمران : ١٥١)

قد يصرخ اليائس أحيانا بلا سبب واضح ، أو يعتــــدى على الآخرين ، أو يلطم على وجهه أو يؤذى نفسه ، كل ذلك ناتج من هلاوس باطنية ، واضطرابات داخلية وخوف وفزع ورعب ...

وقد ينسحب اليائس من الجماعة ، ويتقوقع مع نفسه ، ويبتعد عن الاصحاب ويرتاب فى الناس ، ويقطع كل صلة بغيره ، ويحيا فى عالم من الخيالات والاوهام حتى أنه يعتقد أن كل شيء وهم ، وكأنه يحاط بعالم من الاشباح كما يتخيل صوراً خيالية ، ولا يصدق واقع ، ولا يثق فى أحد .

« فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين »

(الاعراف : ٩١)

واليائس بهذا المعنى تتبلد حركته ، ويخمد جسمه ، وتسود الدنيا فى عينيه ، وتكتنفه الوساوس ، ويسحقه القلق ، ويحتويه شعور أليم بالذنب ، وإدانه شديدة للنفس ، يحيا فى الماضى ، ويعتقد أنه هو السبب فى موت إبنه .. أو قتل جاره .. فيصيح أحيانا صارخا، ويتهم نفسه بشتى أنواع الاتهامات ...

وأحيانا يوجه يأسه إلى العالم الخارجى أو إلى نفسه .. فيقدم على الانتحار ، وتظهر هذه الانفعالات فى صور مختلفة ، وليس لها من سبب ظاهر .

يقول ربيع بن أنس(١) :

« إن البعوضة تحيا ما جاعت ، فإذا شبعت ... سمنت،وإذا سمنت ... ماتت وكذلك ابن آدم ، إذا إمتلأ من الدنيا مات قلبه »

لذلك يربى الصوفية أنفسهم بالرياضات ، خوفا من الوقوع فى البعد والغفلات ، لان الذى ينشغل بهوى نفسه وتحقيق طلباتها ،وموافقتها فى شهواتها لا يتحمل العوائق ، ولا يقدر على الصبر فى اختبار أو امتحان ..

والقانط لا يقدر على تحمل صدمة من الصدمات ، أومصيبةمن المصائب لانه عود نفسه على اشباعها بما تحتاج اليه ، دون التوفيق فيما يعمله ، ولم يأخذ نفسه بالرياضة والتربية ، حتى يقـــوى عزمه وتشتد همته ... لذا فهو فريسة سهلة للامراض والآفات .

أما الذى ينظر الى الدنيا كدار فناء ، وينظر الى الآخرة كدار بقاء، لا يمكن أن ييأس أو يقنط من رحمة الله .

---

(١) الامام الشعرانى ـ تنبيه المغترين ص ٥٤

الفصل السادس

الطمـــع

تميل النفس الانسانية بطبيعتها إلى الطمع الكاذب ، وتصديق الأمور الوهمية التى تستحوذ عليها ، والتى تقودها إلى عالم متوهم .. فتحيا حياة خالية من كل حق وصدق .. لأنها تتبع الظن، وتنزع إلى الهوى الذى هو دليل الانحراف لأنه ضد الفطره السليمة :

« إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس » (النجم : ٢٣)

ولذلك فان العارفين بالله يدأبون على التخلص من الطمع الكاذب وتصديق الظنون ، وموافقة الأوهام الفارغة ، فيرون أنها طمع فى غير مطمع، وأصحاب الحق يجتهدون فى أن تكون هممهم مع الحق .. بعيدة عن الأوهام والأمانى الكاذبة ، فلا يلجأون إلا إلى الله .. ولا يتوكلون إلا عليه .. وقد انعقدت قلوبهم معه تعالى فلا يحل بهم طمع متوهم .. ولا أمانى كاذبة .

لذلك فانهم يختارون حياة القناعة خوفا من الانحراف إلى هوى النفس الأمارة التى تقودهم إلى الضلالات والآلام الخيالية الكاذبة .

فاذا تخلص الانسان من الطمع .. فرغ قلبه لله ، فلا تشغله الشهوات ، إذ الشهوات أطماع لا تشبع ، فهى عبودية للمادة الصماء . .

وإذا تزهد الإنسان وقنع ، عاش حياة الحرية ، وامتلأ قلبه بها ، فتحرر من كل شىء ولم تعد الدنيا وزخارفها الزائفة تشغل قلبه ، ولم تعد الآمال والأطماع المتوهمة .. يجد فيها لذته .. إذ يرى لذاته الحقة فى القناعة مع الله .. وهى تحرر خالص من شوائب المادة .

يقول الشاعر الصوفي :

العبد حر إن قنع والحر عبـــد إن طمع
فاقنـــع ولا تطمع فلا شيء يشين سوى الطمع

العبودية المقصودة هنا عبودية النفس والشهوة والطمع جميعا ، أما الحرية فتحرر من الطمع ، واقبال على القناعة بالله فهى دليل الحب الالهى ..

والعبودية هنا دليل حب النفس المنحرفة .. إذ أن الطمع محركها .. والهوى غايتها ..

أما العبودية الحقة .. فهى المتوجهة دوما للحق تعالى العاملة له على الحقيقة .. العارفة بمقامها على الاستمرار ، السائرة فى رحابه على الدوام .. لا تطمع إلا فى رحمته ، ولا تقنع إلا بقربته ..

« نعم العبد إنه أواب » (ص : ٣٠)

« قال انى عبد الله أتانى الكتاب وجعلنى نبيا » (مريم : ٣٠)

القناعة إذن طريق إلى الله ، والطمع باب الأمانى المتوهمة ، والآمال الباطلة، والظنون الكاذبة ..

والقلب السليم لا يقبل على الطمع ، وإنما يقبل بكامل حريته على الله .. لأنه يعرف أنه المحسن على الدوام .. السخى على الاستمرار وهو موقن من قوله تعالى:

« ان كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا » (مريم : ٩٣)

أما القلب المريض ، فيتعلق بأحبال واهية ، فى عالم متوهم فيختـــار الأدنى المتهالك .. ويترك الخير الدائم ..

إلا أن هناك نوع من الطمع المحمود ، هو طمع فى عفو الله وتجاوزه تعالى

عن السيئات ، وعما اقترفت العبد من الهفوات عندما يأتى يوم الحساب ، وهو طمع المؤمن الصادق فى الله الرحيم القادر كما فى قوله تعالى :

« والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » (الشعراء : ٨٢)

« تتجافى جنوبهم فى المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا »
(السجدة : ١٦)

« انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين »
(الشعراء : ٥١)

الفصل السابع

الغرور

من الأمراض التي قل أن يعصم منها الإنسان ... الغرور ، وهو آفة خطيرة تصيب المؤمن والكافر على السواء (١) ، وغرور الكافر ينحصر في قسمين(٢):

١ - الاغترار بالدنيا .

وهو إعتقاد الإنسان أن الدنيا هي كل شيء بالنسبة له ، فهي الغاية والوسيلة والأمل والقصد ... فيحسب عن جهل أن لذاتها دائمة ... وشهواتها يقينية ...

والمغرور يعتقد عن فساد في طبعه ، وبعد عن الفطرة السليمة ، أن الحياة الآخرة مشكوك في وجودها .. لذلك فهو لا يترك لذات الدنيا التي لا يؤمن بغيرها .. ولا ينتظر لذات الآخرة المشكوك فيها .. كما أنه يقيس قياساً فاسداً الدنيا بالاخرة ... فيظن أن الدنيا هي الباقية والأخرى ليست آتية ...

وعلاج هذا النوع من الغرور لا يتم إلا بالتصديق الإيماني ، وهو طريق إلى الصحة النفسية ، كما ورد عن الله تعالى :

« وما عند الله خير وأبقى » (القصص : ٦٠)

« وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (الحديد : ٢٠)

فيوقن الإنسان أن متاع الدنيا قليل وأنها قصيرة مهما طالت ... كما أن الغرور بالدنيا يحتاج إلى تربية نفسية قوية لتخلية نفسه من العادات الفاسدة ،

---

(١) الشيخ الدسوقي — تنبيه الغافلين ص : ٢٥٣

(٢) الإمام الغزالي — الكشف والتبيين ص : ١٠٨ — ١٢٩

والإعتقادات الكاذبة ،اذ أن سبب فسادعقيدته ناجم عن الجهل بالله ... ومصدر هذا الجهل هو الإغترار ، لذلك يتوجب توجيه المغرور بالتربيـــة السليمة ، وترشيده بالعلوم النافعة، وتحلية نفسه بالقيم السليمة، وتغذية عقله بنور الحكمة ، فإذا بدأ الإنسان فى سلوك طريق العلم ، وتخلص من العادات السيئة .. كان قابلا للاقتناع بالحق ، مؤثراً الصدق ، متجها بنور العقل إلى تجنب الإغترار بالحيـاة الزائلة ، متمسكا بالحياة الأشرف والأبقى ... (١)

٢ – الاغترار بالله ·

والآفة الثانية هى اغترار الكافر . . وتنحصر فى اعتقاده الفاسد أنه إذا كان الله معيده اليه فى الآخرة ، فإنه أحق بمودته وإحسانه . . وقربته من غيره فى الدنيا، وذلك بناء على قياس كاذب ، وشرط باطل ، وهو أن الله قدغمره فى الدنيا بنعمة . . لذلك فإنه تعالى حتما سيغمره بنعمه فى الآخرة أيضا !! أى أنه يقيس الدنيا على الاخرة ، فيعتقد كذبا وغروراً بحتمية الثواب والرحمة والنعم . . . كما أنه يناصر شيطانه ويوافق هوى نفسه . . . فزعم أنه ما دام الله قد أخر عنه عذاب الدنيا ، فقياسا على ذلك سيؤخر عنه عذاب الاخرة بالضرورة . . إذاكان هناك آخرة حقاً !!

والمغرور ينظر إلى الفقراء نظرة ازدراء ، فيسخر منهم قائلا : « أ هؤلاء سيمن الله عليهم حقا بنعمه ؟ . . . لو كان ذلك صحيحا وأن الله يحبهم حقـاً ، لأحسن اليهم فى الدنيا . . . ورزقهم وحرمنى . . وأعطاهم ومنعـــنى وشفاهم وأمرضنى !!

---

(١) لمزيد من الاطلاع فى هذا الموضوع يرجع الى كتاب الرعاية لحقوق الله – للامام الحارث المحاسبى المتوفى ٢٤٣هـ –ص ٥٠٨ الى ٥٦٥ بتقديم الدكتور عبدالحليم محمود – تحقيق الاستاذ عبد القادر أحمد عطا .

« فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » (لقمان : ٣٣)

هذا هو الغرور العظيم ، فالصحة والمال والجاه لا تدل على رضا الله وحبه تعالى ، فكم يعطى الله الإنسان وهو كافر لا حباً فيه ، وإنما امتحاناً له ... كما أن الله ربما يتفضل على الإنسان بزخارف الدنيا ولذاتها لتكون سبباً فى هلاكه ، وبالعكس فإن إمساك الله عن العطاء – ربما يكون حماية للإنسان من الانحراف والهلاك ، وخوفا عليه من ضياع الإيمان والانشغال بالشهوات واللذات التى تفسد علاقته بربه .. مثل ذلك مثل الأب الذى يمنع إبنه عن كثرة الطعـــام .. فيمسكه عنه .. وهو يحبه حفظا له وصيانة لصحته ..

ويؤكد بعض الأئمة (١) أن نشأة الغرور تأتى من الجهـــل بالله تعالى ... وصفاته ، فالله ربما يعطى الإنسان وهو كافر ليستدرجه . فلا يكون له بعد ذلك قائمة . ومن عرف الله فانه لا يأمن مكره . وقصص فرعون وهامان ... والنمرود ، شاهدة على مكر الله . واختبار الله .. وامتحانه لمخلوقاته ..

« وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين »
(الأنعام : ١٣٠)

أما غرور المؤمن .. فينصب فى إعتقاده أن الله غفور رحيم ، فيأمل عفوه واحسانه ، ويهمل الأعمال الصالحة ، ويتكل على رحمة الله وتسامحه تعالى ..

ومنشأ هذا الاعتقاد قياس فاسد لتصوره أنه ما دام أبواه صالحين فانه سينعم حتما برحمة من الله مثل آبائه .. ويقيس ذلك فيقول : « أن الله إذا أحب إنساناً أحب أولاده » ، وهذا اغتراء وغرور ، إذ الشيطان يحسن له الأفعال الفاسدة ..

---

(١) الامام الغزالي – الكشف والتبيين ص : ١٠٨ – ١٢٩

والأعمال الباطلة ليرمى به إلى التهلكة ...

« وما يعدهم الشيطان إلا غروراً » (الأنعام : ٦)

والدليل على فساد هذا الاعتقاد .. أن نوحا ـ عليه السلام ـ أراد أن يحمل ابنه المشرك فى السفينة .. فنهاه الله عن ذلك .. وغرق مع القوم الضالين ، فالذى يظن أنه ينجو بتقوى أبيه ، كمن يظن أنه يشبع بأكل أبيه، مصداقا لقوله تعالى :

« ولا تزر وازرة وزر أخرى » (الأنعام : ١٦٤)

« وان ليس للانسان إلا ما سعى » (النجم : ٣٩)

« واخشوا يوما لايجزى والد عن ولده » (لقمان : ٣٣)

« لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده » (البقرة : ٢٣٣)

فكل إنسان مسئول عن عمله ، فاذا اجتهد فى سلوك طريق الله وخاف الله . واتبع ما أمره به .. ثم رجاه ، فان الله يفيض عليه بالنعم .. ويظلـله بالأمن والسكينة فضلا ومنة منه تعالى .

والرجاء بهذا المعنى أمر بمعروف .. ونهى عن منكر ولا يكون رجاء إلا إذا تقدمه عمل ، فاذا لم يتقدمه عمل فهو مغرور !! لأن الرجاء تبريد لحرارة الخوف وتبديل لحال الحزن ..

وهناك نوع آخر من المغرورين لهم طاعات .. كما لهم معاصى(١) ، ومعاصيهم أكثر من طاعاتهم ، ثم أنهم يظنون أن ترجح كفة حسناتهم على كفة سيئاتهم ، وهذا جهل عظيم ، ومثلهم كمثل من يتصدق بمال فيه حرام وفيه حلال فيتداخل فى هذه الصدقة ما يتناوله من أموال الناس .. وما يشتبه فيه .. ويظن أن ذلك لله ، وهذا غاية الجهل ..

---

(١) الكشف والتبيين ١٠٨ ـ ١٢٩

« وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئاً »
(التوبة : ١٠٢)

وهناك بعض من المغرورين طاعته أكثر من معاصيه ، بسبب ضعف مراقبته لحاله ، فلا يتفقد نفسه ، ولا يحاسبها على معاصيها .. ومثله مثل الذى يقوم الليل سجوداً وتسبيحاً ، ويستغفر الله بلسانه .. ثم أنه يغتاب النـــاس ، أى أنه يعتد بصلاته وتسبيحه .. ويتغـــافل عن غيبته ونميمته وكذبه ، وذلك محض غرور .. (١)

الغرور العلمى :

أ ـ هناك نوع آخر من الغرور يتجاوز العامة من الناس إلى المتعلمين والمثقفين من أصحاب العلوم العقلية والشرعية والتجريبية .. الذين تعمقوا فيهـا ، واشتغلوا بها ، واغتروا بعلمهم ، وظنوا أن لهم مقاما عاليا فى العلم وظنوا كبرا أن الله لن يعذبهم .. وبناء على هذا الاعتقاد الباطل أهملوا حفظ جوارحهم عن المعاصى والتزام الطاعات . وهم مغرورون .. لأنهم نسوا أن العـلم علمان .. عـلم معاملة وعـــلم مكاشفة .. و يهمنا هنا أن نعرض لعـلم المعـاملة .. أما عـلم المكاشفة فسنعرض له فى موضع آخر (٢) (٣) ...

علم المعاملة :

وهو معرفة الحلال والحرام .. من تجنب للأخـــلاق المذمومة .. وتحـلى

---

(١) الكشف والتبيين ص : ١٠٨ ـ ١٢٩

(٢) المرجع السابق ص : ١٠٨ ـ ١٢٩

(٣) لمزيد من الاطلاع فى علم المكاشفة الحكومة الباطنية الباب الثانى .

بالأخلاق المحمودة ، فاذا لم يبدأ الانسان بمخالفة نزعاته الأنانية ويبتعد عن عن الأهواء .. جنح عن التبصر والحكمة .. ووقع فى الآفات ومثله فى ذلك كمثل الطبيب المريض الذى يعالج غيره ، وهو مصاب بنفس الداء ، فرغم قدرته على معـــالجة نفسه .. فانه يهملها .. فهل يصلح الدواء بالوصف، دون الاستعمال...!!!

ان الدواء لا يصلح إلا لمن شربه ، فليس من المهم أن يعرف الإنسان أمراض النفس وعللها ويبين أوصافها .. ويعلّم الناس صفاتها وجبلاتها .. وكيفية تربيتها .. وترويضها فى طريق الله .. دون أن يكون ذلك من أخلاقه إذ المهم أن يقرن كلامه بالعمل ، وعلمه بالسلوك الأخـــلاقى القويم .. تأييداً لقول الرسول ﷺ :

« من إزداد علماً .. ولم يزدد هدى .. لم يزدد من الله إلا بعداً »(١)

وقوله ﷺ :

« ان أشد الناس عذابا يوم القيامة ، عالم لم ينفعه الله بعلمه »(٢)

ب ــ وهناك صنف آخر من العلماء المغرورين الذين اهتدوا إلى الأخلاق الباطنة وتيقنوا أنها مذمومة شرعاً إلا أنهم تعجبوا بأنفسهم فظنوا أنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم ، لأن الذى يبتلى بالأمراض الباطنة هم عـــوام الناس ، فظهر عليهم الكبر والرياسة .. واعتقدوا أن ذلك عز الدين .. وشرف العلم ، ونسوا أن ذلك من أخلاق أبليس !! بل نسوا تواضع الرسول ﷺ والصحابة رضى الله عنهم أجمعين ..

ومن علامات غرورهم .. الحسد ، واطلاق اللسان على زملائهم وأقرانهم ،

---

(١) ذكره الامام الغزالى فى الكشف والتبيين

(٢) ذكره ابو هريرة ورواه الإمام الغزالى والسيوطى .

ويظنون أن هذا ليس حسداً ، وإنما غضب الحق .. ورد على الباطل كذبا .. وافتراء على الله .. إذ أن ذلك من صفات المغرورين ..

وبعض هؤلاء المغرورين .. اذا أختبرته ، تجده يدخل على أصحاب السلطة فيتودد اليهم .. ويمتدحهم نفاقا ، فاذا تشككت فى أمره قال : انما أهدف إلى نفع الناس ! ! ودفع الضرر عنهم .. والواقع أنه مغرور .. إذ أنه لو كان صادقا .. لفرح حقا بمن يقوم بخدمة الآخرين ، والذى يسعى مثله عند أهل السلطة لحل مشا كل الناس .. لكنه عندما يجد أحد أقرانه يشفع لأحد أصحاب السلطة ، يغضب ويثور ، ويتهمه بالنفاق والرياء .. حسدا وحقدا .

ج ـ وهناك صنف ثالث من العلماء ، طهروا جوارحهم .. وابتعدوا عن المعاصى وتفقدوا أخلاق النفس .. ومسحوا عن قلوبهم الرياء والحسد والكبر .. لكنهم مع ذلك لم يتخلصوا من الغرور ، إذ ماتزال فى زوايا قلوبهم شوائب .. وما يزال يلعب برؤوسهم شيطان ماكر .. يخدع النفس وهم لم يفطنوا إلى ذلك! ومثلهم كمثل الزارع الذى قطع الحشيش لتنقية أرضه ، إلا أنه لم يفتش عن الحشيش الذى لم يخرج رأسه من الأرض بعد ! ! معتقداً أنه قد أباد كل حشيش الأرض ! وفى أثناء غفلته .. ظهر الحشيش وأفسد عليه الزرع ، وهؤلاء ينظر بعضهم إلى الناس نظرة الاستكبار والاستعلاء عليهم (١) ..

د ـ وصنف رابع اهتموا بعلوم المعاملات الدنيوية .. وتركوا الأعمال الظاهرة والباطنة ، ولم يؤدبوا جوارحهم ، ويمسكوا ألسنتهم عن الغيبة والحرام ! أو عن الكبر والرياء والحسد ، وهم مغرورون ، ومثلهم مثل الطبيب الذى تعلم صناعة الطب .. ولم يشتغل بها . وإنما اشتغل بكتاب الحيض أو الإجهاض (٢) .. وبمسائل الجنس ، فهم يهتمون بالمجادلة ، وإفحام الخصوم

(١) الكشف والتبيين ١٠٨ ـ ١٢٩

(٢) المرجع السابق

بحججهم ، والتفتيش عن المتناقضات فى كلام غيرهم ، وكل قصدهم للمباهاة والغلبة .. ولو اهتموا بتصفية قلوبهم .. لكان خيراً لهم من علم لا ينفع فى الدنيا ولا الآخرة ..

وكثير من العلماء يعجبون بأنفسهم غاية الاعجاب .. ومنهم علماء يظنون أنهم تبحروا فى علوم المحبة الإلهية .. وأنهم من الناجين ، ويعتقدون أنهم يذكرون الله وهم ناسون ، ويذمون الصفات المذمومة وهم بها متصفون ! !

ومنهم من يعصى الله ، ويلفق إفتراء ما لم يرد من كلام الله للأغراب والعامة ، ومنهم من يستخدم سجع الألفاظ .. والاستشهاد بأشعار الوصال .. والفراق لأغراض فاسدة ...

ومن المغرورين أيضا من يقلد كلام الزهاد فيرددونه ، ويعظون الناس به فى الأسواق ... وهم أشد الناس غروراً ...

كما أن هؤلاء المغرورين من يجمع الأحاديث والأقوال ، ويقول : أنا معى أسانيد ليست عند غيرى ويقتصرون على النقل دون فهم المعانى الواردة .

وبعضهم يدرس علوم اللغة ، ويعتقد أنه من العلماء الكمل ، وهذا غرور عظيم ، فلو علم هؤلاء أن لغة العرب كلغة العجم ... وأنه يحسن الاكتفاء فى معرفة اللغة بما يتعلق بالكتاب والسنة ، أما التعمق فى دراسة اللغة بدرجة لا تتناهى للمباهاة ، فهذا من الغرور (١) ...

وبعض العلماء من يكون غروره فى الصلاة والصيام والحج والزهد

(١) الكشف والتبيين ص ١٠٨ ـ ١٢٩

والجهاد ، أو الاشتغال بالنوافل ... ثم أنه يهمل الفرائض ، ومثله كمثل الذى يبالغ فى الوسوسة فى الوضوء ، فلا يرضى بالماء المحكوم بطهـــارته ... فلا يصلى ...

وربما تنتقل الوسوسة من الماء إلى الطعام ، فيقدر الموسوس الاحتمالات البعيدة قريبة ... وربما وصل فى وسوسته آخر الأمر إلى أكل الحرام ...

وبعض المغرورين من يقرأ القرآن بالليل والنهار ... لـكن قلبه فى وادى الأمانى متفكراً فى الدنيا ، وربما يقرأ القرآن ويتلذذ به ، ولكنه لا يعمل بما جاء فيه ... ومنهم من يهتم ويشتغل بمخارج الألفاظ ولا يتفكر فى أسرار فاتحة الكتاب ومعانيها ...

الفصل الثامن

العجب

يتوسع فرويد فى مفهوم الحب ، فيجعله ممتدا حتى يشمل حب الذات ، بالاضافة إلى حب الوالدين والأبناء ، والحب بالمعنى الفرويدى يسميه اصطلاحا بالليبدو ، وهو البحث عن الإشباع الجنسى ، فيقول فرويد أن الليبدو هو الذى يفسر لنا الحاجات الجنسية لدى الإنسان والحيوان (١) ..

وهو (٢) يفترض وجود حب جنسى وغريزة جنسية ، كما يفترض غريزة التغذية لتفسير الجوع ، والليبدو أو الحب يعتبر الأنانية وعشق الذات شيئاً واحداً ، ويعبر عن ذلك بالنرجسية ..

أما علم النفس الاسلامى ، فينصب الاهتمام فيه على دراسة النفس الإنسانية دراسة متفحصة متعمقة ، ويبين أن الاعجاب بالنفس يورد الإنسان مورد التهلكة ، فيبين الله فى كتابه العزيز أن الوسط العدل هو الدليل على الصحة النفسية فى السلوك والأخلاق ، وذلك وارد فى قوله تعالى :

« ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا » (لقمان : ١٨)

ومعنى ذلك أنه لو ترك الإنسان دونما تهذيب أو تربية ، فانه سيتملكه العجب بنفسه ، والحب لها ، ويركبه الغرور ، فيستحسن أفعاله ، ويظن أنه خالق أعماله فيباهى بذلك ويمن على الناس باحسانه فيرضى عن نفسه ، والرضا عن

---

(١) سيجموند فرويد – الموجز فى التحليل النفسى ص ٤ ١٠٦ ترجمة سامى محمود على

(٢) باتريك ملاهى – عقدة أوديب – ترجمة جبيل سعيد ص : ٤٨

النفس من علامات النقص والوقوع فى الضلال والإنحراف .

العجب بالنفس إذن آفة خطيرة ، تعمى القلوب ، وتخفى الذنوب ، وتزين الأخطاء ، وتستظهر الزلل ، حتى يحسب المعجب بنفسه الاساءة إحسانا ، ويظن البخل سخاء وجودا . وهو واهم فى ظنه ، كاذب فى حدسه ، هالك حيث يعتقد النجاة ، غريق فى بحر الظلمات .

« وإذا انعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه » (فصلت : ٥١)

والمعجب بنفسه يركن إلى الغرور ، فيستصغر ما أتاه من الكبائر ، ويستكثر ما قدمه من الخير ، وينسى ويتناسى فواحشه ، ويعمى عن الحقائق حتى يجعل من الخير شراً ومن الشر خيراً ..

« إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور » (الشورى : ٤٨)

وغرور المعجب يقوده إلى الكذب على نفسه .. فيحيا فى عالم الأوهام الذى أقامه على الافتراء ، فيقل خوفه من الله ، ويزداد غروره به تعالى، بل قد يتطاول بالكذب على الله وهو يظن أنه صادق ، وبالضلال وهو يرى نفسه مهتديا(١) .

يقول النبى ﷺ :

« ثلاث مهلكات : « شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » (٢)

والإنسان إذا اعجب بأفعاله وأعماله ، لم يفطن إلى ضلاله وإنحرافه، ولم ير ما يجب أن يتوب عنه ، لأنه مستصغر لما أتاه من الذنوب محتقر لما ارتكبه من

(١) الرعاية لحقوق الله ص : ٣٩٨ وما بعدها

(٢) رواه أبو هريرة عن أنس رضى الله عنهما.

آثام بالنسبة إلى ما فعله من طاعات ومجاهدات وأعمال الخير والبر . يقول ابن مسعود (١) رضى الله عنه :

« الهلاك فى اثنين : القنوط .. والعجب ..

والعجب احساس بالرضى عن النفس ، وهو شعور غامر بالفرحة الكاذبة والأمن المصطنع ، لأن المعجب يرى أنه فى أحسن حال ، فليس هناك ما يفزعه ليقلع عن سلوكه الشاذ ، وعمله الضال ، وبذلك يتمادى فى غيه بجرأة حتى يقع فى بحر لجى ، فيهلك إلى الأبد ..

ومن ناحية أخرى ، فإن المعجب بنفسه إذا تم له كشف دخيلة نفسه ، وتبين كثرة ذنوبه ، وعرف حقيقتها ، لم يرتدع راجعا إلى الحق ، وإنما يقنط يائسا ، ويتردى معترضا ، ويتمرد كافرا بنعم ربه ، ويتوقف عن العمل لله ، ويمسك عن أعمال الخير ، وينتهى إلى الهلاك ..

حقا لقد صدق ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ فى ربط القنوط بالعجب ، والعجب بالقنوط ، إذ أنهما يقودان حقا إلى الهلاك لأن المعجب بنفسه يزكى نفسه بما لا تستحقه، وإذا زكاها فمعنى ذلك أنه لا يتهمها ، فلا يشعر بمخالفته لحقوق الله ، ويظن النجاة وهو غريق فى الضلالات .. يقول تعالى :

« فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » (النجم : ٣٢)

ويرتبط العجب بالكبر والاستعلاء ، فيتخيل المعجب أنه فوق سائر العباد ، ويغتر بالله ، فيدعى أنه قريب من الله ، وذلك باستعراض ما يقوم به من أعمال الخير ، وترديد مزيد من عمله وتحصيله ، حتى وكأنه صاحب المنة على الخلق أجمعين..

---

(١) الرعاية لحقوق الله ص : ٢٩٩

يحدثنا الرسول ﷺ عن المتكبرين والمتجبرين فيقول :

« تحاجت النار والجنة ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ..

وقالت الجنة : فالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم وعجزهم ؟

فقال الله عز وجل للجنة : « إنما أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى »

وقال للنار : « إنما أنت عـــذابى أعذب بك من أشاء من عبادى » ولكل واحدة منكما ملؤها » . فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع الله قدمه عليها فتقول : قط قط .. فهنالك تمتلىء ويتزوى بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقه أحداً. وأما الجنة فان الله ينشىء لها خلقا (١) ..

تقول عائشة ـ رضى الله عنها ـ عندما سئلت عن المسىء :

« هو المحسن إذا أعجب بعمله »(٢)

لأن هذا المحسن منان ، فهو قد أساء إلى نفسه حيث ظن الإحسان عليها ، إذا الإحسان من الله ولله ، فكيف يحسن وهو يظن أنه الذى يعطى ويمنـــع ، لقوله تعالى :

« لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » (البقرة : ٢٦٤)

فالعمل الطيب يجب أن يقرن بمنة الله وفضله على صاحبه ، وذكر توفيقه له تعالى بالاقدام عليه ، أما إذا فسر هذا العمل بنسيان الله وإرجاعه إلى النفس ، كالقول : لو لم أحسن إلى فلان لمات جوعا(٣) .. فالثناء والحمد هنا ليسا لله فى

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة .

(٢) المحاسبى ـ الرعاية ص : ٤٠٠ ـ ٤٠١

(٣) المرجع السابق ص ٤٠٠ وما بعدها

هذا العمل ، وإنما هما راجعين إلى عجب النفس ، وبذلك يبطل العامل أفعاله الحسنة وأعماله الطيبة بالمن والاستعلاء والتكبر والتجبر .. يقول الرسول ﷺ :

« ان الله تعالى ينظر إلى الكافر ، ولا ينظر إلى المزهى ، ولقد حملت سليمان بن داود الريح وهو متكىء فأعجب واختال فى نفسه فطرح على الأرض (١) ..

والعجب - بهذا المعنى - تهتاج به النفس ، وتنزع اليه ، فتقول مباهية :

« لقد جاهدت .. وصبرت .. وتخلصت من أهوائى . وأحسنت إلى غيرى » ثم تفرح بذلك وتشعر بقوتها وعزتها واشراق بصيرتها ونقاء سريرتها ، وهذا مما يوردها مورد التهلكة ..

« ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم » (التوبة : ٢٥)

وأحيانا يظهر العجب فى صورة نجوى ، وهى حديث النفس تقول فيه :

« لقد صمت كذا ولم أفطر منذ كذا .. أو صليت كذا ركعة » ..

وما تزال تستكثر النفس أفعالها مع نسيان نعم الله ، واضافة ذلك إلى صاحبها دون أن تشعر أن ذلك يحبط من أعمالها ، ويحجبها عن الوصول إلى منازل المتقين ..

كما أن العجب يظهر فى إستحسان النفوس لجمال جسمها فى قوته وتمام خلقته ، وبديع صنعه وعظيم هيبته ، والعقل ورجاحته ، والعمل ودقته ، والصوت وحسنه .. وما زالت النفس تثنى على حالها وتفتتن بجمالها حتى يشغلها عن ذكر ربها ، فتقع فى الغرور وتظن التفوق على غيرها .. فتهلك مع الهالكين ..

---

(١) رواه الطبرانى .

الفصل التاسع

الحقد والحسد

من أمراض القلب التى قل أن يخلو منها إنسان .. الحسد، إلا أن من الحسد ما هو مباح ، بل ومنه ما هو نقص وحرام . .

وتعد المنافسة من الحسد المباح لأنها مسابقة بين العباد ، ومجاهدة فى طريق الله ، لتوثيق عرى الإيمان ، والمسارعة إلى طلب عفوه ومغفرته تعالى ، وبذلك يكون هذا الحسد المباح فرض على كل مسلم تأييداً لقوله تعالى :

« وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » (المطففين : ٢٦)

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم » (آل عمران : ١٣٣)

ولا يتم التنافس إلا بين عبدين يحاول كل منهما أن يسبق الآخر ، أى يسابقه ويسرع قبله .. ومثل ذلك كمثل عاملين متنافسين يتباهى أحدهما أن يكون السباق فى خدمة سيده ، ليتقدم على زميله فى محبة مولاه وتقربه اليه ويقلقه تقصيره ، فلا ينال الحظوة عنده كما نالها زميله (١) .. وكذلك المؤمن فانه يسارع إلى أعمال الخير وينافس غيره فى طاعة الله والإخلاص له تعالى .. يقول النبى ﷺ :-

« لا حسد إلا فى إثنين ، رجل أتاه الله عز وجل مالا فسلطه على هلكته فى الحق ... ورجل آتاه الله عز وجل علما فهو يعمل به ويعلمه الناس » (٢) ...

---

(١) الامام الحارث المحاسبى ـ الرعاية لحقوق الله ص : ٥٧٢ تحقيق د. عبد الحليم محمود

(٢) المرجع السابق .

وعند ما سئل الرسول عن ذلك قال - ﷺ - رجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما ، ورجل آتاه الله - عز وجل - علما ولم يؤته مالا ، فيقول صاحب العلم لو أن لى مثل مال فلان .. كنت أعمل فيه بمثل عمله .. ويقول صاحب المال لو أن لى مثل علم فلان كنت أعمل فيه بمثل عمله فهما فى الأجر سواء(١) ...

هذا هو الحسد المرغوب فيه ، لأنه منافسة شريفة ، إذ يأمل طالبه أن يلحق بمن يسابقه فى الخير ، ويغتم أن يكون دونه .. وهو فى ذلك لا يريد به شراً ولا يحب له أذى ...

وأما الحسد المكروه ، كأن يأتى الله رجلا مالا فينفقه فى المعاصى ، فيتمنى الحاسد أن يعطيه الله مثل هذا المال ليصرفه كما يصرفه الآخر ، فهما فى الاثم سواء (٢) ...

وأما الحسد المحرم كله فوارد فى قوله تعالى :

« ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً »

(البقرة : ١٠٩)

« أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » (النساء : ٥٤)

والحاسد هنا يريد لنفسه الرياسة والرفعة وعلو المنزلة ، وينكرها على غيره ويكره أن يكون تابعا لأحد أو مؤتمراً بأمره ، كما أنه يرغب أن يزول عن غيره ما فيه من نعمة وجاه فيخالف المتحاسدون بعضهم بعضا بغيا وحقداً ، وينشغلوا بأهوائهم ، ويتركوا الحق ويبتعدوا عن الخير حسداً بينهم ...

(١) ذكره المحاسبى فى الرعاية

(٢) الامام الحارث المحاسبي — الرعاية لحقوق الله ص : ٥٧٤ وما بعدها تحقيق د . عبد الحليم محمود .

« إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون » (التوبة : ٥٠)

يقول وهب بن منبه (١) : « إن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام — الحاسد عدو لنعمتي راد لقضائي ، ساخط لرزقي الذي قسمت لعبادي ، غير ناصح لهم » ..

والحسد المذموم يقع فيه المؤمن والكافر ويظهر الحاسد في كراهية النعم للغير ومحبة زوالها ، فاذا رأى نعمة لغيره في دين أو دنيا أو بلغه أن أحداً في نعمة ، كره ذلك واستاء لسماعه ، وتمنى زوالها عنه وفي ذلك يقول تعالى :

« إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها »
(آل عمران ١٢٠)

فالحاسد يشمت عند زوال النعمة عن غيره ، ويسوءه أن استمرت النعم ، ولو كانت نعمة الإيمان .

« ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء » (النساء : ٨٩)

ومازال الحاسد يعبر بلسانه عما في قلبه حتى يندفع آخر الأمر إلى الجنوح عن الرشد فيؤذي ويتطاول على صاحب النعمة كما فعل أخوة يوسف — عليه السلام — به :

« ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين ، إقتلوا يوسف أو إطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين » (يوسف : ٨ ، ٩)

---

(١) الحافظ ابي نعيم الاصبهاني — حلية الأولياء المجلد الرابع ص :

أراد الأخوة الحاسدون أن ينفردوا بحب أبيهم من دون يوسف فلم يجدوا وسيلة — لغلظة قلوبهم — إلا أن يتخلصوا من يوسف الذى قدمه عليهم يعقوب — عليه السلام — وقربه اليه .. فكرهوا ذلك وتصاعد حقدهم وحسدهم على يوسف ، وأقدموا على فعلتهم النكراء ظنا منهم أنهم بذلك يكتسبون محبة أبيهم ».

يقول أبو قلابة : « ما قتلوا عثمان إلا حسداً » أي حسدوه على الخلافة وأحبوا أن يزيلوها عنه ... »(١)

والحسد المذموم بهذا المعنى نتاج الكبر والعجب والحقد والبغضاء والرياء فيغتم الحاسد عند سماعه الخير ولا يسعده إلى الإضرار بمن يحسده .. فاذا سمع من إنسان كلمة حق يحقد عليه، ويتقول بما لم يقل، بل ويكيد له ويخطئه فيما يقول حتى لو كان صادقا ويستهدف من ذلك أن يبعد الناس عنه ليطفىء نوره بينهم لحقده عليه وكراهيته أن ترتفع منزلته عندهم ومثال ذلك ما فعل اليهود بالرسول — ﷺ — عندما بشر بدعوته ، فرغم علمهم بنبوته ، تملكهم الحقد والحسد ، وخافوا أن تذهب الرئاسة عنهم اليه ، فيكونوا أتباعا له بعد أن كانوا متبوعين ..

ولا يقتصر الحسد على العامة ، بل لا يسلم منه العلماء والعباد ، إذ ينشأ الحسد المذموم بينهم نتيجة الخوف من زوال الرئاسة ، كأن يجزع الحاسد إن ترأس غيره عليه ، أو أن يحظى بمرتبة عالية لم يصل اليها ، فيرغب لذلك أن تزال عن يحسده كل منزلة في مجالس العلم ، حتى تبقى له الرئاسة مهما كان ما يحسده صاحب رأى سديد، وفكر خصيب ، وعلم غزير ...

(١) المحاسبي — الرعاية لحقوق الله ص: ٥٧٥

الباب الثاني

الطريق إلى الصحة النفسية

مقدمة :

يعتقد بعض علماء النفس أن علم النفس الحديث بمناهجه العلمية المختلفة يمكن أن يهيأ الإنسان للصحة النفسية ، فيدعون تمشيا مع النظرية التطورية (١) أن الإنسان كان عبداً للطبيعة .. جزعاً .. خائفاً فزعاً منزويـــا ، حتى اكتشف أسرارها وتعرف على كثير من عللها وأسبابها ، فزال عنه خوفه خاصة فى عصرنا هذا الذى تقدمت فيه التكنولوجيا والعلوم الطبيعية ..

وقد زعم لفيف من هؤلاء العلماء أن المعرفة التجريبية والموضوعية .. هى الطريق الوحيد الموصل إلى الحرية ، ومن ثم إلى الصحة النفسية ، لذلك فقد توج دستور التحليل النفسى بلفظ : « الحـــرية » حتى أصبح هذا اللفظ غاية وحيدة لمدرسة التحليل النفسى .

ولقد غلا « فرويد وتلامذته فى ظنهم أن الأسباب الجوهرية للأمراض النفسية والعقلية ترجع إلى الطفولة المبكرة التى تعتبر المصدر الأساسى لمكونات الشخصية (٢) ، فالمشاعر المكبوتة هى التى تؤذى المريض ، أما إذا أطلع عليها أو إذا استدرجت إلى مستوى الشعور فان المريض يشفى منها تماما ..

ويمثل أصحـــاب التحليل النفسى ذلك بالطفل الذى يرفض أن يفتح يده .. فيفسر ذلك السلوك على أنه دليل على أن هنـــاك شيئا محظورا يريد الطفل ألا

---

(١) وحيد الدين خان ـ الدين فى مواجهة العلم ص : ٢٤ ـ ٢٨

(٢) Edward Glover - The Birth of the Ego - Chapter VII

يستظهره . (١)

والتحليل النفسى بهذه الصورة يدعى أنه طريقة لمقاومة المكبوتات ومعرفة المصادر اللاشعورية للإضطرابات . . ولقد استخدم (فرويد) فى بداية ممارسته العلاج بالتنويم المغناطيسى كأسلوب ظن أنه صالح للعلاج النفسى ، ولكنه عدل عنه عندما وجد أن كثيرا من الناس يستعصى عليهم النوم . . فهداه عقله إلى طريقين للعلاج . .

١ ـ التداعى الحر . . .(٢)

٢ ـ تفسير الأحلام . . .(٣)

وفى التدعى الحر يطلق المريض ـ المستلق ـ العنان لخواطره ، ويلاحظه المحلل فى يقظة تامة ،ويسجل ما يظهر على وجهه من انفعـــالات وما يأتيه من حركات ثم يلى ذلك تفسير السلوك بارجاعه الى نظرية الدوافع . .

ورغم أن التداعى الحر يسمى حرا .. فان بعض علماء النفس يرون أنه ليس كذلك فرغم أنه موجه توجيها شعوريا الا أنـــه مع ذلك يتحكم فى الدوافع والصراعات اللاشعورية .

كما أن أصحاب التحليل النفسى يستخدمون تفسير الأحلام كطريقة مكملة التداعى الحر ، وتقوم نظريـــة الأحلام على طلب المعالج من المريض أن يقص

---

(١) دكتور عزت راجح ـ الأمراض النفسية والعقلية ص : ٣١٤

(٢)روبر هاربر ـ التحليل النفسى والعلاج النفسى ص : ٢٥ ـ ٨٠ ترجمة دكتور سعد جلال

(3) Humberto Nagera - Basic Psychoanalytic Concepts On The Theory of Dreams London 1968 Page 11-25

ما رآه فى نومه فى الليلة السابقة دون حرج .. ثم يسجل ذلك كله ، ويلاحظ المحلل انفعالات المريض ويدونها بصفة منتظمة .. (١)

والغريب أن التحليل النفسى قد كشف عن ظواهر غريبة تحدث أثناء التحليل وتشتد فى نهايته، اذ أنه أحيانا تختمر المريض انفعالات شتى.. كحب ممزوج بكراهية وغضب وعناد وانبساط واستخفاف . . وأحيانا يبدو ذلك فى اعتداء المريض على المحلل بالقول والفعل ..

ويفسر ذلك بأن المحلل يتخذ صورة الوالد المتسلـــط ، فيسقط المريض انفعالاته عليـــه ، ويصبح هدفا للعدوان الذى لم يكن موجها اليه فى الحقيقة ويعتبرون ذلك نوعا من تحويل الدوافع .. (٢) (Transference)

ونحن نرى أن نظرة علم النفس الحديث قد جانبها الصواب فى فهم وتفسير النفس البشرية ، وأكبر دليل على ما نقول هو ما أعلنه السير وليم جيمس ،وهو من أكبر علماء النفس ، وصاحب الكتاب الشهير « مبادىء السيكولوجيا » ، اذ أعلن فى تواضع جم بعد أبحاث عديدة قام بها أن كتابه هذا يمثل كتلة كريهـــة منتفخة تشهد أن لا شىء هناك يسمى بالسيكولوجية . (٣)

وفى نفس الوقت يقوم أستاذ كبير وعالم هو الاستـــاذ (T. B Rhine) بجامعة (Duke) يقول :

ان الباحث عن النفس لا يجد عنها شىء فى كتب السيكولوجية الحديثة ، كما لا

---

(١) Humberto Nagera-Basic Psychoanalytic Concepts Of Dreams Page 19 -26

(٢) د . عزت راجح - الأمراض النفسية والعقلية ص : ٣١٦

(٣) د . رؤوف عبيد ـ الإنسان روح لا جسد ص : ١٢١

يعد شيئا فى المحاضرات التى تكتبه عنها » . (١)

كما أن البروفسور W. Mcdougal وهو من كبار علماء النفس فى العصر الحديث ، وصاحب كتاب التحليل السيكولوجى والسيكولوجية الاجتماعية ، قال:

« أعلم تمام العلم أن التخلى عن فكرة عقد أوديب قد يتطلب جهداً جباراً من المؤمنين بفرويد ، بل أن التخلى عن هـــذه الأفكار إنمـــا يعد كفرا بمعبود مقدس » (٢)

ثم يقول :

« ولكنى أناشدهم باسم الإنسانية أن ينكروها وينبذوها نبذا » (٣)

يسلط علماء النفس المحدثون الضوء على الغرائز خاصة الخبيثة باعتبار أنها المتحكمة والمسيطرة على الإنسان ، ويقولون أن هـــذه الغرائز هى التى تتحكم فى السلوك الظاهرى ، ومهما فعل الإنسان فانه لا يستطيع منهـــا فكاكا ، فالشخصية الإنسانية إنما تكتمل فى البداية أعوام الأولى من حياة الطفل ، ومهمـــا بذل الإنسان من جهد للتخلص من سطوتهـــا فانه لا يستطيع أن يغير من سلوكه ، وبالجملة فان اللاشعور أو العقل الباطن هو المهيمن على طبيعة النفس البشرية .

ولقد زعم علمـــاء النفس أن الإنسان مجبول على الشر والخطيئة والإثم والعدوان ونسوا أن فى الإنسان قوة أودعها الله فيه وهى قوة لطيفة تدفعه إلى طريق الخير والاستقامة والموازنة والقسط والاعتدال والاقتصاد والاقتصـــاد والايثار والتسامح والاحسان .. وهذا مؤيد فى قوله تعالى :

---

(١) د. رؤوف عبيد — الانسان روح لا جسد ص : ١٢٤ وما بعدها

(٢) نفس المرجع .

(٣) المرجع السابق ص : ١٢٤ وما بعدها

« وهديناه النجدين » (البلد : ١٠)

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » (الشمس : ٨)

« فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى » (الليل : ٥ - ١٠)

« ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب إلى الله متابا » (الفرقان : ٧١)

اذن هناك طريقان ، أحدهما طريق الخير والآخر طريق الهوى .. طريق لسلامة القلب وطهارته ، وطريق لحب الدنيا ، وموافقة النفس والشيطان ، والطريق الأول لصاحب القلب السليم والنفس المؤمنة .. والطريق الثانى لمريض القلب صاحب النفس الأمارة ، ويؤيد وجود قلب سليم وقلب مريض قوله تعالى:

« إلا من أتى الله بقلب سليم » (الشعراء : ٨٩)

« إذ جاء ربه بقلب سليم » (الصافات : ٨٤)

« فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا » (البقرة : ١٠)

« وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم »
(التوبة : ١٢٥)

« إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم »
(الانفال : ٤٩)

« لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم » (الأحزاب : ٦٠)

والقلب السليم إنما هو قلب صادق طاهر ، أما القلب المريض فهو القلب الغافل الجاهل بالله ، هناك تشابه فى قلوب المرضى ، كما أن هناك تشابه فى قلوب الأصحاء .

« تشابهت قلوبهم ، قد بينا الآيات لقوم يؤمنون » (البقرة : ١١٨)

ويختلف علم النفس الاسلامى فى النظر إلى الإنسان من جهة المرض أو السواء عن علم النفس الحديث فيما يتعلق بالقلب والنفس ، فيركز علم النفس الحديث على آفات النفس وهى صفات مفطورة عليها كمكونات للشخصية ، وينسى المجاهدة والرياضة النفسية والتوكل وإسقاط التدبير مع الله كطريق إيمانى للصحة النفسية ، بل يتغافل عن ذكر اللطائف الربانية التى أودعها الله فى الإنسان وجعلها نبراساً تستضىء به القلوب ، كالروح .. والعقل .. — لذلك نعرض فى هذا الباب الطرق الموصلة للصحة النفسية من وجهة نظر علم النفس الإسلامى ...

الفصل الأول

الوسط العدل . . . الخير الفاضل

ان مفتاح الصحة النفسية فى الإسلام هو الوسط العدل ، والوسط العدل عملية تخلية وتحلية ، تخلية عن الاوصاف المذمومة ، وتحلية بالأوصاف المحمودة ، فهو بهذا المعنى استقامة واقامة للحق والصدق وهو موازنة واعتدال ، وقد وردت الآيات الكريمة التى تحث الإنسان على اتباع طريق الله ، وهو لاشك أيضا الطريق الموصل الى الصحة النفسية فقوله تعالى :

« فأستقم كما أمرت » (هود : ١١٢)

تكليف من الله للإنسان الذى وهبه العقل ، وميزه عن سائر الحيوان ليختار طريق العدل فى نفسه كما أمره تعالى باختيار العدل مع غيره .

« وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » (الأنعام : ١٥٢)

والعدل من الاعتدال ، والاعتدال وسط ، معناه الموازنة والقسط والتناسب والاقتصاد والقسمة العادلة . .

« وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » (الاعراف : ١٨١)

فالوسط العدل خير فاضل ، وهو ضد الجنوح والظلم والجور والطيش والسفه ، وهو طريق الصحة النفسية لانه اعتدال ، أى عدم الميل الى الانحراف ، وهو تقويم أى صلاح واصلاح واقامة ضد السقوط ليكون الشىء معتدلا وقائمـــا ومقصوداً الى هدفه ، متضمنا الأمن والصحة والسلامة ، وقد وردت فى هذا المعنى آيات كريمة متعددة منها :

« والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً »

(الفرقان : ٦٧)

« ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط »

(الإسراء : ٢٩)

« وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين »

(المائدة : ٤٢)

« وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » (الإعراف : ٣١)

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » (البقرة : ١٤٣)

« قال أوسطهم » - أى أفضلهم رأيا وأتمهم حكمة - (القلم : ٢٨)

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » (الأنفال : ٦١)

والوسط العدل صالح للتطبيق فى الزمان والمكان ، لأنه شريعة الله للناس ، وليس هذا الوسط وسطاً ظاهرياً ، كمن يأمر بالمعروف ويرتكب الفواحش نفاقا ورياء ، أو كالذى يقترف المحرمات ، ويدعى الورع والتقوى ، إنما الوسط العدل ظاهر وباطن ، عمل صالح فى الظاهر ، ونية طيبة فى الباطن ...

« هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم »

(النحل : ٧٦)

فليس الوسط العدل كلاما عن عيوب النفس حتى نجعل من الحديث عن هذه العيوب غاية ومقصداً ، وانما هو تربية وأخلاق وآداب ، تبدأ من النفس ، وتنتهى اليها ، قاصدة الوصول إلى الكمالات الأخلاقية .. علماً وعملا .. ظاهراً وباطنا .. وسيلة وغاية(١) ..

---

(١) المعرفة عن الحكيم الترمذى - ص ٢٤ - ٥٥

« اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله » (المائدة : ٨)

وإذا كان الجسم لا يعالج الا بأضداد الأشياء ، كأن يكون به برودة فيعالج بالحراره ، أو يكون به حرارة فيعالج بالبرودة ، فكذلك حال النفس .. إنما لا تعالج إلا بأضدادها ، أى بمخالفة أهوائها وحظوظها فاذا نزعت إلى الغرور كان علاجها التواضع ، وإذا مالت إلى الهوى .. كان علاجها الاستقامة ، وإذا طلبت التسلط والسيطرة والتجبر ، كان علاجهـا فى الزهد ، وإذا انحرفت إلى طريق الأنانية ، كان دواؤها الإيثار .. وهكذا الطريق لمعالجة آفات النفس حتى ينصلح حالها ، وترجع عن نقائصها وعيوبها إلى الصراط المستقيم .

وإذا كان من الضرورى لمريض الجسم معاناة مرارة الدواء وتحمل مبضع الجراح والصبر على المشتهيات ليستقيم حال بدنه ، ويشفى من عاله ، فكذلك الحال بالنسبة لمريض النفس ، فان عليه مغالبة النفس ومنازعة الشيطان ، وذلك بكثرة الرياضات والصبر على الأذى والاعتداء ، ثم عليه المعاناة والمكابدة للتخلص من الآفات والحظوظ النفسية حتى ينصلح حاله ، ويشفى من أسقامه ، وينظر علم النفس الإسلامى إلى أمراض النفس على أنها ثمرة فجة ونتـاج طبيعى للجهل ونقص التربية ..

ويختلف مريض الجسم عن مريض النفس اختلافا بينا ذلك لأن مريض الجسم إذا تراكمت عليه العلل والأوجاع انتهى به المرض آخر الأمر إلى الموت .

أما مريض النفس فانه ان لم ينصلح حاله ، فانه لا يتخلص من آفاته وأمراضه بالموت ، إذ أن هذا المرض يدوم فى الدنيا والآخرة ..

الوسط العدل اذن صالح للتطبيق فى كل زمان ومكان لأنه خـير فاضل وأقرب إلى الاعتدال والقصد ، وأبعد عن الغلو .. سواء فى المصلحة .. أو الضرر

ويستخدم فى الفضائل ، كما يستخدم فى الرذائل ..

فالشجاعة وسط بين الجبن والتهور ، وليس هذا الوسط وسطا حسابيا وإنما هو وسط مرن ، وذلك كما ورد فى قوله تعالى :

« حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » (البقرة : ٢٣٨)

فالمعروف أن فى الصلاة فرائض خمس ، والوسط العدل هنا اما صلاة العصر أو صلاة الفجر ، فالصلاة الوسطى إذن ميزان وقسط واعتدال واستقامة واقامة ، ويستهدف بها الصراط المستقيم ..

والعبد الذى يحافظ على صلاة العصر فانه يصلى الظهر حاضراً ثم انه لا يصلى المغرب مع العصر ، ومعنى ذلك أنه يصلى جميع الفرائض فى مواقيتها ..

واذا طبق الإنسان الوسط العدل على نفسه ، وبالنسبة لغيره ، فانه يصل الى أعلى درجات العلم والعمل ، وذلك وارد فى قوله تعالى :

« شهد الله أن لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط »

(آل عمران : ١٨)

وهنا يكون الإنسان حكيما ، صائب الرأى ، سليم القلب ، مطمئن النفس :

« ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » (البقرة : ٢٦٩)

وكما سبق القول فان الوسط العدل هو قصد وقسط واستقامة وموازنة واعتدال ، لذلك فاننا سنحاول أن نبين معانيها كما وردت فى القرآن الكريم ، اذ بها تسير دفة النفس فى طريق الصحة النفسية .

يقال قصد فى أمره أى اعتدل أمره وسلك مسلكا وسطا لا مغالاة فيه ولا تقصير وقصد السبيل هو الطريق المستقيم الذى لا انحراف فيه ولا جنوح ، اقتصد

فى أمره ، أى اعتدل بلا افراط أو تفريط . (١)

وقد وردت آيات عديدة فى السلوك السليم الذى مبعثه القصد والإعتدال وهو الطريق المستقيم الذى يقود الى الصحة النفسية .

« واقصد فى مشيك » (لقمان : ١٩)

« أى توسط فى مشيك ، فلا تسرع الخطى ، ولا تبطىء » ، وهذا هو خير الامور ...

« منهم أمة مقتصدة » (المائدة)

« فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد » (لقمان ٣٢)

والمقتصد هو المعتدل الذى لاينحرف أى الملتزم الحد الوسط بلا افراط أو تفريط ، وهذا هو الطريق المستقيم المؤدى الى الهداية ، لقوله تعالى :

«وعلى الله قصد السبيل» (النحل : ٩)

والله خلق للانسان عقلا يدرك به ؛ وارادة توجهه ، وتركه لاختياره فهو تعالى يبين الطريق القصد — أى المستقيم — فاذا اتجه الانسان فانه يوصله للخير ، لأن من الطريق ما هو منحرف مائل لا يوصل الى الحق بل يقوده الى الضلال والانحراف (٢) .

القسط :

القسط يدل أيضا على الوسط العدل ، وهو مفتاح الصحة النفسية فى الدنيا والآخرة، لأن القسط عدل فى النفس ، فيعرف الانسان بالقسط حقوقه وواجباته فلا يجور ولا يستذل ، كما أن الحكم القسط هو العادل الذى يحبه الله تعالى :

« وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين » (المائدة : ٤٢)

---

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم — المجمع اللغوى جـ ٢ ص : ٢١٣

(٢) المنتخب فى تفسير القرآن — المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ص : ٣٨٤ — ٣٨٦

والمقسط ميزانه لا يعتريه عوج ولا خلل ، لأنه لا يبتعد عن الحق ، وهذه هى التربية النفسية السليمة التى توصل الى القسطاس المستقيم ، أى العدل التام، الذى هو من صفات الله تعالى ، والتى تشهد بة الملائكة الأطهار كما يشهد به أهل العلم يقينا وصدقا.وهنا يسلم المؤمن من الغرور والرياء والنفاق، ويتصف بالاخلاص والطاعة والصدق لله جميعا ..

فلا اعتراض ولا تدبير مع الله ، وانما سكينة وأمن ورضا وطمأنينة :

«شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط (آل عمران: ١٨)

الاستقامة :

تدل الإستقامة على النهوض أو انتصاب القامة أو الاعتدال بالمعنى المادى والمعنوى ، والاستقامة من القيام بالشىء دون عوج أو التواء ، كأن يقوم الصلاة وأن يقوم بالعدل ، وأن يقوم نحو أهله أى يراعاهم ويتولاهم بعناية .(١)

والإستقامة هى سلوك طريق الحق والخير :

«فاستقم كما أمرت» (هود : ١١٢)

« فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم » (التوبة : ٧)

وترتبط الإستقامة بالقسط والعدل والإعتدال ، كما ترتبط بالقيام ، فيه فيه صلاح الأمور الدينية والدنيوية ، لانه مأمن الناس جميعا من الإنحراف ، والضياع لقوله تعالى :

« إهدنا الصراط المستقيم » (الفاتحة : ٦)

إن الاستقامة توفيق إلى طريق الخير والحق والسعادة ، والتى بها يستقيم حال النفس وتتصف بالأمن والسكينة ...

---

(١) معجم الفاظ القرآن الكريم ـ ج ٢ ص : ٢٦٢ ـ ٢٦٤

الفصل الثانى

الصفح الجميل

يرى أصحاب علم النفس الحديث أن القانون الذى يسود دنيا النفس هو بعينه شريعة الغاب ، وهذا القانون ينص على قاعدة عامة شاملة للناس جميعا تقول :

« كل أو فأنت مأكول » (1) .

ويستخلصون من ذلك القانون نتائج ومعلومات لما يصادفهم من حالات مرضية ، فيقولون أن الإنسان الطيب يدفع ضريبة طيبته وتفاديه للشرور والآثام، وهى ضريبة يرونها فادحة يدفعها من لحمه ودمه ..

لذلك فان علماء النفس يرون أن من شروط الصحة النفسية السليمة ألا يكون الإنسان طيبا ، مسرفا فى الطيبة حتى يكون سويا وصحيحا ومعافيا ، فليس الخلق الرفيع دليلا على الصحة النفسية (2) ، ذلك إن لم يستطع الإنسان تصريف العدوان فى العالم الخارجى أو فى الغير بأى صورة من الصور ، فان هذا العدوان يرتد على صاحبه ويكون سببا لكراهية الذات أو فى صورة بلادة وخمول واستسلام أو يفضى بصاحبه إلى الانتحار أو التورط فى مرض نفسى أو جسمى (3) ..

ونحن نرى أن هذه النظرة إلى النفس الإنسانية نظرة قاصرة . فاذا صدقت على كثير من المرضى كذبت على الأصحاء ، وإذا كانت الأثرة والعدوان والكراهية

---

(1) د. احمد عزت راجح ـ الأمراض النفسية والعقلية ص : 147

(2) المرجع السابق

(3) د. صبرى جرجس ـ التراث اليهودى الصهيونى ص : 243 ـ 246

طبيعة الانسان المعاصر الملحد ، فان الإيثار والتسامح والمحبة طبيعة الانسان المؤمن ، ونحن نختلف مع هذه النظرة الضيقة فى تفسير دايـــا النفس ، فالطيبة ليست دليلا على المرض النفسى ، بل على العكس من ذلك إنمـا تدل على الصحة النفسية . بل والكمال الأخلاق ، ودليلنا فى ذلك ما ورد عن الله فى كتابه العزيز من آيات بينات تشجب هذه النظرة السطحية بقوله تعالى :

« هب لى من لدنك ذرية طيبة » (آل عمران : ٣٨)

وذلك يدل على أن هناك أناسا طيبون وأناسا مجرمون ، وذرية صالحـــة وذرية طالحة .. تأييدا لقوله تعالى :

« حتى يميز الخبيث من الطيب » (آل عمران : ١٧٩)

ولذلك فان القاعدة الاسلامية أكثر عمقا وشمولية عندما تحدد صنفين من الناس ، ويعرفنا القرآن الكريم فيما يتعلق بالزواج بأن الطيبين من الناس للطيبات، وكذلك فان الخبيثين للخبيثات .

« الخابثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ، والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات » (النور : ٢٦)

فالطيب هو المسلم الذى يسلم الناس من يده ولسانه غير المجرم المعتدى الآثم تصديقا لقوله تعالى :

« أفنجعل المسلمين كالمجرمين » (القلم : ٣٥)

والطيبة ليست دليلا على كبت العدوان ، وإنما هى موقف عـــلم واختيار تصدر عن طبيعة مسالمة وقلب سليم ، واعية بما تفعل .. مسترشدة بقوله تعالى :

« وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » (الفرقان : ٦٣)

وعلم النفس الإسلامى يؤسس العلاقات بين الأفراد على أساس الخير ، وينبذ الشر بكل صوره ، فيدعو إلى المحبة والألفة والتعاون والاخوة والصفح والتسامح والعفو والإصلاح والاخوة وعدم الإعتداء ، والآيات القرآنيـــة والاحاديث النبوية عديدة هادفة لتنظيم العلاقات الانسانية .. ولا يحض الله تعالى على العدوان والاعتداء ، بل على التسامح والسلام ...

فليس إذن المرض النفسى نتيجة لكبت العدوان ، بل على العكس من ذلك فان الاعتداء رذيلة وظلمة تسبب المرض النفسى ، وتحيل قلب الانسان جحيما لا يطاق ، فالمعتدى آثم ظالم لنفسه ولغيره ومغرور ، لذلك ينصح الله الناس فى قوله تعالى :

« ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » (البقره ١٩٠)

ويقول الرسول — ﷺ — :

« المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على آذاهم أفضل من المؤمن الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على آذاهم » (١)

والأمن . والأمل ، إنما يملأ قلب الصابر على الأذى ، الكاظم الغيظ الذى يدفع السيئة بالحسنة تأييداً لقوله — ﷺ — :

« من كظم غيظه وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيمانا » (٢)

---

(١) ذكره أحمد فى مسنده والبخارى فى الأدب ، والترمذى ولابن ماجة ، والسيوطى فى الجامع الصغير ..

(٢) ذكره أحمد فى مسنده ، والبخـــارى ومسلم والترمذى والنسائى ، وابن ماجة والسيوطى فى الجامع الصغير ..

ليس قلب المؤمن غابة تسكنها وحـــوش كاسرة .. كما يدعى (فرويد) وتلامذته ، إنما قلب المؤمن عامر بالمحبة ، مفعم بالخير ، لا ينطبق عليه شعار « كل أو فأنت مأكول » !!! يقول الرسول - ﷺ - :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (١)

وإن هذا الحب ليظهر فى سلوك المؤمن فى جميع أقواله وأعماله ، ويعتبر سمة ملازمة لشخصيته ، فلا يتأثر بضروب الأذى والعدوان ، بل يحيلها جميعا إلى عفو وتسامح وإحسان ، فيرتفع عن الانتقام بكظم الغيظ والصبر على الاعتداء ، ثم يرقى إلى مقام العفو عن الاساءة ، فيصبح قلبه نوراً بلا ظلمة ، وسكينة بلا قلق وزمت ، حتى أنه فى آخر الأمر يحسن بدلا من الاعتداء، ويعطى بدل الاستئثار والاستحواذ ، تصديقا لقوله تعالى :

« والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين »

(آل عمران ١٣٤)

هذا هو السلوك السوى لكمال الانسانى فى أروع صوره ، وأجمل حالاته ممثلا فى قوله تعالى :

« فاصفح الصفح الجميل » (الحجر : ٨٥)

« فاعفوا وأصفحوا » (البقرة : ١٠٩)

« وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم » (البقرة : ٢٣٧)

هذه هى التربية الحقة للنفس ، والتى تستهدف الصحة النفسية ، ليصبح الانسان

---

(١) ذكره ابن أبى الدنيا فى ذم الغضب عن أبى هريرة والسيوطى فى الجامع الصغير.

أليفا آلفا ، طاهرا متطهراً ، ولا يحمل بغضاء لأحد ولا ينافق ولا يرائي أحدا وإنما ظاهره كباطنه وقلبه يشع نورا ومحبة ويتأكد ذلك في قوله تعالى :

« إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته أخوانا »

(آل عمران : ١٠٣)

فالتسامح والغفران والتوبة قوام الحيـــاة الإنسانية السليمه ، ويقول الرسول ﷺ :

« من لا يَرحم لا يُرحم ، ومن لا يَغفر لا يُغفر له،ومن لا يَتب لا يُتب عليه » (١).

والمؤمن جواد .. سخي .. صديق .. صدوق يسارع إلى الخير ويزكى نفسه ، ويطهرها بصالحات الأعمال .. لكن نظرة علمـــاء النفس الحديث للانسان الطيب سطحية جداً يعوزها الفهم الرشيد لنفسية الرجل المؤمن . . ويقول الرسول ﷺ في ذلك :

« المؤمن هين لين حتى تخاله من اللين أحمق » (٢).

وسلاح المؤمن الذى يتقوى به فى رحلة الحياة الشاقة هى حب الله تعالى تجده راضيا أبدا ، ذاكراً لله فى السر والعلانية ، مطمئنا إلى طريقه ، فلا نزعات لا شعورية عدوانية ، ولا مكبوتات أو دوافع غامضة ، ولا تصرفات إنحرافية قسرية ، ولا أفعال تحويلية تدميرية إلى الذات ، أو ما يسميه علماء النفس العدوان المرتد أو العدوان على الذات إذا فشل العدوان على الغير أو إلى الموضوعات الخارجية لقوله تعالى :

---

(١) ذكر هذا الحديث الطبراني في الكبير عن جرير والسيوطي في الجامع الصغير .

(٢) البيهقي في شعب الايمان عن أبي هريرة والسيوطي في الجامع الصغير .

« فما وهنوا لما أصابهم » (آل عمران : ١٤٦)

إنما المؤمن جلد صبور ، وراسخ العلم ، مطمئن القلب فى جميع الأحوال لقوله تعالى :

« هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم »
(الفتح : ٤)

« والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا »
(آل عمران : ٧)

فأى طريق إلى الصحة النفسية أفضل من هذا الطريق ، وأى الطريقين أسلم مسلكا ، وأى غاية أسمى من هذه ؟ .. وبمعنى آخر أى الطريقين أفضل للصحة النفسية ، طريق الحب والألفة والخير والاحسان والسلام ، أم طريق التنفيس بالعدوان والظلم وإثبات الذات ؟ » أو بمعنى آخر : « كل أو فأنت مأكول »..

أم قول الرسول ﷺ :

« تبسمك فى وجه أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل فى أرض الضلال صدقة ، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق صدقة » (١) .

« ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (الزلزلة : ٨)

أمن الأفضل أن يسعى الإنسان فى الأرض فسادا وضياعا ، وأن يحيا فى فزع دائم وخوف مستمر أم يدخل إلى حظيرة الإيمان فتتبدل الظلمة نورا . . والخوف أمنا . .

---

(١) سيجموند فرويد – الموجز في التحليل النفسى .

هل قول الحق تعالى .. وهو الخالق للنفس البشرية ، العالم بالطريق الصالح لسلامة القلب ، وكمال النفس ، فى الدنيا والآخرة أفضل ، وأصدق أم . . طريق أصحاب التجاريب السطحية التى تصدق حينا ، وتفشل أحيانا ، ويكذب أصحابها منهج بعضهم البعض كل يوم ، فتتعرى نظرياتهم وتظهر انا عن تفهم قاصر لحقيقة النفس البشرية ، أو بمعنى آخر .. قول الحق تعالى :

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » (فصلت : ٣٤)

أم زعم أصحاب النظريات النفسية الحديثة ، الواسعة الانتشار ، والذى يزعم أصحابها أن الاضطرابات العصابية هى نوع من تفجر الرغبات الجنسية، والمخاوف المكبوتة فى اللاشعور ، والتى تم كبتها فى سنين العمر المبكر ، والتى بقيت على هذه الحالة فى اللاشعور ، ثم حدث شيئا ما فحركها ، فبرزت فى صورة أعراض عصابية (١) ، وانه لا يمكن فى رأيهم علاجها إلا عن طريق التنفيس عنها إلا بطريق العدوان ..

لقد جاء الرسول ﷺ رجلا فقال : إن لى جارا يؤذينى قال الرسول ﷺ : انطلق فاخرج متاعك إلى الطريق . . فأخرج متاعه . . فاجتمع الناس اليه .. فسأله بعضهم : ما شأنك ؟ .. قال : ان لى جارا يؤذينى . . فدعوا على المعتدى قائلين : اللهم إلعنه .. اللهم اخزه .. فبلغه ذلك .. فأتى المعتدى عليه وقال له : ارجع إلى منزلك والله لا أوذيك أبدا (١) ..

هذه الحيلة اللطيفة المهذبة فى معالجة العدوان قد أباحها الاسلام لأنها سبيل

---

(١) الامام ابن القيم الجوزية - الطرق الحكمية في السياسة الشرعية — تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد سنة ٦١

لتخليص الإنسان من ظلم غيره دون رد العدوان ، وبديل لاستباحة الحرمات واسقاط الأمر بالمعروف ، وإستخدام القسوة فى رد الاعتداء ..

لذلك فان علم النفس الاسلامى يستهدف العمل الطيب ، والكلمة الطيبة ، التى يجدها أجدى فى علاج النفوس المريضة من العدوان ، فالصفح الجميل علاج نفسى يحيل البغض والكراهية حبا ، والبعد والنفور قربا ..

« وقولوا للناس حسنا » (البقرة : ٨٣)

والخطاب هنـــا لجميع الناس . . كل الناس . . مسلمهم وكافرهم . . طائعهم وعاصيهم .. فالصفح والعفو ، والكلمة الطيبة أبواب الحب والرحمة والنورانية والشفافية والصفاء ..

« وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم » (النور : ٢٢)

وإن فى معالجة العدوان بالصفح الجميـــل والرد على الافراط والتفريط بالاعتدال والاستقامة ، هو الطريق على تبدل الخوف بالأمن ، والشك بالإيمان، والحقد والحسد بالألفة والمودة .. والبغض بالمحبة ..

الفصل الثالث

التوبة ميلاد جديد

يخالف علماء النظريات النفسية الحديثة بعضهم البعض فى الاتجاهات الخاصة بتأثير الماضى على الحاضر فيما يتعلق بالسلوك الإنسانى ..

ويرى المدافعون عن أهمية الحاضر المستمر بأن الماضى يمكن أن يكون له دلالة فى الحاضر .. وذلك من خلال تأثيره على العوامل المعاصرة ، فليس هناك حاجة إلى تناول الماضى ، والرجوع اليه كما يفعل أصحاب التحليل النفسى .. إذ الحاضر هو الماضى الممتد ..

ليس هناك اذن أى معارضة حقيقية فى تأثير الماضى المستمرة على الحاضر ، وذلك من خلال فاعلية العوامل والقوى والمؤثرات المعاصرة التى تتمثل فى الأفكار .. والذكريات .. والاستعدادات ..

ومن ناحية أخرى .. فان هناك من العلماء من يدافع عن أهمية الوقائع الماضية .. مستقلة عن الحاضر .. بزعم أن هذه الوقائع تلعب دورا هاما فى تغيير الشخصية الإنسانية .⁽¹⁾

ويظهر الخلاف الرئيسى بين الموقفين .. حول مسألة ما إذا كانت العوامل الماضية التى تلعب دورا رئيسيا وتوجه وتؤثر فى السلوك الحاضر يمكن التوصل اليها من خلال النظر فى هذا السلوك وحده دون الرجوع إلى الماضى .. كما ينصب اهتمامهم أيضا حول مسألة أخرى يمكن صياغتها فى التساؤل الآتى :

---

(١) ك. هسول ـ نظريات الشخصية من ص ٤ ٦٩٣ وما بعدها ترجمة د. فرج أحمد وآخرين .

هل المعرفة الخاصة بوقائع الماضى تقدم لنا معرفة جديدة ذات طبيعة حاسمة؟.

لقد وقف المتخاصمون من أصحـــاب النظريات النفسية مواقف منقسمة ومتناقضة حول هذا الموضوع ، فبعضهم يرى أن الوقائع التى تحدث فى الحـاضر ترتبط ارتباطا جذريا وبانتظام بوقائع حدثت فى الماضى ، وأن ارتقاء السلوك الحاضر هو نتاج عملية منتظمة ومستمرة . يمكن حصرها فى مجموعة من الأسس ..

وعلى العكس .. يرى غيرهم مثل .. ليفين وروجرز(١) .

إفتقار التقدم الإرتقائى إلى الإستمرار استناداً إلى ما يلاحظونه فى الناضج الراشد .. إذ أنه يستقل استقـــلالا جزئيا عن الوقائع التى حدثت له فى فترة الطفولة المبكرة .. أو فترة المهد ..

ويؤكد « ليفـــين » تمشيا مع هذه النظرة ، أن هناك تفككا فى إرتقاء الشخصية عبر رحلتها من الطفولة إلى الشباب ، بل يرى أن هنـاك فصلا واضحـا بين سنى الطفولة والبلوغ ، وذلك عندما يعمل الراشد على احلال الاحتياجات الحضارية والروحية كبديل للدوافع البيولوجية ..

وعلى العموم .. فان نظريات الشخصية لا تهتم كثيراً بعملية الارتقـــاء إلا باعتبارها عملية مستمرة فى بناء الشخصية . يتوجه بحثها فى ضوء مجموعة مفترضة من الأسس النظرية ..

ومن وجهة النظر الإسلامية يعد الارتقاء المقصود نوعا من الربط التنسقى الشخصية فى أدوارها المختلفة .. إذ أن تفسير الحاضر عن طريق ماضى الشخص إنما هو فى واقع الأمر « رجوع إلى مواقف الطفولة غير المميزة » وإرتداد

---

(١) ك. هول ــ نظريات الشخصية ص ٦٩٣ وما بعدها ترجمة د. فرج أحمد وآخرين

الشخصية التي لم تنضج بعد ، أو التي لم تهيأ لها بعد تكامل ملكاتها .. وقدراتها ، إذ أن قواها المدركة لم تنم بعد ليتسنى الحكم عليها على نحو سليم ، بل لم ينم العقل فيها نموا يجعله قادراً على فهم ما يقوم به من ضروب السلوك المختلفة ..

إذن فالدعوى القائلة بربط الحاضر بالماضي ، والإدعاء بوجود اتصال وثيق بين السلوك الحاضر والماضي ، ليس بعيداً عن النقد والتشكك ، إذ أنه مما لاشك فيه وجود تغير جذري عند نضوج الفرد ورفض طبيعي للسلوك الطفلي ، خاصة إذا ارتبط ذلك بالعقيدة الدينية والمعايير الأخلاقية ، والعلوم المختلفة ..

ويبدأ الفرد في مرحلة المجاهدة للنفس ، بنبذ كل ما هو مرذول ، والتحلي بكل ما هو محمود .. وهذا ما يعبر عنه بالتوبة عن المعاصي ، أو الصبر على المحبوب للنفس ، أو تحمل المستكره لها ..

وهذا مما لاشك فيه نوع من الرياضة النفسية التي يمتطيها الفرد ليدفع بها النقص والعجز والضعف ، ليكتمل ما هو ضروري .. فيتحلى بالقيم والأخلاق القويمة ، ويتخلى عن أنانية الطفل ، وكلبية الغضب ، وشهوية الخنزير .. ويتعود على الايثار والبذل والعطاء ..

أما ارتباط الماضي بالحاضر بالصورة التي يفترضها علماء النفس الحديث .. فانه يلغي تقدم الشخصية وتطويرها نحو كمالها .. كما يضرب عرض الحائط بالمجاهدة ويغلق باب التوبة التي هي عنصر أساسي لتكامل الشخصية الإنسانية يقول الرسول ﷺ :

« من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه » (١)

---

(١) رواه مسلم

لذلك ، فانه من الخطا ربط الفرد بماضيه الطفولى بصورة من الصور والادعاء بأن السلوك الحاضر ما هو إلا ماض ممتد .. إذ العبرة حقا لفهم السلوك بحالة الفرد فى نضوجه ، أى عندما يكتمل العقل .. ويستطيع الفرد التعرف على الخطأ والصواب ، والحلال والحرام ، والخير والشر ..

وأول الطريق إلى ذلك التوبة .. والتوبة عرش الايمان ، والتقوى دواء النفس ، كما أن الطاعة لله هى الشفاء الناجع لكل دواء (١) ، وفى ذلك يقول الرسول ﷺ :

« الا أعلمكم ما دوائكم وداؤكم ؟ .. قالوا : بلى يا رسول الله ـ فقال : داؤكم الذنوب ودواؤكم التوبة » (٢) .

والتوبة بهذا المعنى رجوع الإنسان عن إثمه وذنبه ، فيخرج من نفسه حلاوة الفعل الذى كان سببا فى معصيته وانحرافه خروجا أبديا ، حتى كأنه لم يكن هو الذى اقترف هذا الذنب (٣) .

« ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب إلى الله متابا » (الفرقان : ٧١)

إذن يستطيع الإنسان بالتوبة أن يتخلص من أمراضه وآفاته ، ويرجع إلى صحة النفس ، وسلامة القلب ، معافيا من كل مرض ، وليس صحيحا ما يردده بعض علماء النفس الحديث من أن هناك أفعالا قسرية تتحكم فى الشخصية فتندفع

---

(١) الامام الجيلانى ـ الفتح الربانى ص : ٨٩ .

(٢) الرسالة القشيرية ـ الجزء الأول ص : ٢٦

(٣) باتريك ملاهى ـ عقدة أوديب ترجمة د. أحمد زروى مراجعة جميل سعيد

الإنسان بدون وعى منه إلى طريق الانحراف ، ويرونها أفعالا لا يستطيع المرء عنها فكاكا ، لأنها تتسلط عليه وتسيّره حسبما تريد .. فكأن الفرد ، شاء أو لم يشأ ، يسعى وراء الاحساس باللذة وتجنب الألم بصورة أوماليكية مدى الحياة .

ويرى بعض العلماء ان بعض من هذه الأفعال لا شعورية ، وبعضها شعوريا ، أما اللاشعورى ، فيقدم عليها الإنسان دون يقظة أو وعى منه ، أما الشعورى من هذه الأفعال فانه يعرفه ، ولا يسعى اليه ، ولكن هناك قوة قسرية تدفعه دفعا للإقدام عليه ، وتمنعه من التوقف عنه ..

والواقع أن ذلك الاستنباط وهم واهم ، وافتراض لم يثبت له صحة نظراً أو سلوكا ، ذلك أن الإنسان ما دام سليم العقل ، يستطيع أن يبتعد بإرادته عن الخطأ والوقوع فى الاثم .. إذ أن الفطرة السليمة تبصر الإنسان بطريق الحق ، وتحذره من طريق الباطل ليرقى فى سلم التكامل الأخلاقى باتباع السلوك السوى ، إلا أن ذلك يتطلب من الفرد أن يصدق مع نفسه ، ويتوب عن ذنوبه ويندم عما إقترف من إثم .. ثم عليه أن يستنير بالقيم العليا ، ويبدأ ذلك بالسلوك الآتى:

١ — أن يملك لسانه من الغرور بنفسه ، وأن يتجنب الغيبة والنميمة والكذب ..

٢ — أن لا يحسد أحدا ، ولا يرى فى قلبه حقدا على أحد .

٣ — أن يفارق أصدقاء السوء ، إذ أنهم السبب المباشر فى الإنحراف لأنهم يقودونه إلى طريقهم فيضيعون عليه عزمه فى التوبة ..

٤ — أن يكون نادما ومستغفرا عن ذنوبه ، مجتهدا فى طاعة ربه (١) ..

---

(١) الامام الشعرانى : الأخلاق المتبولية — ص ١٧٧ وما بعدها

وليس صحيحا أن التائب يحمل عقدة ذنب أو شعوراً بالذنب إنما الصحيح كما يقول الرسول ﷺ :

« الندم توبة »(١) .

والندم موقف علم ، وهو ثمرة التوبة ويتحدد الندم فى العزم على :

١ ـ عدم العودة إلى الإثم ..

٢ ـ البعد عن الرذائل .. والفرح باتيان الخير والتوبة عن الشر ..

وبذلك يصدق فى التائب قوله تعالى :

« ان الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين » (البقرة : ٢٢٢)

« إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » (النساء : ١٧)

« وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » (النور : ٣١)

ويرى الأستاذ على الخواص(٢) أن من شروط التوبة النصوح أن لا يجد العبد فى قلبه حلاوة لتلك المعصية التى تاب عنها حتى فى حـــال النوم .. إذ أن احتلامه بها ـ أى التحلم بها ـ يدل على بقاء حلاوتها فى قلبه ولولا وجـود تلك الحلاوة فى قلبه لما تفكر ولا حلم أو احتلم ..

وإذا اهتدى العبد الصادق إلى طريق التوبة ، فانه يصالح ما بينه وبين غيره ، ويسترضى خصومه ، ويعمل على إذلال كبر نفسه ، فيتقبل الآلام بصدر رحب، ويسعى لراحة الناس بقدر ما يستطيع .

---

(١) ذكره ابن ماجة وأبى حيان والحاكم وصحح اسناده من من حديث ابن مسعود .

(٢) الامام الشعرانى ـ الأخلاق المتبولية تحقيق د. منيع عبد الحليم ص : ١٧٧ .

ثم أنه يسعى إلى الله بأنواع الطاعات (١) ، فيقوم الليل ، ويصوم النهار ، ويؤدى الفرائض ويزيد كل يوم فى مجاهداته ويوجب على نفسه تحمل أعمال جليلة ، ويمتنع عن اللقمة الحرام ، ويواظب على تلاوة الذكر ، ولا ينظر إلى المحرمات ، ولا يستعبد أحدا ، ولا يسأل أحداً شيئاً وهو قانع مستسلم لإرادة الله عملا بقوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا » (التحريم : ٨)

إذن التوبة موقف جديد يغسل الإنسان فيه أوحاله القديمة ، ومخالفاته الماضية ، وأعماله السيئة ، وسلوكه المنحرف .. ليبدأ من جديد ميلاداً جديداً ..

ويؤيد ذلك حديث الرسول ﷺ فى قوله :

« ان الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »(٢) ..

---

(١) ابن أبى سعيد أبى الخير ـ أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد ص : ٥١ ترجمة اسعاد عبد الهادى ـ مراجعة د. يحيى الخشاب ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة .

(٢) رواه مسلم

الفصل الرابع

العمل الصالح

يعتبر العمل عند علماء النفس المحدثين طريقا علاجيا مألوفا للأمراض النفسية والعقلية ، وترجع فائدة العمل عندهم إلى أنه ينزع المريض من عالم الخيال الذى يسبح فيه ، ويرده إلى عالم الواقع ، كما أنه وسيلة لدفع الملل وتمضية أوقات الفراغ أو الترفيه عن النفس ، ويرى هؤلاء العلماء أن العلاج بالعمل هو الخطوة الأولى التى يسترد بها مريض الاكتئاب العنيف الأمل والثقة فى نفسه ، والعمل هنا طريق التعبير والافضاء المريح ، كأنه بمثابة اللعب عند الأطفال (١).

ولا يوافق علم النفس الاسلامى على هذه النظرة القاصرة للعمل ، فالعمل ليس نشاطا هادفا يقصد منه إرضاء المريض النفسى ، وتقوية قدرته على التركيز ، واشعاره بالفوز ، إذ أن هذا الأسلوب العلاجى مؤقت ما يلبث أن يرجع المريض بعده إلى حالته المرضية السابقة ..

أما العمل فى التشريع الاسلامى ، فانه يستهدف مصلحة العامل فى الدنيا والآخرة ، فهو بهذا المعنى طريق عدل الصحة النفسية ، فلا يعمل العامل لرغبة اشباع ذاتى ، ولا يقصد منه الترويح عن النفس وإنما العمل هو الوسيلة الناجعة للاستقامة والاعتدال ، كما أنه السبيل الطيب للثواب فى الآخرة ، وإذا فهم العامل ذلك جيداً ووعاه ، فانه سيقبل على عمله حتما برضى واطمئنان واخلاص ، وهذا مما لا شك يحقق الصحة النفسية المأمولة .(٢)

---

(١) د. أحمد عزت راجح — الأمراض النفسية والعقلية ص ٣٢٣ — ٣٢٤ .

(٢) يقول تعالى : « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا (الكهف : ١٨) .

« ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم » (يس : ٣٥)

العمل لا يقتصر على ضروب النشاط اليدوى والذهنى المختلفة ، وإنما يدخل فى باب العمل ، الأمر والمعروف والنهى عن المنكر ، وأعمال البر والاحسان ، والإيثار ، وخدمة الناس ، وقضاء مصالحهم ، كما يدخل فى العمل كظم الغيظ ، والتسامح ، والصبر على الأذى ، فليس العمل مجرداً من الفضائل ومكارم الأخلاق وإنما العمل مجاهدة يقصد منها الوصول إلى الخير الفاضل فى الدنيا والآخرة .. يقول الرسول ﷺ :

« ان الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا وابتغى به وجهه »(١)

لذلك فقد قرن العمل فى علم النفس الاسلامى بالأخلاق ، وبذلك يشجب كل النظريات الحديثة التى تفصل بين العمل والإيمان كسلوك يرتبط ارتباطا وثيقا بالفضائل ، تصديقا لقوله تعالى :

« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » (الزلزلة : ٧)
« قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل » (الأنعام : ١٣٥)
« انى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى » (آل عمران : ١٩٥)
« والعمل الصالح يرفعه » (فاطر : ١٠)

فالعمل فى علم النفس الاسلامى هو جهاد النفس ضد التبطل والسلبية والضياع واللهو والعبث واللعب ، هو رسالة انسانية تفوق فى ثوابها ظاهر العبادات ، لأنه مجاهدة النفس ..

---

(١) رواه النسائي عن أبي امامة ..

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة » ..
(النحل : ٩٧)

يقول الرسول ﷺ :

« الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، والرغبة فيها تكثر الهم والحزن، والبطالة تقسي القلب » (١)

والنفس إذا تركت دون مجاهدة ، استملحت الراحة واستكانت إلى الخمول واستمرأت التقاعس عن بذل الجهد وتحمل العنت والمكابدة.. وهذا بطبيعة الحال مضيعة للوقت وفساد للفكر ، وطلب للحظوظ والأهواء ، ولذلك يقول الله تعالى في كتابه العزيز :

« وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما » (النساء : ٩٥)
« فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » (النساء : ٩٥)
« ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه » (العنكبوت : ٦)
« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » (النساء : ٩٥)

ولذلك يطلب الرسول ﷺ من الناس الدقة في العمل إرضاء لله :

« ان الله يحب إذا عمل أحدكم العمل أن يتقنه » (٢)

والعمل بكل صوره جهاد في الله . ولله .. وفي سبيل الله .. وهذا ما نراه عند كثير من الأئمة في قولهم :

(١) رواه القضاعي عن ابن عمر ..
(٢) رواه الطبراني .

« من زاد عليك في العمل .. زاد عليك في الخلق »

والعلم إذا لم يصاحبه العمل لم يكن إلا ظنا ، فإذا صاحبه العمل كان جهاداً ، لأنه إيجابي مثمر ، والعلم الذي لا يكون سلوكا ينحرف بالإنسان ويهوى به لأنه لا نفع فيه ، ومثل ذلك كالذي يحمل الماء بيديه مع وجود جرة فارغة ! فهو لم يربط العلم بالعمل ، وكان الامام مالك - رضي الله عنه - يقول : لا أشتغل إلا بما تحته عمل !

والعمل المنتج الثمرات يؤمن الإنسان من غــوائل التشكك والانحراف والريبة والغرور ، بل من الخوف .. والجوع .. والجدل الذي لا طائل تحته ، فهو وقاية للانسان من التحلل والتفكك والضياع ..

والعمل المستهدف في علم النفس الاسلامي إنما هو العمل الصالح الذي يرمي إلى الخير للانسان ، والمنفعة للناس جميعا ، وليس العمـــل الصالح الذي يعتقد صاحبه أنه خدم به غرور نفسه لقوله تعالى :

« أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا » (فاطر : ٨)

والعمل هنا يتجاوز النشاط الظاهري إلى الباطن ، فهناك النيـــة والقصد والهمة ، يقول الرسول ﷺ :

« فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فان هو هم بها فعملها كتبها الله عنده عشرة حسنات » (١).

فالله لا يهتم إذن بالأعمال الظاهرة التي ليس فيها صدق واخلاص ونية وطاعة له تعالى يقول الرسول ﷺ :

---

(١) أخرجه مسلم والبخاري عن ابن عباس .

« ان الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيا يبدو الناس ، وهو من أهل النار وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيا يبدو الناس وهو من أهل الجنة »(١)

فالنية أساس العمل الصالح .. يقول الرسول ﷺ :

« إنما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى »(٢)

كما أن كثرة العمل لا تعنى قبوله من الحق تعالى ، إنما المهم فى العمل أن يكون مقترنا باخلاص ، حتى وان كان ضعيفا ، فكل ميسر لما خلق له ، وكل يعمل على قدر طاقته .. يقول ﷺ :

« خذوا من العمل ما تطيقون ، فان الله تعالى لا يمل حتى تملوا » (٣)

ويقول ﷺ :

« شددوا ، وقاربوا ، وابشروا ، واعلموا أنه لن يدخل أحدكم الجنة عمله .

قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟..

قال : ولا أنا .. إلا أن يتغمدنى الله منه بمغفرة ورحمة ، وأن أحب العمل إلى الله أدومه وان قل ..

يقول الرسول ﷺ :(٤)

« على كل مسلم صدقة » ..

قالوا : يانبى الله فان لم يجد ..

قال : يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق ..

---

(١) رواه البخارى ومسلم .. .

(٢) رواه البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب ...

(٣) رواه البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها .

(٤) رواه بخاري ..

قالوا : فإن لم يستطيع ؟.

قال : يعين ذا الحاجة ..

قالوا : فان لم يجد ..

قال : فليأمر بالخير أو بالمعروف ..

قالوا : فان لم يفعل ؟..

قال : فليمسك عن الشر فانه له صدقة .. (١)

---

(١) رواه البخاري رضي الله عنه

الفصل الخامس

الرؤيا لا أضغاث أحلام

الرؤيا كعلم له أصل فى الشريعة الاسلامية اذ أن هناك عديد من الآيات البينات قد ذكرت الرؤيا فى قوله تعالى :

«واذ يريكهم الله فى منامك قليلا» (الانفال ٤٣)

تأكيداً للرؤيا الحق فقد تفضل الله تعالى على الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى منامه فصور له ضعف وقلة جيش الأعداء ليطمئنه ومن معه على إنتصارهم على أعداء الله .. وليثبتهم فى قتالهم ... ولو ترك الله الرسول — صلى الله عليه وسلم ولم يبشره بهذه الرؤيا لإعتقد فى كثرتهم ، واتردد فى الأمر ، وكان هناك تنازع بين الإقدام على حربهم وعدمه ...

كما أن القرآن الكريم يفرق بين الرؤيا والأحلام فى قوله تعالى :

«يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى» (يوسف ٤٣)

«قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين» (يوسف ٤٤)

يقول الرسول — صلى الله عليه وسلم : «إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنما هى من الله فليحمد الله عليها وليتحدث بها ، وإذا رأى غير ذلك مما يكرهه فإنما هى من الشيطان ، فليستعذ بالله، ولا يذكرها لأحد فانها لا تضره ..

فهناك إذن رؤى صادقة ، كما أن هناك أضغاث أحلام ، فليس كل ما يراه الإنسان فى المنام صحيحاً يجوز تعبيره ، انما الصحيح منه ما كان من الله تعالى ، أو يأتى به ملك الرؤيا الذى يدعى «صديقون» أو «روحائيل» ، أما خلاف ذلك من المنامات فيعد أضغاث أحلام لا تفسير له ولا تأويل (1) ..

---

(1) الشيخ ابن شاهين الظاهري — الإشارات فى علم العبارات ص ٣-١٣

ويقسم الشيخ النابلسي(١) المنامات إلى ثلاثة أقسام :

١ — البشرى :

وهى المبشرات أو الرؤيا الصالحة والصادقة . ولقد سأل أبو ذر الغفارى عنها ولقد سمع أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ الرسول ﷺ ـ يقول :

« لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، : وما المبشرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة(٢)

٢ — رؤيا تحذير :

وهى من تخاويف الشيطان وافزاعه النائم ، وهذه رؤيا باطلة لانه لا يعقل أن يفزع الله تعالى النائم أو يخيفه .. يقول ﷺ :

إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا . . ويستعذ بالله من الشيطان ثلاثا ، ويتحول عن جنبه الذى كان عليه (٣) ..

٣ — رؤيا أماني النفس :

وهى أحلام النفس وأمانيها ، وهى تعد رؤية باطلة ..

اذن هناك فرق بين الرؤيا والأحلام ، فالرؤيا لا تكذب ، والحلم لا يصدق.. والحلم بهذا المعنى هو الرؤيا الباطلة لقوله تعالى :

« بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراه بل هو شاعر » (الانبياء : ٥)

والحلم أو الرؤيا الباطلة تنقسم إلى سبعة أقسام :

---

(١) الشيخ عبد الغنى النابلسى ـ تعطير الأنام فى تعبير المنام ص : ١ ـ ٨

(٢) رواه أبو هريرة ـ رضى الله عنه

(٣) رواه مسلم عن جابر

١ — حديث النفس :

حديث النفس تعبير عن أماني النفس أو تمنياتها ورغباتها الدنيوية وحظوظها الشهوية .. وأضغاثها وخيالاتها .. مثل أن ينام النائم وفي نفسه لذة محرمة ، أو رغبة كاذبة ينزع إلى تحقيقها ، ويرد اشباهها .. وكل أماني النفس لا يعول عليها لأنها من الشيطان .. وأن الله تعالى ينسخها فلا تحقق كما أنها كأحلام ليس لها من تفسير لقوله تعالى :

« وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم ».

(البقرة : ١١١)

« إلا اذا تمنى القى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان »

(الحج : ٥٢)

« ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى »

(الحديد : ١٤)

٢ — الحلم الموجب للاغتسال :

وهو الحلم الذى يتوجب فيه الطهارة من الجنابة ، وليس لهذا الحلم عند الأئمة تأويلا ، إلا أن الامام ابن سيرين (١) .. يرى أن الجنب أو المرأة الحائض يمكن أن ترى رؤيا صادقة فلا تخل الجنابة أو الحيض بصحة الرؤيا فى ذاتها ، وانما المدار على موضوع الرؤيا ، فاذا كانت تتعلق بمواقعة أو علاقة محرمة فانها تعد من الأباطيل ، ومن تحسين الشيطان الفواحش :

« الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء » (البقرة : ٢٦٨)

---

(١) الامام ابن سيرين ـ منتخب الكلام فى تفسير الأحلام ص ١٨ هامش كتاب تعطير الأنام .

٣ تهاويل الشيطان :

أحيانا يتسلط الشيطان أو يسلط أتباعه على النائم ليفزعه ويرعبه ويخيفه ويهول اليه الأمر ويلقى الحزن والغم والهم فى قلبه ليخيفه وقد ورد فى ذلك قوله تعالى :

« إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله » (المجادلة : ١٠)

« فقاتلوا أولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا »

(النساء : ٧٦)

٤ — افعال السحرة :

يقوم بعض السحرة من الانس أو الذين يعوذون بالجن فى بعض أعمال السحر والممارسات النفسية ، لاستجلاب منافع . . أو موافقة بعض الرغبات الضالة المنحرفة . . ويستعين السحرة ببعض الرموز والطلاسم والأدعية والتعاويذ والأوفاق لتنفيذ مآربهم ، ويدخلونها أحيانا فى روع النائم . . وقد ورد ذلك فى قوله تعالى :

« وانه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقا »

(الجن : ٦)

« فإذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى » (طه : ٦٦)

« يعلمون الناس السحر » (البقرة : ١٠)

« أسحر هذا ولا يفلح الساحرون » (يونس : ٧٧)

« وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا » (الفرقان : ٨)

٥ — غلبة الطبائع :

الإنسان طبائع أربعة .. السوداء .. والصفراء .. والبلغم .. والدم (١)، وعندما تتكدر هذه الطبائع ويختلف بعضهـا مع بعض ، ويغلب أحداها على الأخرى فان النائم فى هذا الحـال يرى بحسب الطبيعة الغالبة عليه .. فاذا كان غاضبا .. كان حلمه عدوانا أو انتقاما أو كيدا .. وإذا كان خائفا كان كدرا وغما أوحانقا فيكون حلمه حسدا وحقدا .. وإن كان راغبا فى شهوة محرمة كان فحشا وفجرا وفسقا .. ولذلك تعد هذه الرؤى من الأباطيل التى لا تفسير لها ..

يقول على - كرم الله وجهه - : « لا رؤيا للخائف إلا ما يحب » .. ومعنى ذلك أن إفزاع النائم أو تخويفه لا يعد من الرؤيا ، أما إذا كان ما يراه النائم فرجا لغمة ، وتفريجا عن كربته ، كانت من الرؤيا الحقة لأنها تبشره له بذهاب الحزن والخوف ..

٦ — الذكريات القديمة :

يقول بعض الأئمة أن الذكريات القديمة جدا ويسمونها بالرجيع ، والتى يرى صاحبها نفسه فيهـا فى زمن مضى منذ عشرين عاما أنهـا من الأضغاث والأباطيل ... كأن يرى النائم نفسه فى المنـام صبيا صغيراً ، رغم أنه شيخ فى الخمسين من عمره ..

٧ — الحلم الشيطانى :

أحيانا يتعرض الشيطان للإنسان بوسوسته لصرفه عما أمره الله ، كأن يغضبه، أو يحسن له أعمال الشر فى النوم فيوسوس له ، برفع التكاليف ، ويغويه بالافطار

---

(١) ابن القيم الجوزية - الروح ص ١٠-٢٠

فى رمضان ، أو الزنا .. أو غير ذلك من الفواحش ، ولا يعد ذلك من الرؤيا ، لأنه أمر منكر ونهى عن المعروف ..

« ان الشيطان ينزغ بينهم » (الاسراء : ٥٣)

« وأما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله » (فصلت : ٣٦)

أما الرؤيا الحق فهى على خمسة أقسام :

١ — الرؤيا الصادقة :

وهى الرؤيا الظاهرة الصدق ، وهى جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة وهى واردة فى قوله تعالى :

« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين » (الفتح : ٢٧)

فالرؤيا الصادقة بهذا المعنى هى من الله مباشرة بدون واسطة ... كما أنها لا تحتاج إلى تعبير ولا معبر أو مفسر ، والرؤيا الصادقة نجدها أيضا فى قصة سيدنا ابراهيم ـ عليه السلام ـ فى قوله تعالى على لسانه :

« يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك » (الصافات : ١٠٢)

وفى قوله تعالى :

« وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا » (الصافات : ١٠٥)

ورؤيا يوسف ـ عليه السلام فى قوله تعالى :

« يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » (يوسف : ٤)

وروى محمد بن وزير هذه الرؤيا :

« رأيت النبي ﷺ في المنام فدنوت منه وقلت : السلام عليك يا رسول الله » فقال لي : وعليك السلام يا محمد بن وزير .. ألك حاجة ؟ ! ! قلت : نعم يارسول الله . دعوات أدعو بها في سفرى ، وفي حضرى ، وأستعين بها على أمورى ، فقال لي : أقعد .. هنا عليك ثلاث دعوات ، فادع بها في كل وقت شدة ، وفي دبر كل صلاة .. قل :

« يا قديم الاحسان »

« ويا من احسانه فوق كل احسان »

« ويا مالك الدنيا والآخرة »

ثم التفت فقال : اجتهد أن تموت على الاسلام والسنة ، وعلى حب هؤلاء .. أبو بكر .. وهذا عمر .. وهذا عثمان .. وهذا على .. فانه لا تمسك النار(١) .

٢ — الرؤيا الصالحة :

وهي بشرى من الله إلى العبد ليحيي في نعمة وسرور ويثبت بها الله سبحانه وتعالى قلبه ، وقد سأل أبو ذر الغفارى الرسول ﷺ عن المبشرات فقال :

« هي رؤى يراها المؤمن ، فتشحق له » .

وقد بينها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز في قوله :

« فلما أن جاء البشير القاه على وجهه » (يوسف : ٩٦)

« فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى » (هود : ٧٤)

وقوله تعالى :

---

(١) عن الصابوني وذكره المحب الطبرى في الرياض النضرة ص : ٤٣ الجزء الأول

« لهم البشرى فى الحياة والآخرة » (يونس : ٦٤)

ومن المبشرات ما هى تحذير من الوقوع فى الذنوب ، والتنبيه على الضلالات والزجر عن المخالفات ، فهى بمثابة انذار من الله تعالى للعبد ، وعون له فى تجنب الخطيئة ، والبعد عن الهوى ، وهى تعد بهذا المعنى طريقا للصحة النفسية فى الدنيا والآخرة ، وقد وردت فى قوله تعالى :

« وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين » (الكهف : ٥٦)

والمرسلون إما أن يكونوا أنبياء أو ملائكة كالك الرؤيا الذى يبشر وينذر .

روى عن ابى حذيفة (١) قال طلبت النبى ﷺ فوجدته فى حائط من حوائط المدينة ، نائما تحت شجرة ، فكرهت أن أوقظه فوجدت عسيبا (أى جريدا — وهو سعف النخل) فكسرته فاستيقظ النبى ﷺ فقال لى : أبشر بالجنة ، فجاء أبو بكر فاستأذن من وراء الحائط فرد السلام وبشره بالجنة ، ثم جاء عمر ففعل مثل ذلك وبشره بالجنة ، ثم جاء عثمان ففعل مثل ذلك وبشره بالجنة ، ثم جاء على ففعل مثل ذلك (٢) .

وقد ورد عن الرسول ﷺ هذا المعنى إذ قال : ألا أنبئكم برجالكم من أهل الجنة ، قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : النبى فى الجنة ، والشهيد فى الجنة ، والذى يزور أخاه فى الجنة (٣) .

وقد ثبتت الصديقية لأبى بكر والشهادة الثلاثة .

---

(١) هو حذيفة بن اليمان . أحد المبشرين بالجنة رضى الله عنه .

(٢) أخرجه خشيمة بن سليمان وذكره الطبرى فى الرياض النضرة ص : ٤٥

(٣) اخرجه ابو بكر الاسماعيلى فى معجمه .

كما روى عن عائشة بنت سعد ابن أبي وقاص أنها قالت : سمعت أبي يقول: « رأيت أبي في المنام قبل أن أسلم بثلاثة أيام ، كأني في ظلمة لا أبصر شيئا ، ثم أضاء لي قمر فتبعته ، كأني أنظر الى ما سبقني الى ذلك القمر ، فانظر إلى زيد بن حارسة وإلى على بن أبي طالب وإلى أبي بكر.. وكأني أسألهم : متى إنتهيتم إلى ها هنا ثم بلغني أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعو إلى الإسلام في الخفاء.. فلقيته بعد صلاة العصر فسألته : إلى من تدعو ؟ قال : تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ؟ . . . قلت أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله..» ولقد تحققت هذه الرؤيا مباشرة فلم يسبق سعد إلى الإسلام إلا من رآهم في منامه . (١)

كما روى ابن عباس أنه رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- في المنام على برذون وعلى رأسه عمامة من نور ، وبيده قضيب من الفردوس ، فقلت يارسول الله: إني في شوق إلى رؤياك ، وأراك مغادراً ، فالتفت إلى وتبسم ثم قال : إن عثمان ابن عفان أضحى عندنا في الجنة ملكا عروساً وقد دعينا إلى وليمته وها أنا مبادر إليه .(٢)

كما روى إبن عمر قال : خرج علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذات غداة بعد طلوع الشمس فقال : رأيت قبل الفجر كأني أعطيت المقاليد والموازين فأما المقاليد فهى المفاتيح وأما الموازين فهذه التي يوزن بها ، فوضعت في كفة ووضعت أمتي في كافة فوزنت بهم فرجحت،ثم جيء بأبي بكر فوزن بهم فرجح ثم جيء بعمرفوزن بهم فرجح ، ثم جيء بعثمان فوزن بهم فرجح ، ثم

---

(١) الرياض النضرة - ص ١٧٦

(٢) عن ابن عباس من حديث الملا ، وذكره الطبري في الرياض النضرة ص ١٧٦؛ ج٢

رفعت.. (١) .

ويعلق المحب الطبرى على هذه الرؤيا التى لا تحتاج إلى تعبير أن الرسول صلى الله عليه وسلم - قد رجحت كفته على الأمة ، وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان ، ثم رفع الميزان وهذا إشارة إلى الإختلاف بين المسلمين الذى حدث ..

كما روى عن أبى برده أنه رأى فى المنام كأن ناساً جمعوا ، فإذا فيهم رجل يعلو فوقهم بثلاثة أذرع ، فقلت : من هذا ؟ قالوا عمر ، قلت ولم ؟ قالوا : لأنه فيه ثلاث خصال :

١ - لا يخاف فى الله لومة لائم ...

٢ - وخليفة مستخلف ...

٣ - وشهيد مستشهد ...

وقد قصصت هذه الرؤيا على أبى بكر الصديق ، فدعى عمر بن الخطاب وبشره ثم قال أبو بكر - رضى الله عنه - أقصص رؤياك ، فأعدتها إلى أن بلغت خليفة مستخلف ، فنهرنى عمر وقال : تقول هذا وأبو بكر حى ...

ولما ولى عمر الخلافة فبينما هو على المنبر دعانى وقال : أقصص رؤيـــاك ، فقصصتها فلـــا بلغت ... « لومة لائم » قال عمر : إنى لأرجو أن يجعلنى الله منهم ، فلما قلت : خليفـــة مستخلف ، قال : قد إستخلفنى الله ... واسأله أن يعيننى على ما أولانى ، فلما ذكر شهيد مستشهد ، قال أنّى لى بالشهادة وأنا بين أظهركم ، تغزون ولا أغزو ثم قال : بلى .. يأت الله بها إن شاء الله ، يأتى بها إن شاء الله (٢)

(١) ذكره أحمد فى مسنده والقزوينى الحاكمى فى الأربعين والطبرى فى الرياض النضرة ص ٥٣ ج ١

(٢) ذكره المحب الطبرى فى الرياض النضرة ج ١ ص ٢٧٥ - ٢٧٦

٣ — الرؤيا بطريق ملك الرؤيا :

وهى الرؤيا التى يراها الانسان عن طريق مــلك الرؤيا ويسميه الامام بن سيرين (١) (روحائيل) ، ويسميه الشيخ الامام النابلسى (٢) (صديقون) ، وهذا الملك هو الذى جعله الله يضرب الأمثال بالرؤيا ، كما هو مودع فى علم الغيب ، ومسطور فى اللوح المحفوظ ، وبما هو كائن من خير أو شر وهذا الملك يعرفه الله سبحانه وتعالى بكل شىء ، وبدوره يعرف الانسان ويبشره وينذره ويعلمه ، وهذا الملك اما أن يبشر برؤية حسنة ، وتأتى الرائى فتتحقق فى الواقع بعد أيام ليكون الرائى فى نعمة وسرور ، أو يبشر برؤيــا منذرة ، وهى التى تتحقق مباشرة بعد الرؤيا لكى لا يعيش الرائى مغموما ..

روى أن الرسول ﷺ كان كارها موافقة النصارى أن يضرب بالناقوس فى وقت الآذان ، فرأى عبد الله بن زيد هذه الرؤيا ، فقال : رأيت أنه قد طاف بى فى الليل رجل وعليه ثوبان أخضران وفى يده ناقوس ، فقلت له : أتبيع الناقوس ؟ .. قال : وماذا تصنع به ؟ .. قلت : أدعو به إلى الصلاة ، قال : الا أدلك على خير من ذلك ، فقلت : بلى ، قال : تقول الله أكبر .. الله أكبر .. إلى آخر الآذان ثم تقول إذا قمت إلى الصلاة الله أكبر .. الله أكبر ، وسرد الإقامة إلى آخرها ، فلما أصبح عبد الله بن زيد أخبر الرسول ﷺ بما رأى ، فقال ﷺ أن هذه الرؤيا حق ان شاء الله ، فقم مع بلال وده يؤذن بما رأيت ، فانه أندى منك صوتا ...

ثم أذن بلالا فى المسلمين فسمعه عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فخرج

---

(١) ابن سيرين ، منتخب الكلام فى تفسير الأحلام ص ٣ - ٧

(٢) النابلسى - تعطير الأنام فى تعبير المنام ص ١ - ٨

من بيته قائلا . والذى بعثك بالحق ، لقد رأيت مثل الذى رأى (يقصد ابن زيد) فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فلله الحمد (١) ...

كما روى أن سعد ابن أبى وقاص قال : رأيت عن يمينى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن شمالى يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد القتال ، وما رأيتهما قبل ولا بعد . (يعنى جبريل وميكائيل) . (٢)

كما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : رأيت كأنى فى غنم سود ، ردفتها « (أى تبعتها) ، غنم بيض ، فلم أستبن السود من البيض ، قال أبو بكر : يارسول الله هذه العرب ولدت فيها ثم تدخل العجم فلا تستبين العرب من كثرتهم قال : كذلك عبرها الملك . (٣) (ملك الرؤيا) .

٤ — الرؤيا الرمزية :

وهى من الروح وتحتاج إلى مفسر أو معبر يبين معانيها ويشرح مدلولها ، وهناك شروط سنذكرها فيما بعد ، يجب أن تتوافر فى المعبر الذى يفسر الرؤيا الرمزية ، ويمثل النابلسى للرؤيا الرمزية بالرجل الذى رأى ملكا من الملائكة فقال له ؟ إن امرأتك تريد أن تسقيك السم ، فحدث أن صديقا له زنا بزوجته ، وكانت رؤياه تعبير صادق عما حدث ، إذ أن السم مستور ، كما أن الزنا مستور ...

عن ابن عباس أن رجلا أتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يارسول الله إنى رأيت فى المنام سحابة تسقط عسلا وسمنا ، والناس يعدون أكفهم منهم

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داوود والترمذى وابن اسحاق

(٢) أخرجه أبو حاتم والمحب الطبرى

(٣) أخرجه سعيد بن منصور فى سننه والحاكم ابن عبد الله بن الربيع واللفظ له وهو مرسل

المقل ومنهم المستكثر فى الطلب ، ثم رأيت سببا (حبلا) واصلا من السماء إلى الأرض ، فأمسكت به وعلوته ، وأمسك به بعدى آخر وعـــلاه ثم جاء ثالث وعلاه أيضا ، وإذا بشخص رابع يمسك بالحبل فينقطع، ثم أوصل الحبل فاعتلاه فصلا (أرتفع به) ، وكان يحضر مجلس الرسول ﷺ أبو بكر رضى الله عنه فقال : اتركنى أعبر هذه الرؤيا يا رسول الله قال : عبرها ، فقال أبو بكر : أما الظلة.. فالاسلام ، وأما السمن والعسل فهو القرآن وحلاوته، أما من يعدون أكفهم.. منهم المقل ومنهم المكثر فى الأخذ من القرآن ، وأما الحبل فهو الحق الذى أنت عليه.. أخذت به فعلوت وأخذ به آخر فعلا ، ثم أخذ به آخر فعلا ، ثم أخذ به آخر فانقطع ثم وصل له فعلا ..

كما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : رأيت كأنى أعطيت قدحا كبيرا مملوءا لبنا ، فشربت منه حتى امتلأت ، فرأيتها تجرى فى عروق بين الجلد والعظم ففضلت منها فضلة فأعطيتها أبا بكر ، قالوا : يا رسول الله هذا علم أعطاه الله لك حتى إذا امتلأت منه فضلت فضلة فأعطيتها أبا بكر ، قال : قد أصبتم (١) .

● — الرؤيا بالشهوة :

وهى الرؤيا التى تجعل من الخير شرا ، ومن الشر خـــيرا ، وهى التى تصح للصبى والمؤمن والكافر ، كرؤيا يوسف ـ عليه السلام ـ وهو صبى لم يتجـــاوز السابعة ورؤيا فرعون مصر وهو كافر فى قصة سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ ومثال الرؤيا بالشاهد كمن رأى أنه يقرأ القرآن فى الحمام ، أو أنه يرقص ، فانه يشتهر فى أمر فاحش ، أو فى معصية ، لأن الحمام مكان لا تدخله الملائكة ، وهذا التباس الخير بالشر ..

---

(١) عن ابن عمر ، وأخرجه ابن حاتم ..

روى سيدنا على ـ رضى الله عنه ـ لابنه الحسن فى اليوم الذى قتل فيه :
« يا بنى رأيت النبى ﷺ فقلت له يا رسول الله ما لقيت من أمتك من اللأواء واللدود (أى الشدة والخصومة) فقال : ادع الله عليهم ، فقلت : اللهم أبدلنى بهم خيرا منهم ، وأبدلهم بى من هو شر منى ، ثم انتبه وخرج للصلاة فقتله ابن ملجم (١) ..

وقد وردت أحاديث نبوية كثيرة فيما يختص بالرؤيا عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ منها :

١ ـ « من لم يؤمن بالرؤيا الصالحة لم يؤمن بالله » .

٢ ـ « لم يبق من النبوة الا المبشرات يراها المؤمن أو ترى له » .

٣ ـ « أصدقكم حديثا ، أصدقكم رؤيا » .

٤ ـ « اذا اقترب الزمان لم تكذب رؤيا المؤمن ولا ينبغى لأحد أن يكذب فى رؤياه » .

٥ ـ « ان من تحلم بحلم لم يره ، كلف أن يعقد بين شعرتين ولم يفعل » (مثل من يصلى ولم يصم أو يصوم ولم يصل) ..

يفصل علم النفس الاسلامى بين الرؤى والأحلام ، وهذا هو الخلاف الأساسى بين النظرة الاسلامية ، ونظرة علماء النفس الحديث الذين يخلطون بين الرؤى والأحلام ، ويرون أن كل حلم له معنى حتى وان كان غير معقول .. إذا أنهم يعتبرون أن كل حلم عبارة عن حل لصراع لا شعورى يبدو فى صورة رمزية ، ويمثلون لذلك بالأب القاسى المعتدى ، فانه يرمز اليه فى الحلم بالثعبان أو بحيوان

(١) أخرجه أبو عمر والقلعى عن الحسن البصرى وذكره المحب الطبرى فى الرياض النضرة

حمار ، كما أن الأب بوجه عام يظهر فى الحلم فى صورة رجل شرطة أو ملك أو أى شخص صاحب سلطة ، كما يرمز للأم بالأرض أو الملكة، وللأطفال بالديدان والحيوانات الصغيرة ، وللموت بالرحيل والفراق ، أو الوصول للمحطة النهائية ، وأما صعود السلم أو نزوله فهو تعبير عن الأفعال الجنسية ، والأشياء المستطيلة والمدببة، وحرف ٣ هى رمز للأعضاء التناسلية ..

ويرى بعض علماء النفس (١) ، أن ظهور الأحلام فى صور رمزية ، إنما هى حماية النائم ومعونة له على النوم ، وذلك أن الرغبات المحظورة والمكبوتة لو ظهرت سافرة صريحة لأزعجت النائم وأيقظته ، لذلك ترى فى حال النوم فى أشكال ملتوية رمزية..

وينتهى هؤلاء العلماء إلى القول بأن المرض النفسى حلم طويل ، وأن الحلم ما هو إلا مرض نفسى قصير الأمد ، ثم يخلصون إلى أن عملية تفسير الأحلام مثلها كمثل تحليل الأعراض المرضية تحتاج إلى حل لهذه الطلاسم والرموز ..

ولكى نفهم ما يرمى اليه فرويد ، يجب اعتبار أن الحلم مرض نفسى قصير الأمد، ولذلك كان علينا أن نشير إلى بعض تعريفات فرويد للأحلام .. فهو يرى فى أكثر تعريفاته للأحلام ايجازا أن الحلم هو قناع يحقق رغبة مكبوتة .

وتعريف الحلم بهذا المعنى يجب أن يشتمل على المظهر الكلى للأحلام المستتر منها وغير المستتر ، أى الذى يتعلق بالأعمال ، وكذلك الحلم الجلى الواضح وهو يراها جميعا مركبات لمكونات من أجزاء متعددة .

ويعتبر فرويد أن الحلم الذى يتعلق بالأعمال والأنشطة ، هو أكثر أجزاء

---

(١) د. عزت راجح ـ الأمراض النفسية والعقلية ص ٢٤٨

الحلم جوهرية ، ذلك أنه من خلال فهم الشروط والقواعد يمكن معرفة مضمون الحلم الكامن أو المستتر الذي تكمن فيه على حد قوله ، الحقيقة والرغبة المقنعة أو المتنكرة ...

وخلاصة ما يهدف إليه فرويد بنظرية الأحلام ، أن الأحلام هي محققات وهي تخدم وتحافظ على النوم ، وذلك في سبيل تحقق الرغبات المكبوتة ، وقد قبل كثير من علماء النفس هذه الفكرة القائلة بأن الحلم هو رغبة ثابتة تريد أن تتحقق لأنهم تصوروا أن الأحلام هي نتاج للمجال اللاشعوري الذي لا يعرف لنشاطه غاية غير تحقيق الرغبات المكبوتة والدوافع المرغوب فيها ...

ولهذا السبب يقول فرويد أن تعبير الأحلام إنما هو الطريق الملكي لمعرفة النشاط اللاشعوري في العقل الإنساني ...

ويضرب فرويد مثلا للحلم الغير معقول والذي يرى أن له تفسيراً فيقول(١) :

إذا حلم أحد أن هناك منزلا وعلى سطحه باخرة ، ورأى حرفاً من الحروف الأبجدية ، ثم رأى شخصاً يجرى منزوع الرأس ....!!

فيقول : إذا أردنا أن نوفق في تعبير هذا الحلم - الذى هو لغز - يجب أن نستبعد الانتقادات الموجهة إليه ، وبذلك يمكن أن نركب من عندنا صورة شعرية رائعة لهذا الحلم ، فالحلم هو لغز مصور من هذا القبيل ، ويستطرد قائلا :

إن أفكار الحلم الكامنة قد ظهرت لنا في هذه الصورة كمعنى رمزى ولا يمكن ترجمة هذا الرمز إلا بتطبيق قاعدة التداعى المطلق ، وذلك بتحديد العناصر التى

---

(١) فرويد - تفسير الأحلام ص ١٢٩ - ٢٩٢ ترجمة الأستاذ مصطفى صفوان .

يوحيء إليها الحلم أو يدل عليها دلالة ملتوية ، فتى حصلنا على هذه العناصر ، تمكنا من فهم الحلم وعرفنا مقصدة على وجه الدقة .

أما إذا وضعنا هذا الحلم حسب النظرية الإسلامية فى تعبير الرؤى ، فإننا نجد أن هذا الحلم يضاف إلى الشيطان ، ولا معنى له ولا تفسير تصديقاً للحديث النبوى :

« إن الرؤيا من الله ، والحلم من الشيطان » .

ونحن نرى أن هذه الصورة التى يتمثل بها فرويد هى نوع من الحلم المفزع والمرعب الذى يحمل الخديعة والخوف ، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا من الشيطان ، ومن ناحية أخرى فإن إمكان تفسير الأحلام عن طريق التداعى الحر إنما هو تفسير لأمانى النفس ومخاوفها ، ولا يصلح دليلا على الصدق والحق .

كما أن من شروط المفسر أو المعبر أن يكون عالماً بكتاب الله ، فطناً ، ذكياً نقياً ، فلا يصلح أن يفسر الرؤيا إذن من يسقط نظرته على الغير ، ويتدخل بفكره الذاتى فى تأويل الرؤيا والاجتهاد الفردى فيها بلا سند مؤيد أو أصول من القرآن والسنة . . .

أما النظرة الإسلامية فى تأويل الرؤيا تعتمد أساساً على كتاب الله وسنة رسوله . .

والملاحظة الثانية التى نراها جديرة بالاهتمام أن فرويد وتلامذته يفسرون الأحلام من منطلق غريزى لا يشذون عنه أبداً ، وهو ارتباط الأحلام بالميول الكامنة والدوافع والغرائز الخفية والانفعالات والرغبات المكبوتة والإحساسات السابقة ؛ وينتهون إلى تعريف الأحلام بأنها تعبير عن العقل الباطن أو اللاشعور

أى أن الحلم هو نوع من المكبوتات تظهر وجودها فى الحلم كرغبة لم تشبع بعد ، فهى نوع من الإرضاء الخيالى للرائى(١) .

ويجتهد بعض علماء النفس ، فيرون أن الأحلام يرجع فى تفسيرها إلى المخاوف التى يعانى منها الرائى وحدها ، بل يدعون أنها ربما تنجم عن محاولة حل المشاكل اليومية .. وهذا بخلاف النظرة الإسلامية إذ أن ربط الرؤيا بما يرغب أو يود الشخص تحقيقه هو نوع من الإضغاثات(٢) . .

ولقد عرضنا لرأى أصحاب مدرسة التحليل النفسى لنبين إلى أى حد يختلف المحللون النفسيون بعضهم مع بعض فيما يتعلق بالأحلام ، وليس هنا رأياً واحداً يتفقون عليه للتعبير عن الأحلام وتفسيرها . .

وكما سبق القول ، فليس هناك فى الواقع تفسيراً لحديث النفس ولا لتخاوف الشيطان ، كما اتفق الأئمة على أنها من الأباطيل ، وأنها من عمل الشيطان أو مما تريه الطبائع إذا اختلفت وتكدرت ، وجميعها تسمى بالأضغاث لاختلاطها بعضها ببعض ، مثل الحزمة التى يختلط حابلها بنابلها ..

أما فيما يتعلق بالمبشرات فهى رؤى صادقة أو صالحة من الله مباشرة يثبت بها الله قلب الرائى ليحيا فى نعمة وسرور ، وهى من أسباب الصحة النفسية لأنها تعلم وتهدى وتعرف وتنذر فتبين الطريق إلى الحق وتجنب طريق الباطل . .

ولقد كانت السيدة عائشة — رضى الله عنها — إذا أخذت مضجعها قالت :

---

(١) أرنست جونز — التحليل النفسى ص ٥٣—٥٧ ترجمة د.م. الشنيطى .

(٢) تفسير الأحلام ص ٣—٢ .

« اللهم أنى أسألك رؤيا صالحة .. صادقة غير كاذبة .. نافعة غير ضارة .. وحافظة غير ناسية »(١) .

وهذا معناه أن الرؤيا على دربين ، حق .. وباطل . والباطل هى الكاذبة .. والضارة .. والمشوشة .. والتى ينساها أو ينسى بعضها الرائى عند يقظته .

فهناك إذن رؤيا مضافة لله — سبحانه وتعالى — ورؤيا مضافة إلى الشيطان والنفس ، كما أن هناك رؤيا صادقة لا تحتاج إلى تفسير ، ورؤيا رمزية مضمرة تودع فيها الحكمة والإنباء وتحتاج إلى معبر عالم ليفسرها بالقرآن والسنة .

أما الأحلام التى لا حكمة فيها سواء كانت أمانى أو مخاوف فإنها تعود إلى رائيها ولا معنى لها .

ويختلف علماء النفس الحديث فى تفسير الأحلام اختلافاً بيناً ، فيرى بعضهم أن الحلم هو تحقيق لرغبة لم يستطيع صاحبها أن يحققها فى اليقظة ، ويخالفهم نفر آخر فى هذا الرأى ، ويفسرون الحلم على اعتبار أنه إنذار لصاحبه عن الجريمة التى ارتكبها من قبل ...!!

ويرى البعض الآخر أن الحلم هو إعداد لحل المشكلات التى تواجه الإنسان أو أنه خداع المرء لنفسه(٢) .

أما « يونج » تلميذ فرويد ، فيزعم أن الحلم هو تعويض عن الحياة اللاشعورية فى مقابل الحياة الشعورية التى يحياها الإنسان ، بهذا المعنى يكون الحلم ليس

---

(١) النابلسى تعطير الأنام فى تعبير المنام ص ١ — ٨ .

(٢) د. أحمد فؤاد الأهوانى ـ النوم والأرق ص ٩٧ ـ ج ١٠ .

تعبيراً عن الرغبات الجنسية اللاشعورية فحسب بل ويشتمل على القيم الأخلاقية الشعورية أيضا .. فالحلم يمثل عندهم عذاب الضمير ، أو العقاب ، لذلك فإنه ينتهى إلى أن الأحلام لهذا السبب لا تفزع وترعب الإنسان وتخيفه .

ويضيف يونج أن رؤية الحيوانات الكاسرة فى الأحلام إنما تمثل ذكرى الحياة التى كان يعيشها الإنسان فى الغابة ، أو بمعنى آخر للحياة البدائية .

والواقع أن هناك تخبط فى آراء أصحاب التحليل النفسى - بل وحيرة .. ذلك لأنهم خلطوا بين الرؤيا والحلم ، ولم يتنبهوا إلى أن لكل منها بواعث مختلفة فجاءت تفسيراتهم غير منسجمة مع بعض ، بل غير مقبولة منطقياً أو واقعياً ..

أما علماء النفس الإسلامى فهم يأخذون عن الله تعالى ويقيسون الرؤى بما ورد عنها فى كتابه العزيز من آيات ، لذلك فإن فهمهم للرؤى فهم واضح جلى لا خلط فيه ولا التباس ، فإذا كانت الرؤيا تدل على الفواحش والقبح فلا تقص ولا تعبر ولا تروى ، ويرون أن النفس إذا تجردت عن الشواغل والانغماس فى الشهوات الحسية فإن الله يضرب بالرؤيا أمثلة يراها العبد حسب استعداده ، وذلك عن طريق ملك الرؤيا فيتحقق فى الواقع ما يراه النائم ، كما يرى بعض أصحاب التحليل النفسى ، وتمنعه من النوم ولا تعينه على الاستمرار فيه ، وإنما كما يقول سيدنا على — كرم الله وجهه — عن الرسول ﷺ :

« ما من عبد ينام بمتلىء نوماً إلا عرج بروحه إلى العرش »(١) .

هذا يدل على أن من لا ينام نوماً ممتلئاً ، أى الذى يفزع عند النوم ، فإن رؤياه كاذبة ، أو حلمه لا يتحقق فى الواقع ، وليس له من تأويل أو تفسير ...

(١) الإمام أبو حامد الغزالى - أحياء علوم الدين جـ١٦ ص٢٩٤٥ وما بعدها كتاب الشعب .

ويقول سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

« عجبت لرؤيا الرجل ، يرى الشيء ما يخطر له على بال فيكون آخذاً به ، ويرى الشيء فلا يكون شيئاً » . (١)

وهذا يعنى أن بعض الناس يرون أشياء تتحقق لهم رغم أنها لم تخطر على بالهم أثناء اليقظة ، وفى الحياة اليومية ، ولم تكن رغبات مكبوتة أو دوافع مخبوءة — كما يدعى أصحاب التحليل النفسى — ومن ناحية أخرى ، فإن هناك بعض الناس يرون فى حالة النوم أشياء لا تتحقق ولا يحدث لها فى الحياة اليومية أثراً ...

الرؤيا والصحة النفسية :

يرى بعض الأئمة أن الرؤيا هى باب التائبين والصالحين والزاهدين ، وأن أسباب التوبة ترجع أحياناً إلى إنذار فى شكل رؤيا أو بشرى من الله أو من ملك الرؤيا ، فينصلح حال الرائى ويدخل فى طريق الله .

وفى الرؤيا غير الحلم ، يبرز دور القلب .. لأنه هو الذى ترد عليه أنوار الكشف فينعكس ذلك فى ساحة الصدر لتراه عين الفؤاد لا عين العقل ، فيتم إدراك الرؤيا بنفسه(٢) .

فالإنسان فى النوم تخرج نفسه عندما تكون خالية من أشغال البدن منصرفة عن دواعى الشهوات ، فيسمح لها إن كانت على طهارة أن تسجد تحت العرش ،

---

(١) الإمام ابن القيم الجوزى ـ الروح ص٢٩ـ٣٣

(٢) المرجع السابق .

فإذا عادت قصت ما شاهدت من رؤى شريفة(١) .

ويبين لنا بعض الأئمة أن النفس الإنسانية إذا انصرفت عن شهواتها ، تهيأ لها استقبال الرؤى الصادقة ، أما إذا كانت سائرة فى غواية الشيطان ، فإنها تصادف الشيطان فيلقى فى روعها ما يفزعها ويخيفها .

فالمبشرات إذن هى رؤى صادقة وهى ثمرة الرياضات والمجاهدات الروحية فهى بمثابة مكافأة من الله ، إذ أنها درجة من درجات الكشف ، ولذلك فالصوفية يرون أن وحى المؤمن منامه .

والرؤيا الكاذبة هى أحلام ليس فيها علاقة بين الصور الخيالية الجزئية وبين المعانى الكلية ، لذلك فهى تعبير فى غير محـــله ، لا تؤدى إلى علم ولا تتحقق فى الواقع القريب أو البعيد .

إذن . . فرؤيا المؤمن هى كلام الحق تعالى لعبده ، ولذلك يرى كثير من الأئمة أنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، أما الكلام على القلوب فى اليقظة أو الذى يسمى عند علماء النفس بأحلام اليقظة...فهو أكثر من ثلث النبوة(١) .

وتصدق الرؤيا عند ما توافق أحكام الشرع ، وعندما ترد فى آخر الليل ، أو أول النهار ويحكم على صدقها عند ما تكون لحكمة أو لسبب شرعى .

ولقد أجمع الصوفية على أن الله لا يرى فى الدنيا بالإبصار ولا بالقلوب إلا من جهة الإيقان ، لأن ذلك يعتبر غاية النعيم ، ولو اعطوا فى الدنيا أفضل النعم ما كان فرق بين الدنيا الفانية والآخرة الباقية .

---

(١) الإمام ابن سيرين ـ منتخب الكلام فى تفسير الأحلام ص ٣ ــ ٨

والدنيا هى دار فناء ، ولا يجوز أن يرى الباقى فى الدار الفانية ، فلو رأوا الله — سبحانه وتعالى — فى الدنيا لكان الإيمان به ضرورة ...

فالرؤيا إذن بهـذا المعنى تختلف عن الحلم ، لأنها لا تتعلق بإحساسات او ميول او حوادث سابقة او مصاحبة ، وإنما تتعلق فى حقيقة الأمر بجزئيات لاحقة وأحداث متحققة ، وهذا بخلاف ما تذهب إليه مدرسة التحليل النفسى بما يتعلق بالأحلام من أنها تعبير عن رغبات مكبوتة أو إنذار لأحداث وقعت النائم أو عقاب له على أفعال ارتكبها ، او تعليق على الأحداث اليومية الجارية .

وعلى هذا فالرؤيا طريق إلى الصحة النفسية ، فهى بشرى للمؤمن ليقوى قلبه كما أنها ثمرة من ثمرات توكله ومجاهداته ، وإنذار لما يمكن أن يقصر فيه عمله ، أو يبعده عن الحق والاستقامة والصدق ، فهى بهذا المعنى تعريف بطريق الإنسان للوصول إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

الحلم والاحتلام :

أما الاحتلام . فإنه صورة من صور الأحلام ، تعبر عن أمانى النفس الحسية ويرى الإمام الشعرانى(١) ، أن المريد يؤاخذ فى الاحتلام ، إذ أنه أمنية من أمانى النفس تظهر عند النوم — لكون أن الاحتلام لا يقع المريد إلا بعد استمتاع بصره بالنظر والتفكير فيما لا يحل له ، فتنشغل النفس بالأمانى فى تحقيق ما يلذها ، ولا تجد ذلك إلا فى حال النوم فيقع الاحتلام ..

وينظر الصوفية إلى الاحتلام نظرة المرتاب ، إذ أن إبليس يحاول أن يغوى العبد فى يقظته بالشهوات ، فإذا حيل بينه وبين تحقيق غوايته ، أتى عند النوم

---

(١) الإمام الشعرانى — الأخلاق المتبولية ص ١٧٧ تحقيق د. منيع عبد الحليم محمود .

متشدداً أن يشغل خاطر الانسان بالتفكير فى الشهوات ، ليتمكن من السخرية منه ويمنعه عن الصلاة والذكر إلى أن يتطهر من الجنابة ، بل وربما يمنعه الليلة اذا ما احتلم بعد العشاء وهو نائم ..

ويؤيد الامام الشعرانى رأيه فيما يتعلق بالاحتلام فيقول : « وكذلك لم يبلغنا أن أحد الأنبياء احتلم ، وكذلك من حفظه الله من الأولياء ، وذلك لعصمة الأنبياء وحفظ الأولياء من أن يلعب بهم الشيطان فى يقظة أو منام ، الا أن الشيطان يلعب بالسالك المبتدىء فى النوم ، وهذا أخف من لعبه بهم فى اليقظة ، فينبغى لهم شكر الله على ذلك ..

ويوضح أسباب ذلك فيقول : « واذا قدر أنه وقع لأحد الاولياء احتلام ، فانما يكون ذلك فى حليلاته ، وليس فيمن لا يحل له ويرجع ذلك الى ما يتجلى فى قلوب الأولياء من عظمـــة الله ، والشغالهم به تعالى ، فيزهدون عن تدبير أبدانهم ، وقد وقع أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ احتلم مرة فى حليلة له ، فاغتسل وقال « لقد ابتلينا بهذا الأمر منذ ولينا أمر المسلمين واشتغلنا بمصالحهم » ، ومعنى ذلك أنه لانشغاله بأمور الرعية عن جمـــاع أهله وحدث الاحتلام ..

وذكر الأستاذ على الخواص ـ رضى الله عنه ـ(١) أن الشيخ ابراهيم المتبولى لم يحتلم قط الى أن مات بعد مائة وسبع سنين ، وكان يقول : « من زعم أنه تاب عن الزنا ثم احتلم بعد ذلك فيما لا يحل له ، فهو لم يتب توبة نصوح ، اذ من شروط التوبة النصوح ان لا يصير للانسان حلاوة تلك المعصية التى تاب عنها ،

---

(١) الإمام الشعرانى — الأخلاق المتبولية ص١٧٧ تحقيق د. منيع عبد الحليم محمود .

فالاحتلام دليل على بقاء حلاوة تلك المعصية فى قلبه ، فلولا وجود تلك الحلاوة فى قلبه لما تفكر فى هذا الأمر ولا احتلم ..

تعبير الرؤيا :

يرى الامام ابن سيرين (١).. أنه لا بد للمعبر للرؤيا أن يكون حاصلا على ثلاثة أنواع من العلوم هى :

١ ـ حفظ الأصول :

على المعبر أن يكون حافظا للأصول الشرعية ، عارفا بالقرآن الكريم والسنة المحمدية وتفسيرها ووجوهها واختلافها وقوتها وضعفها فى الخبر والشرح حتى يمكن أن يتمكن من الأخذ بالأرجح والأفضل عند تأويل السائل ..

٢ ـ تأليف الأصول :

كما أنه يتوجب على المعبر أن يكون قادرا على تأليف الأصول فى آخر الأمر بعضها مع البعض حتى يمكن أن يستخرج معنى صحيحا واضحا ، وبذلك يتمكن من إخراج الأضغاث والأمانى النفسية وتخاويف الشيطان وأحزانه من الرؤيا .. فاذا كانت الرؤيا كلها من هذا القبيل ، فعلى المعبر أن يتركها .. إذ هى ليست برؤية فلا يجوز أن يقبلها ولا يفسرها ..

٣ ـ التفحص والدراسة :

يجدر أن يقوم المعبر بالتفحص والتمعن والتثبت من الرؤيا قبـــل تأويل الرؤيا أو تفسيرها ، إذ عليه أن يعرف الرؤيا حق المعرفة ، ويستدل عليها من

---

(١) الامام ابن سيرين ـ منتخب الكلام فى تفسير الأحلام ص : ١٨ (هامش كتاب تعطير الانام) .

الأصول ، ومن كلام صاحبها .. كما أن عليه أن يقتدى فى تفسيره بالأنبياء والرسل والحكماء ، لأن هذا أقرب إلى الحق والصواب .. ومثال ذلك رؤيا فرعون .. سبع بقرات عجاف يأكلن سبع سمان ، وتأويل يوسف ـ عليه السلام ـ السمان بالسنوات الخضر والعجاف بالسنوات الجدب ..

ويرى الامام ابن سيرين (١) . أنه يتوجب على المعبر أن يتثبت مما يروى له والا يتعسف برأيه ، وأن لا يأنف من الاعتذار عن تأويلها لعدم معرفته أو لاستشكالها عليه . .

ولتعبير الرؤيا أصول متبعة عند المعبرين ، فاذا كانت الرؤيا مستقيمة فانه يمكن تأويلها .. أما إذا كانت تحتمل معنيين فعلى المعبر أن ينظر إلى المعنى الأقرب .. اللفظ والمعنى .. ثم أنه على أساسه يعبر الرؤيا ..

أما إذا وجد المعبر أصول الرؤيا صحيحة إلا أن بها حشو ولغو ، فان على المعبر أن يترك الحشو واللغو ويقصد إلى الصحيح ، أما إذا رأى المعبر ان الرؤيا كلها مختلطة بعضها البعض ولا تلتئم مع الأصول ، علم انها من الأضغاث التى لا تأويل لها ..

كما يجب فى حالة استشكال الرؤيا على المعبر ان يتركها ويعرض عن تفسيرها وإذا اختلط عليه الأمر طلب من الله كشفه .. كما ان عليه ان يسأل الرائى عن ضميره فى رؤيا السفر إذا كان يريد سفراً .. وعن عمله إذا كانت رؤياه عن العمل .. او غير ذلك ..

---

(١) الامام ابن سيرين ـ منتخب الكلام فى تفسير الأحلام ص : ١٩ (هامش كتاب تعطير الأنام) .

وعلى المعبر أن يعبر الرؤيا حسب ضمير الرائى .. فإذا لم تكن الرؤيا فى ضميره ، أخذ المعبر الأشياء على ما رآها الرائى مع ملاحظة الطبائع والبيئات والعادات ، وإذا كانت الرؤيا تقود إلى فاحشة ، ستر المعبر تفسيرها ولا يفصح عن معناها للرائى ..

يقول الرسول ﷺ(١) .

« إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها ، فإنما هى من الله فليحمد الله عليها وليحدث بها ، وإذا رأى غير ذلك مما يكرهه إنما هى من الشيطان ، فليستعـــذ بالله ، ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره » .

امثله لتعبير الرؤيا بالقرآن الكريم والسنة :

تعبر الرؤيا أحياناً من اللفظ .. كتأويل « حسن » « إحساناً » واسم فضل « افضالا » وسالم .. سالماً ، «لفظ الإسم» ..

كما تأول بالمعنى كرجل رأى سقوط أسنانه ، فيعبر على أنه رجل قد قطع قرابته أو لم يصل رحمه وتأول مرة من القرآن الكريم ، ومرة من الحديث ومرة من المثل السائد أو الأثر كتأويل رؤيا الصائغ أنه الرجل المكذوب(٢) ، من المثل السائد أنه رجل يصوغ الأحاديث . .

كما أن هناك تأويل بالضد .. كتعبير البكاء بالفرح . والضحك بالحزن ، والمرض بالنفاق .. وذلك تمشياً لما يجرى على ألسنة الناس من أن الإنسان الذى لا يصح له وعدا يعد مريضاً .. تصديقاً لقوله تعالى :

---

(١) رواه البخارى عن أبى سعيد .

(٢) منتخب الكلام فى تفسير الأحلام ص ٧-٨

« فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا » (البقرة : ١٠)

كما يعبر بعض الأئمة من رأى أنه قد قطعت أعضاؤه بأنه سيسافر أو يفارق أهله ، تمشياً مع المثل السائد « تقطعوا فى البلاد » .

وأول ما يرجع إليه فى تفسير الرؤيا فى القرآن الكريم والسنة المباركة ، فإذا وجد المعبر فيهما شاهداً الرؤيا كان ذلك توفيقاً من الله ، ومثال ذلك(١) :

رؤيا السفينة : كأن يرى النائم نفسه راكباً سفينة ، فالسفينة هنا نجاة من الخوف والفزع لقوله تعالى :

« فأنجيناه وأصحاب السفينة » (العنكبوت : ١٥)

الوقوع فى البئر : كأن يرى النائم وقوعه فى بئر فإنه يمكر به لقوله - ﷺ :- « البئر جبار » .

(١) الشيخ النابلسي - تعطير الأنام ص ٧ - ٨

الفصل السادس

صمت الحكيم

يعتبر الكلام أحيانا الطريق الذى يدخل به صاحبه إلى النار .. كما أنه يكون حينا السبب المنجى الذى يوصل إلى الجنة ، ولكن لا أطيب من اللسان إذا طاب القلب ، ولا أخبث منه إذا خبث القلب ...

لذلك كان الصمت حكمة ، ومن صمت نجا ، وكان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوصى بالصمت ، ويعرف أن قليلا من الناس فاعله (١).

ويعد الصمت طريقا إلى الصحة النفسية والكمال الأخلاق والإنسانى ، الذى يؤثر الصمت على الكلام قد غسل باطنه من الشهوات والآفات وتحلى بحقائق القرب من الله ، وتأدب بكمال آداب العبودية .

والصمت قدرة ، والقدرة من الحكمة .. ومن كان عنده قدره من غير حكمة هلك .. ولذلك فكلام صاحب الحكمة مقبول فى الباطن سواء وافق الظاهر أو لم يوافقه ، أما خطاب صاحب القدرة الكلامية فانه يتظاهر وهو مكسوف الأنوار ، لأنه لم يتحقق بحقيقة كلامه ، وربما يتكلم رجلان فيتقبل من أحدهما ويرد على الآخر ، لأن هناك فرق بين صاحب قدرة وصاحب حكمة ، والحكمة هى ينبوع الخيرات ومفتاح الرزق والعبرات .

« ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » (البقرة : ٢٦٩)

---

(١) الشيخ أبو بكر بنانى ـ مدارج السلوك ص ٧٥ وما بعدها .

والحكيم صامت ، لذلك كان الصمت صفة ثقيلة على النفوس ولا يتحقق بها إلا من أخذ الله بيده لأن من طبيعة النفس الميل إلى الحرية ، لذلك فهى لا تميل إلى الصمت ، وإنما تقبل عليه لأنه الميل الشرعى القائم على الوسط العدل .

ولا يتحلى بالصمت إلا أهل الصدق ، الذين عاشوا مقام العبودية ، وقالوا : ربنا الله .. ثم استقاموا ، لذلك فإن امساك اللسان عن ما لا يعنى الإنسان هو الطريق المستقيم الذى يوصل إلى الكمالات الأخلاقية ..

يقول الشيخ محيى الدين بن عربى : « من أراد أن يتكلم باطنه فليصمت ظاهره .. ومعنى ذلك أن قوة الباطن أظهر من قوة اللسان ، كما أن اللسان يخطىء ويصيب ، أما الباطن فهو الحق الذى لا غبار عليه .

وقد اتفق الأنبياء والأولياء والعلماء على أن الصمت كله خير وبركة .. ويقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - :

« استعينوا على قضاء حوائجكم بالصمت » (١) .

والصمت هو مخالفة النفس التى تتطلب شهوة الكلام ، فهو نجاة من الهوى وفوائده عديدة ، فاذا كانت النجاة فى صمت العالم ، فما بالك إذا كان عن غير علم ...

وقد ورد الصمت فى القرآن الكريم على أساس أنه حكمة لبعض أنبيائه فى قوله تعالى :

« قل رب أجعل لى آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا »

(مريم : ١٠)

---

(١) الرسالة القشيرية - جـ١ ص : ٢٩٩

فالصمت آية من آيات الله . . وحكمة من حكمه ...

ويروى عن بشر بن الحارث قوله : إذا أعجبك الكلام فاصمت ، وإذا أعجبك الصمت فتكلم » .

وقال بعضهم : تعلم الصمت ، كما تتعلم الكلام ، فان كان الكلام يهديك فالصمت يقيك ، وأهل الحق يرون فى الصمت لسان الحلم ، لأن عفة اللسان صمته .

والصمت حرب على الغيبة والنميمة ، وهو نوع من أنواع الرياضات الكبرى لأنه مخالفة النفس ، ورعاية لها من الوقوع فى براثن الشيطان ، كما أنه ترويض لجنوحها وتهذيب لأخلاقها ، فبالصمت تتأدب النفس ، فيحصل العلم ، وبالعلم يحصل العمل ، وبالعمل يحصل الزهد ، وبالزهد تحصل الحكمة ، وبالحكمة تحصل مخافة الله ، وبالخوف من وعيد الله تحصل منازل القرب فى الدنيا والآخرة (١) .

---

(١) الشيخ أبو بكر الكتانى - مدارج السلوك ص : ٦٧

الفصل السابع

ذكر الله

ذكر الله طريق رائع للصحة النفسية لأنه يربط العبد بربه بعروة وثقى ، ويقوده إلى الخير الفاضل في الدنيا والآخرة ويربي النفس على الإيثار ، ويجنبها الجنوح عن جادة الحق ، كما يملأ القلب سكينة وطمأنينة وأمناً ..

والذكر إقرار باللسان ، وتصديق بالقلب(1) .. وتختلف ثمرات الذكر من ذاكر إلى ذاكر .. حسب الصدق والإخلاص والاجتهاد ، فإذا قال الذاكر « لا إله إلا الله » بلسانه ، ولم يصدق قلبه ، كان الذاكر مسلماً عند الناس ، كافراً عند الله ، كما أنه إذا ذكر الذاكر الله بقلبه دون تصديق اللسان ، كان ذلك غير كاف .. لأن إبليس كان يذكر الله بقلبه ، ولم ينفعه ذلك حين أضره لسانه .. واعترض على السجود لآدم عليه السلام ...

وللذكر فضائل عديدة ، وآثار نفسية رائعة ، وثمرات جليلة .. فهو يعين الإنسان على مجابهة المصاعب ، ويساعده على التغلب على العقبات ، ويجعله قادراً على طرح رياء النفس جانباً ، كما أنه يعمل على تخلية القلب من الآفات ، ويصرف عنها الخواطر المذمومة ، ويدفع عن الإنسان غواية الشيطان ، ويزيل عنه الحقد والغل والحسد والاغترار ...

- والذكر بلسم شاف ، يرق القلب ويجعله قابلا لاستقبال المعـــاني الإلهية ، والأسرار الربانية ، وينزل على النفس الأمن والسكينة والطمأنينة .

---

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم ج ١ ص ٤١٩

« ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (الرعد : ٢٨) .

كما أن الذكر يربط بين العبد وربه برباط وثيق لا ينفصم عراه :

« إدعوني أستجب لكم » (غافر : ٦٠) .

« فاذكروني أذكركم » (البقرة : ٢٥٢)

« إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر » (العنكبوت : ٤٥

والذكر باب إلى الاستقامة والاعتدال إذ يجنب الإنسان الانحراف ، وارتكاب المعاصي لأن فيه حلاوة الاتصال ، ومن ثمراته .. تجاوز مألوف العادات وخرق قوانين الطبيعة ..

« إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ، فإذا هم مبصرون » . (الأعراف : ٢٠٣)

« والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله » (آل عمران : ١٣٥)

وعن الرسول — ﷺ : —

« من لم يأنس بحديث الله عز وجل عن حديث المخلوقين ، فقد قل عمله وعمى قلبه وضيع عمره »(١) .

« ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله فيها »(٢) .

وبهذا المعنى يكون الذكر اشتغال برياضة النفس ، وترويضها ، بحيث يحصل الذاكر أنس فلا يغفل قلبه أبداً ، ويشهد الله دواماً فيراه بقلبه ويراه بنفسه ،

---

(١) عن مالك بن دينار .

(٢) ذكره الامام الشعراني في تنبيه المغترين ص٤٣

ويشعر بسعادة فى هذه القربة لا يعادلها سعادة ، ويؤيد ذلك الحديث القدسى :

« إن لله ملائكة يطيفون فى الطريق ملتمسين أهل الذكر ، وإذا وجدوا قوم يذكرون الله تنادوا . . هلموا إلى حاجتكم »(١) .

ويقسم بعض الأئمة الذكر إلى عشرة أقسام(٢) .

الأول : ذكر الله . .

الثاني : ذكر الأمر والنهى . .

الثالث : ذكر نعم الدين والدنيا . .

الرابع ذكر بالمنة . .

الخامس : ذكر بالتدبير . .

السادس : ذكر بالمحبة . .

السابع : ذكر بالشوق . .

الثامن : ذكر بالوله . .

التاسع : ذكر بالاتصال . .

العاشر : ذكر بالمرعى على الدوام .

وكل قسم من هذه الأقسام له ثمرات ، وكلما تقدم الذاكر ، كلما زادت الثمرات حتى يصل إلى القسم العاشر(٣) .

ويروى عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ قوله :

« ذكر الله علم الإيمان ، وبراءة من النفاق ، وحصن من الشيطان ، وحرز من النار »(٤) .

---

(١) ذكره الامام محيى الدين بن عربى فى مشكاة الأنوار والحديث بقية ..
(٢) راجع ألفاظ الصوفية ومعانيها — المؤلف وكذلك كتاب الشريعة والحقيقة — للمؤلف .
(٣) الإمام أبو بكر بنانى — مدارج السلوك ص١٣ : ١٣ .
(٤) كما ذكر الحديث الشيخ السمرقندي فى تنبيه الغافلين ص ٢٠٩

الفصل الثامن

الأمن والأمل

يقدم علم النفس الإسلامى علاجاً ناجعاً للخوف .. والرعب .. والفزع .. والاضطراب الذى يعانى منه أكثر الناس ، فيملأ النفس بالأمن بدل الخوف ، ويبدله بالسكينة الشك :

« هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً » (الفتح : ٤) .

ويحول الرعب والفزع .. طمأنينة .

« وما جعله الله إلا بشرى لتطمئن به قلوبكم » (الأنفال : ١٠)

ويستقى علم النفس الإسلامى أصوله من منبع أصيل فريد ، وهو .. القرآن الكريم .. والسنة المحمدية الشريفة .. فيربط الإسلام بين الأمن والإيمان برباط وثيق ، لا ينفصم عراه مصداقاً لقول الحق تعالى :

« الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » (قريش : ٤)

والقرآن الكريم يهدى إلى الرشد فيبين أن الطريق إلى الصحة النفسية ، لا يتحقق بالتخويف والإكراه والضغط على حرية الإنسان ، ولذلك فإن الظالمين هم الجبارون فى الأرض :

« لا إكراه فى الدين » (البقرة : ٢٥٦)

« أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (يونس : ٩٩)

ومن أجل تحقيق الأمن والسكينة للنفس الإنسانية أعطى الله ـــ سبحانه

وتعالى — الحرية فى الاعتقاد الدينى ، فحرم الله تعالى ممارسة الضغط والإكراه فيها ، ودعى إلى الإلفة والمحبة ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وذلك لحماية حقوق الإنسان، وبين الله تعالى فى آيات عديدة هذه الحقوق إجمالا وتفصيلا، وحدد القواعد التشريعية العامة الواجبة التطبيق والتى لا يجوز المساس بها ، ومنها حقوق اجتماعية وثقافية واقتصادية ، ومن هذه القواعد ما يتعلق بالمساواة بين الناس كما قضى بعدم التمييز بين إنسان آخر وبأى نوع من أنواع التمييز سواء كان فى الجنس أو اللون أو اللغة أو الدين أو الرأى أو الأصل الوطنى أو الاجتماعى أو الثروة ، بل أوضح تعالى أن لا تمييز فى الإسلام بين الإنسان بسبب الكراهة أو العداء أو الخصومة سواء بين الافراد أو بين الامم ، فالعدل هو الواجب التطبيق فى جميع الاحوال :

« ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا ، إعدلوا هو أقرب للتقوى »
(المائدة : ٢)

وتبدو أهمية هذه القواعد فى القرآن الكريم من جعلها نصوص لا يجوز الاخلال بها ، كما أنها ليست عبارة عن مواعظ أو توصيات ، وإنما قواعد واجبة النفاذ فهى ليست مثل اجتهادات أو توصيات الهيئات الدولية ، وإنما سلوك مقرر ، وقواعد ملزمة ، واجبة الاتباع ، لا يجوز مخالفتها أو تعديلها ، فالشريعة الاسلامية حريصة على حماية الإنسان من الخوف والفزع وكل ما يهدد من حريته وانسانيته ، حرصها على حقوقه المشروعة فى الامن والسكينة والطمأنينة ، فلا يمكن أن يفزع الله عباده وهو خالقهم .. ولذلك تركز الآيات القرآنية على ربط الإيمان بالأمن والأمل بالطمأنينه :

« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله » (الرعد : ٢٨) .

فالمؤمن يسير مطمئن النفس ، ساكن القلب ، مصداقاً لقوله تعالى :

« هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً » (الفتح : ٤) .

« فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » (الفتح : ١٨).

فالسكينة هدوء ورضــــا تسكن بها النفس ، مع طمأنينة القلب . والقلب المطمئن يزداد ثباتاً وثقة فى طريقه . .

كما أن السكينة والأمن والطمأنينة مترادفات للإيمان ، وثمرات من ثمار التقوى ونتاج العلم بالله ، وذلك وارد فى قوله تعالى .

« قال أو لم تؤمن . قال بلى ولكن ليطمئن قلبى » (البقرة : ٢٦٠)

« يا أيتها النفس المطمئنة إرجعى إلى ربك راضية مرضية » (الفجر : ٢٧)

فالأمن أمن ضد الخوف والفزع والاكتئاب والرعب والابتئاس :

« ثم أنزل عليكم بعد الغم آمنة نعاساً » (آل عمران : ١٥٤)

« وهم من فزع يومئذ آمنون » (النحل : ٨٩)

« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها » (النحل : ١١٢)

« وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً » (النور : ٥٥)

« يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين » (القصص : ٣١)

ويرتبط الأمن أيضاً بالأمل ، وليس الأمل هنا فى تحقيق الرغبات المكبوتة كما يدعى علماء النفس ، ولا حماية البناء النفسى من عدم إشباع غرائزه ونزعاته المنحرفة كما يزعم أصحاب النظرية الأمريكية فى العلاج بطريق التمركز حول العميل(١) .

---

(١) روبرت هاربرت — التحليل النفسى والعلاج النفسى ص١٢٧ — ١٤٦

وإنما الأمل هنا أمل هادف ، ودليله الإيمان ، وهذا الأمل هو ثمرة يانعة من ثمار الخير على العمل الصالح كثواب من الله :

« والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً ، وخير أملا » (الكهف : ٤٦)

« ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً » (الطلاق : ٤)

وليس الخير فى تحقيق المال والأملاك ، ولا فى إشبـــاع رغبات النفس فى التظاهر بحسن الزى والرياش ، إنما الخير حقاً فى تحقق الأمن والسكينة . . يقول الرسول ﷺ :

« ليس البر فى حسن اللباس والزى ، ولكن البر السكينة والوقار » (١) .

---

(١) رواه الديلمى عن ابن سعيد .

الفصل التاسع

المحبة

الحب كما ورد فى القرآن الكريم على دربين :

الأول : حب الله ومن الله تعالى :

وهو الحب الحق من عبادة ورضا وشكر وإسقاط التدبير ومجاهدة لله بالعمل الصالح ، تقرباً إليه ، ووسيلة لمرضاته ، وعملا بأمره ..

« يحبهم ويحبونه » (المائدة : ٥٤)

« رضى الله عنهم ورضوا عنه » (المائدة : ١١٩)

يقول الرسول — ﷺ : —

« إن الله تعالى إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال : إنى أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل . . ثم ينادى فى السماء فيقول : إن الله يحب فلاناً فأحبوه . . فيحبه أهل السماء . . ثم يوضع له القبول فى الأرض » .

وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول : إنى أبغض فلاناً فأبغضه ، فيبغضه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء إن الله يبغض فلاناً فابغضوه ، ثم توضع له البغضاء فى الأرض(١) .

الثانى : حب الدنيا وما فيها :

كحب النفس . . والشهوات . . والنساء . . والمال . . والفساد فى الأرض . والعدوان ، والإسراف فى الذات . والشره . . والطمع .

---

(١) رواه مسلم

« زين للناس حب الشهوات من النســـاء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة » (آل عمران : ١٤)

والحب الإلهى هو الذى يستهدف إليه علم النفس الإسلامى لأنه يحقق الصحة النفسية ، أما حب الإنسان للإنسان فهو نتاج هـــذا الحب إذ أنه مقتضى الحب الإلهى . . فالأصل هو الحب الإلهى ، وأما الحب الإنسانى لحب فى الله ، وفى طريقه ، وهو ألفة ومودة ورحمة :

« إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا »

(آل عمران:١٠٣)

« وجعل بينكم مودة ورحمة » (الروم : ٢١)

« وألقيت عليك محبة منى ، ولتصنع على عينى» (طه : ٣٩)

والمحبة بهذا المعنى إثراء العلاقات الإنسانية ، وثمرة لصحة المجتمع . وتعاون على البر والصـــلاح وألفة وأخوة بين الناس ، ومودة ورحمة بين الأرحام والأزواج . .

فالمحبة تستهدف الحياة الأخلاقية المثلى ، والخير الفاضل، وبالإضافة إلى كونها أصل من أصول الدين :

« ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم » (الحجرات : ٧)

وبدون المحبة الإلهية تنفصم الروابط الإنسانية ، وتظلم النفس ، وتتحجر القلوب ، ولا يستقيم الفرد بنيان ، ولا ترقى أخلاق ، ولا يثمر عمل صالح ، ولا تتحقق المودة والرحمة بين الناس ، فترتبط العلاقات الإنسانية بالمصالح المادية والفوائد النفعية فحسب ، مما ينشأ عنه العدوان والكراهية والمشاحنة والبغضاء

والحقد والظلم والانتقام ، فيقوى فى النفس الحب الشهوى ، ويعظم طلب الدنيا ، واللذات الحسية ، كما ورد فى قوله تعالى :

« وتحبون المال حبا جما » (الفجر : ٢٠)

« إمرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا » . (يوسف : ٣٠)

وهذا الحب الشهوى يمتاز به الحيوان غير المكلف ، ويندفع إليه بما ركب فى جبلته من صفات وأوصاف فطرية مثل الانانية والأثرة، وامرأة العزيز هنا اندفعت إلى الحب الشهوى الذى هو صفة ملازمة للحيوان غير المكلف ، فهبطت إلى مرتبة الحيوان ، لاتباعها أهواء النفس ، التى جنحت فقادتها إلى الرغبـــة فى الشهوة المحرمة . .

وهذا النوع البهيمى من الحب هو الذى يتفق عليه علماء النفس الحديث ، ولا يجدون عوضاً عنه ، ولذلك نجد « فرويد » يعبر عن هذا الحب الشبقى أو (Libido)(١) على أنه الغاية المثلى لتحقيق الصحة النفسية ، ويقسمه إلى معنيين :

المعنى الاول

ويسميه الحب الضيق ، ويتحقق بالإشباع الجنسى ، فيقول : « أنه لتفسير الحاجات الجنسية لدى الانسان والحيوان ، تستعين فى علم الحياة بوجود غريزة جنسية كما تستعين بالتغذية لتفسير غريزة الجوع » .

المعنى الثانى

إن (Libido) أو الحب الشبقى هو الطاقة التى تدخل فى كل ما تتضمنه كلمة حب ، وبالجملة فإن فرويد يركز على كل الحب الجنسى الذى يستهدف الاتصال

(١) فرويد ـ الموجز فى التحليل النفسى ـ ترجمة د. سامى محمود على .

الجنسى ، حتى فى العلاقات الانسانية المتسامية كحب الوالدين ، والأطفال والصداقة والانسانية ، بل والموضوعات العينية والأفكار المجردة ، لجميعها ترجع إلى مصدر وحيد هو الاتصال الجنسى فى صورة من الصور . .

وهذا الفرض غير المتحقق استخدمه بعض أصحاب التحليل النفسى اعتقاداً منهم أن الحب الجنسى هو الملازم الفعلى للشخصية منذ عهد الطفولة المبكرة ، وأنه ترجع إليه الانحرافات الدائمة ، أو المؤقتة للبالغ ، وبذلك يشمل المعنى الجنسى على كل أنواع العلاقات الانسانية ، بل وأيضاً الأفكار والموضوعات فى ميدان الحياة النفسية . .

وفرويد ينظر إلى الحياة النفسية الانسانية ليس باعتبارها الحياة الشعورية فحسب ، بل والحياة اللاشعورية ، والقبلشعورية أيضاً ، بالاضافة إلى الأحلام والأعراض المرضيـــة والحب الشبقى (Libido) كما يقرر تلميذه « يونج »(١) أن الحب بهذا المعنى يشمل الطاقة النفسية فى عمومها . .

والواقع أن هذا المفهوم الضيق عاجز عن إدراك الحب الحقيقى الذى ذكره القرآن الكريم ، وقامت عليه الديانات السماوية ، وتأسست عليه العلاقات الانسانية الخيرة ، وطبقه الأنبياء والمرسلين من المؤمنين كسلوك أخلاقى ..

الحب الحق(٢) إذن ينبع من تضحية وإيثار ويستهدف الخير ، ويتبع الطريق المستقيم الذى أمر به الله ، ويهجر غيره ، سواء كان هذا الطريق المستقيم يحقق لذة أو يصيب صاحبه بالألم والحزن . .

---

(١) فرويد — الموجز فى التحليل النفسى ص ١٠٦-١٠٧ .

(٢) المؤلف — ألفاظ الصوفية ومعانيها - (المحبة) .

إذن الحب الذى يتكلم عنه فرويد هو الحب الشهوى ، أو كما يسميه والشبق، الذى نرى أنه لا يمكن أن يحقق هدفاً طيباً ، أو غاية نبيلة أو خيراً للانسان . .

« وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

(البقرة : ١١٦)

والحب الصادق لا يستهدف بالتحديد الاستقرار الجنسى ، وإنما الحب الصادق يرتفع عن الحق ليوجه فى طريق المحبوب ـ على الحقيقة ـ وهو الله .. ولله ، ومن الله ، وبالله ، وهذا فى تقديرنا الحب المحقق والأمن والأمل والطمأنينة .

« قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » .

(آل عمران : ٣١)

فالحب الصادق ليس حباً نرجسياً صادراً عن طاقة غريزية ترغب فى الاشباع، وليس أملاً فى الحصول على أكبر اشباع جنسى ، وانما الحب باب التسامى عن الغرائز ، والتخلى عن الشهوات الحسية الأنانية ، والتحلى بمكارم الاخلاق اذ أنه إحسان وتوبة وصفاء وطهارة وتقوى وعفو وكظم الغيظ وصبر على الشهوات والملذات ، بل هو قسط وعدل وإقتصاد واصلاح للفساد وتجنب الخيانة وبعد عن الاسراف . . اذ أن هذا الحب يهدف الى تحقيق أمر الله ، وتطبيق أحكامه وتنفيذ مقتضى حكمته دون اعتراض . .

وإذا أحب إنسان إنساناً ، فلا يحبه لغاية شهوية أو منفعة مادية ، وإنما يحبه لان الله أمره بذلك ، ولان المحـــبة هى طريق الخير والاحسان والمودة وتآلف القلوب ، كما أنه إذا أحب الانسان شيئاً من الاشياء ، أو عملا من الاعمال

فإنما يحبه هادفاً مرضاة الله ، آملا في التقرب اليه تعالى بهذا العمل ، ولأن الله يرضى عمن يعمله ، فهو اذن يحب الله ، حتى ولو كان ما يحبه فيه مكابدة ومعاناة وعنت ومشقة عليه .. الا أنه يفعل ذلك وهو راض ، سعيد بذلك كل السعادة:

« ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً » (الانسان : ٨)

« يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله » (البقرة : ١٦٥)

فالذى يذكر الله وينشغل بحب الله ، ويحب ما يحبه الله هو العارف بالمحبة الحقة الشاملة الجامعة ، وهى محبة الله تعالى :

« انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى » (ص : ٣٢)

وهو حب فى الخير وجهاد فى سبيـــل الله ينبع عن الانشغال بذكر الله ، وليس ناشئاً عن حب الشهوات والأموال وأعراض الدنيا . .

فالحب فى الإسلام مخالفة لأهواء النفس وحظوظها وشهواتها وحاجاتها التى لا تشبع ، والانسان فى جبلته حب اللذات السريعة التى يصاحبها أو يتبعها ألم ، لذلك كان عليه أن لا يقـــدم على هذه اللذات . . لأنها لا تقوده إلى الصحة النفسية . .

على الانسان إذن أن يقبل على الحب الدائم الذى يوصله إلى السعادة الحقيقية ، ولن يتحقق له ذلك إلا بمجاهدة النفس :

« لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » (آل عمران : ١٥٢)

ويمكن تمثيل الحب الصادق بقصة ذلك الملك الذى كان يؤثر أحد أتباعه على غيره من المساعدين والخدم ، ممـا أشعل حقدهم على هذا العامل ، وتعجبوا من تقريب الملك وإيثاره له ، وهو أقلهم شباباً ، وأضعفهم قوة . . ولما علم الملك

منهم ذلك طلب أن يعد له رحلة صيد ، واستصحب معه كل حاشيته ، فلما وصل إلى مكان الصيـــد اتجه بنظره إلى الجبال من حوله . . وكان عامله المقرب إليه بجانبه . . وإذ به يغيب . . وبحثوا عنه فلم يجدوه .

وبعد مدة من الزمن حضر حاملا بين يديه قطعاً من الثلج ، فلما تساءلت حاشية الملك عن سبب استحضاره الثلج ولم يطلب الملك منه ذلك . . قال الملك : هذا سبب حبي له وقربه إلى قلبي ، فهو لا يكف عن ملاحظتي إذ هو دائماً مشغولا بي ، ومن كثرة اهتمامه بأمري يعرف ما يدور بخلدي . . أما أنتم فمشغولون بحظوظ أنفسكم . .

وسألت الحاشية العامل عن ذلك ؟ . . فقال : لما نظر الملك إلى قمم الجبال ونظرة الملوك لها دلالة ، ألهمت أن الملك يريد شيئاً من ذلك الثلج ، فذهبت واستحضرت قطعاً منه . .

فالذي يحب ينشغل بما يحب ، وإذا ترك الانسان لفطرته ، زينت له نفسه الأفعال القبيحة وحسن له الشيطان المستكرهات والشهوات ، فيميل إليها ويقبل على تحقيقها لأنها أيسر وأسهل ، أما إذا وقر في القلب الايمان ، خالف النفس والشيطان وعرف أنهما يقودان إلى الحسرة والندم والضلالة ، وأن حبه لهما ضياع لدنياه وآخرته . . وأن استبدال حب الله بهما يحقق له السعادة الحقة . .

لقد ركز علماء النفس على الناحية الشبقية والجنسية والشهوية ، كقاعـــدة عريضة للسلوك فجعلوا الحب المنشود في استجلاب الملذات واسترضاء الميل الطبيعي في الانسان لبناء الشخصية السوية . .

وهذه نظرة نراها قاصرة ، إذ أن هذا النوع من الحب يدفع الفرد إلى الأنانية والاسراف في العدوان لتحقيق شهواته وملذاته على حساب الغير . .

أما الحب فى الاسلام فإنه يستمد وجوده من الحب الالهى ، فإذا تحققت منه لذة فهى وسيلة لغاية مرادة لله ، وليست اللذة من أجل اللذة ، وإنما هى ثمرة لاتباع أمر الله ، كما أنه إذا بغض شيئاً ، فإنما يبغضه بأمر الله ، لأن فيه إسراف أو إفساد أو خيانة أو إثم أو اعتداء أو ظلم فالبغض ما يبغضه الله وينهى عن فعله . . كما ورد فى كتابه الكريم . . والحق أن الانسان إذا تجنب الآفات من غرور ونفاق وعدوان وشهوات ، واعتدل مزاجه واستقامت حياته ، وصفت نفسه ، وسمت روحه ، فيصبح كالنبع الصافى ، يستمد من حوله منه النضرة والحياة ، وبدون المحبة ، تصبح النفس ظالمة ظالومة ، تفسد أخلاقها ، وتزداد أحقادها ، وتصاب بالأمراض والأوجاع ويتصدع بناؤها . .

لذلك كان الطريق الذى رسمه تعالى للصحة النفسية يتحقق بالمحبة التى غايتها الاعراض عن السيئات ، واتباع الحسنات ، وفعل الطيبات من أمر بمعروف ونهى عن منكر . .

«خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين» (الاعراف : ١٩٩)

ولن يتحقق ذلك كما أشار الرسول ـ ﷺ إلا بأن يصل الانسان من قطعه ، ويعطى من حرمه ، ويعفو عن ظلمه . .

فالغاية من المحبة تحقيق الصحة النفسية للانسان فى الدنيا والآخرة ، وذلك برد الكراهية بالمودة ، ومقابلة الاعتداء بالصفح الجميل ، ومجابهة الظلم بالعفو ، واذا وصل الانسان الى هذه الدرجة من السمو الاخلاقى والصفاء النفسى ، يستطيع أن يحيل الظلام نوراً . . والشر خيراً ، لان فى الحب قوة سحرية تمزق غيوم الأحقاد ، فتزال الغصـــة عن القلوب ، ويهتدى الانسان الى سبيل الخير والرحمة ، فيعين الضعيف ويعود المريض ، ويزكى نفسه بأعمال البر والمعروف ،

يبتعد عن غواية الشيطان ، ويأمن من مكائده ووساوسه ، ويغالب أهواء النفس الأمارة ، وهنا يرضى عنه ويحبه ..

« يحبهم ويحبونه » (المائدة : ٥٤)

« رضى الله عنهم ورضوا عنه » (المائدة : ١١٩)

فالمحبة اذن ارتفاع عن الشهوة وارتقاء فوق الحاجات المادية .. المحبة نقلة من الحب الضيق المقيد الى حب أثمر وأينع وأشمل ، وهو حب فى الله .. ومن الله .. وبالله .. ولله ..

واذا تظاهرت النفس بالحب اقتضت ضدها وخالفت وغفلت(١) ، أما اذا جاهدها الانسان ه . صدقت فى الحب وأخلصت وأمنت وسكنت ، واذا أفرطت ضلت وانحرفت .. كان ذلك الشهوة فرقمت فريسة غرائز الحس ، ودوافع الشبق والعشق ، وليس ذلك الا ابطالا للقوى الروحية وتقديساً للقوى المادية فى النفس ، فإذا كان هياماً وعشقاً .. ابتعدت عن الفطرة السليمة ، وشقت عصا الطاعة على العـــدل ، وانحرفت عن طريق الاستقامة ، وعزفت عن الاقتصاد والقسط .. وتبرأت من الحق ، وعاشت تعبد ذاتها وتوافق إلى نزعاتها المذمومة التى لا تشبع وطلباتها التى لا تتوقف ..

أما إذا اعتدلت وجمحت جماح هواها ، واتتمرت بأمر العفة ، وأقبلت بهمة المخلصين ، وشمرت عن ساعد الجد بعزم الصادقين ، وتريضت بسلاح الطائعين ، واستقامت على هدى الدين ، ترعرعت فى جنبات الله ، واطمأنت فى حجر الرحمن ، وتشففت وقويت .. فكانت لذتها فى القرب ، ونعيمها فى التوكل ، وشربها من الذوق ، وتوجهها إلى الاحسان ، وأملها فى الاجتباء ، وأفراحها فى الاصطفاء ،

(١) قوت القلوب ـ الجزء الأول .

وأنسها في الاصطلام ، وشوقها في الفتوحات ، ونورها في التجليات ، وواديها علوم الأسرار ، وشاهدها الفيوضات ، وثمراتها المنن ، وكاساتها العطايا ، وحبها في الله . . ومن الله . . ولله . . وعن الله . .

الحب اذن في الاسلام حبين :

حب النفس ، وحب الحق . . أما حب النفس فإنه يقود الشهوات والتهالك والضلالات ، وأما حب الحق تعالى فإنه يرقى بالانسان إلى أعلى المنـــازل والمقامات . .

لحب النفس يؤدى الى التعجب والغرور . . وهذا باطل . . كما يؤدى الى الكذب والفجور وهذا طريق الغواية والظلمة . . أما حب الله فهو طريق الايثار وباب الاحسان ، وسبيل المودة والرحمة ، فيه تعمر القلوب بالمحبة وتفعم النفوس بنور الايمان . .

والحب الإنسانى إذا كان خالصاً لله ، كان أيضاً حباً للناس لأنه مقتضى الحب الإلهى وتابع له . . إذ يستهدف الحق ، ويمضى فى رحـــلة الإيثار والسخاء والإحسان . .

والله خلق الناس جميعاً من نفس واحدة(١) ، فهناك صلة رحم فطرية وقرابة طبيعية بين الانسان والانسان ، فيجب أن تظل بينهم المودة والرحمة والألفة والمحبة والأخوة فى الله . .

لذلك كان حب الله متضمنـــاً حب الانسان . . وفى ذلك يقول الرسول ـ ﷺ : ـ

---

(١) قال تعـــالى : « يا أيها الناس إتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » (النساء : ١) .

« إن من عباد الله عباداً ليسوا بأنبياء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء ...

قيل : من هم يا رسول الله ؟ .

قال : هم قوم تحابوا بنور الله من غير أرحام ولا أنساب ، وجوههم نور ، على منابر من نور . . لا يخافون إذا خاف الناس . .

ثم قرأ : ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون »(١) .

والآيات القرآنية التي تدعو إلى الحب الإنساني كثيرة ومنها قوله تعالى :

« الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » .

(الحشر : ٩)

« واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً » (آل عمران : ١٠٣)

سأل شاب أحد العارفين(٢) عن علامة المحبة لله تعالى ؟ .

فقال : ياحبيبي.. إن درجة المحبة لله رفيعة ..

قال الشاب : أحب أن تصفها لي . .

فقال : ياحبيبي.. إن المحبين لله تعالى شق لهم عن قلوبهم فأبصروا بنور القلوب إلى جلال عظمة الإله المحبوب ، فصارت أرواحهم روحانية ، وقلوبهم حجبية (نورانية) وعقولهم سماوية ، تسرح بين صفوف الملائكة الكرام ، وتشاهد تلك الأمور باليقين والعيان ، فعبدوا الله بمبلغ استطاعتهم له ، لا طمعاً في جنته ولا خوفاً من ناره . .

---

(١) ذكر هذا الحديث النسائي وابن ماجه .

(٢) عبد الله اليافعي - روض الرياحين ص : ٤٥ .

فشهق الشاب شهقة فات رحمة الله تعالى عليه ، فجعل الشيخ يقبله ويبكى ويقول : هذا تضرع الخائفين ، هذه درجة المحبين ، هذه روح حنت .. فأنت فسمعت .. فاشتاقت فشهقت .. فماتت .

هذا هو الحب الحق لله .. لأنه أساس الاخلاص ، والانسان هنا لا يخاف فيه من الانتقال إلى الدار الآخرة ، بل يسعى لها سعيها وهو مؤمن ، ويشتاق لقاء الله .. فإذا أتى أمره تعالى كانت نفسه سعيدة مطمئنة راضية لأنها ستتصل إلى الأبد بخالقها وحبيبها ، وهذا منتهى غاية المحبين ..

وكذلك ورد فى الحديث عن الله تعالى :

« يقول الله عز وجل يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى ..

قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ .

قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده .. أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ..

يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى .

فقال : يا رب .. كيف أطعمك وأنت رب العالمين .

قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه .. أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى .

يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقنى ..

قال : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ .

قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندى »(١) .

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أخرجه مسلم عن محمد بن حاتم .

الفصل العاشر

حزن الصادقين

يرتبط الحزن عند علماء النفس المحدثين بالكبت .. إذ أن الكبت في تصورهم وظيفة أساسية ووقائية تجنب الإنسان ما يؤذيه .. ويؤلمه ..

والكبت حيلة دفاعية يلجأ إليها الانسان لخفض درجة توتره ، ولإخفاء ما يؤذيه ويكرهه ، والانسان — في رأيهم — يكبت ما يسبب له الضيق والألم وما تكرهه نفسه .. وما يتناقض مع مثله .. بل وما يجرح كبرياءه .. ويمس احترامه لنفسه ..

وينتهي بعض علماء النفس إلى أن الكبت عملية لا شعورية(١) ، ويقصد منها الخلاص من الألم والحزن والأذى ، سواء كان مصدره جسمانياً ، أو نفسياً ، إلا أنه — في كثير من الأحوال التي يكون فيها الانسان متألماً ألماً ممضاً — يقع في نوع من الغيبوبة التي لا يستطيع منها فراراً .. وهذه الغيبوبة ترجع في نشأتها إلى حزن عميق إلا أنها تخفف — في نفس الوقت — من وطأة ما يذكر الانسان بالحزن .. والخوف .. والخطر ..

فالحزن بهذا المعنى .. كد .. وغم .. وهم .. يصاب به الإنسان عادة عند ما يمر بتجربة لا يجد لها حلا ، فيقوم بكبت دوافعه النفسية المحرمة التي لا يجرؤ على الافصاح عنها أو الاعتراف بها للآخرين .. فتظل في دخلية نفسه

---

(١) E. Glover the Birth of the ego- page 108 London

قائمة بغير حل .. فهو إذن حيلة غير سوية لإخفاء ما يبطنه فيحيا في الحزن والهم والغم(١) .

ويربط علماء النفس بين الخوف والكبت على أساس أننا إذا أظهرنا حقيقة ما نعانيه من آلام ومشاكل .. فإننا نفضح أنفسنا ، ولذلك نخاف من تعريضها إما تخلصاً من العقاب .. وإما من تبكيت الضمير .. أو نخشى تعريضها للاستهجان .. أو ما يترتب على كشف خفايا النفس من الوقوع في المآزق .. والاستهداف للنقد والتقريع والاستهزاء(٢) .

الخوف إذن ينطوى على توتر .. وقلق .. واضطراب .. وحزن ، إذ أن كثيراً من حالات الهم .. والغم .. والمزاج المكدر .. والتوتر العنيف ، تصل بصاحبها إلى حد الجنون ، أو توقعه فريسة لما يسمى بالانهيار العصبي .. أو الجسمي ..

والانهيار العصبي .. انفجار مفاجيء .. أو تضخم سريع لأعراض مرض نفسي ، من نتائجه .. نقص الحيوية ، وفتور المقاومة ، وقلة النوم .

ومعظم حالات الانهيار العصبي .. تكون نتاجاً للقلق .. والفشل .. والاخفاق(٣) ، ولذلك فإن بعض علماء النفس يرون في الحيل التحويلية وقاية وتجنباً للانهيار العصبي .. فبدلا من وقوع الشخص في حالات القلق .. والخوف والحزن الذى يقوده إلى الانهيار العصبي بسبب إخفاقه وفشله .. فإنه يحول

(١) د. عزت راجح ـ أصول علم النفس ص١٥٣-١٥٧

(٢) د. صبرى جرجس ـ التراث اليهودى الصهيونى والفكر الفرويدى ص٢٦٦ .

(٣) د. عزت راجح ـ الأمراض النفسية والعقلية .

هذا الحزن الداخلي إلى شخص آخر يتشابه معه في نفس الظروف والملابسات .. يحول حزنه .. وخوفه عليه .

الحزن عند علماء النفس الحديث إذن كمد .. وهم .. وغم على ما يسبب الألم والضيق ، وما تكرهه النفس .. وتمس احترامها .

وفي رأينا أن هذا المعنى يهتم بدور واحد للحزن .. فلا يفصح عن حقيقة الحزن في الانسان .. فإذا رجعنا إلى معنى الحزن عند الأئمة لوجدنا أن الحزن يتجاوز هذه الحدود الحسية ، وتلك المقاييس الجامدة ، أو الظواهر السطحية التي يحكم بها أصحاب علم النفس الحديث .

فالحزن — كما يراه الأئمة — أنين صادر من القلب(١) ، يمنع النفس من طلب السرور والطرب والفرح ، إذ أنه يجعل الانسان دائم التفكير في حاله ، عديم الرضا عنها ، وبذلك يعتبر طريقاً لتنقية النفس ، وباباً لتطهيرها .

يقول الرسول ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً وضحكتم قليلا »(٢) .

فليس الحزن إذن بسبب ضياع لذة .. ولا لطلب منفعة زائلة .. ولا لتوقف شهوة من شهوات الدنيا فحسب ، فإنما الحزن هو زاد المؤمن ، فكلما زاد همه وحزنه في دنياه ، زاد ثوابه في آخرته ..

فالحزن إذن فضيلة .. تزيد من إيمان المؤمن إيماناً ويقيناً .. يقول الرسول ﷺ : — « عليكم بالحزن .. فإنه مفتـــاح القلب .. أجيعوا أنفسكم وأظمئوها »(٣) .

---

(١) الإمام الطوسي — اللمع ص٢٧٢ — ٢٨٩

(٢) عن أبي هريرة — كما ذكره الحاكم .

(٣) عن ابن عباس .. والطبراني في الكبير .. وذكره السيوطي في الجامع الصغير .

وبهذا المعنى يكون الحزن وجداً . والوجد تفسيراً واضطرابا أى عملية دينامية تتحرك من القلب وتؤثر فى الجوارح ..

يقول النورى الصوفى : « الحزن وجد ، والوجد لهيب ينشأ فى الأسرار (القلوب) ويأتى عن الشوق .. فتضطرب به الجوارح » ..

والوجد اما حزنا .. أو طربا (١) ، وذلك بحسب ما يرد على النفس من واردات .. وما يقذف إلى القلب من خواطر ، وبالوجد يتغير الواجد .. إلا أن هذا لا يدوم .. ولو دام لبقى الحزين حزينا ، والفرح فرحا .. وهذا يؤثر على اعتدال الأمزجة .. فيفقد الانسان توازنه ويكدر طباعه ..

والحزن وجد .. والوجد يتغير إذن .. فالحزن يزول .. أما إيمان المؤمن فيبقى على حاله مع الثبات، مع تغير الوجد ، وزوال الحزن .. مصداقا لقوله تعالى:

« إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » (التوبة : ٤٠)

هذا حزن صديق هو سيدنا أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ حزن لا لدنيا يصيبها .. ولا لامرأة يتزوجها .. لكنه ثمرة الاخلاص فى حب الله والجهاد فى سبيله ، والخوف على حياة رسول الله ﷺ حزن فى الله .. لأن الرسول حبيب الله .. ودليلنا على صدق ما نقول ، أن الرسول حين يعلم ما بقلب صاحبه من الحزن .. فى كلمات موجزة قاطعة تنفذ إلى شغاف القلب لتؤثر فى جوارحه ، وتبعث الأمن .. وتبث الطمأنينة من جديد .. يقول لصاحبه وذلك فى قوله تعالى :

« لا تحزن إن الله معنا » (التوبة : ٤٠)

---

(١) أبو بكر محمد الكلاباذى ـ التعرف لمذهب أهل التصوف : ص ١٣٤

فتنزل السكينة .. والأمن .. والطمأنينة على قلب الصديق أبي بكر ، فيمحى الحزن .. ويرتفع الألم ، ويبدل الله خوفه رجاء ، وقلقه أملا ..

« فعلم ما فى قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم » (الفتح : ١٨)

هذا الحزن الدفين .. من علامات القلوب العامرة بالإيمان .. وينتهى عادة بالأمل فى الله .. والأمن مع الله .. والثقة به تعالى ، فلا تأتى السكينة إذن إلا بالحزن ، ولا الأمن قبل الخوف . مصداقا لقوله تعالى :

« ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (يونس : ٦٢)

وفى قصة سيدنا يعقوب ـ عليه السلام ـ أيضا معنى من معانى هذا الحزن الجليل ، فيوسف ـ عليه السلام ـ لم يكن شخصية عادية ، بل كان نبيا .. بشّر بالرؤيا .. ولم يتجاوز سن السابعة .. وبفراسة الأب المؤمن ، عرف يعقوب ـ عليه السلام ـ أن يوسف يختلف عن أخوته .. فهو مراد لله ، وحبيب لله ، فلما فعلوا به فعلتهم النكراء .. كان حزنه عليه عظيما ..

لقد بطش به أخوته .. وألقوه فى غيابة الجب .. لم يشك يعقوب ـ عليه السلام ـ إلى الخلق والمخلوقات .. مما فعله أولاده .. ولم يلجأ إليهم فى حزنه ، ولم يبثهم شكواه انما قال كما ورد فى قوله تعالى :

« انما أشكو بثى وحزنى إلى الله » (يوسف : ٨٦)

والحزن هنا ليس فى فراغ .. وليس مصدره اليأس والقنوط من رحمة الله .. وانما حزن قلب واع ، ونفس مؤمنة .. صادقة التوكيل .. مسقطة التدبير مع الله .. حقا أوتى يعقوب ـ عليه السلام ـ كظم غيظه ، وصبر على فراق ابنه وحبيبه .. وحبيب الله .. يوسف ـ عليه السلام ـ ..

وحقا .. لشأت ليعقوب ـ عليه السلام ـ حالة نفسية من جراء حزنه ، وكظم غيظه .. لشأ عنها ازدياد الضغط على عينيـــه ، حتى أصيب بنوع من العمى ، فبدت عيناه بيضاء : (١)

« وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » (يوسف : ٨٤)

لكنه من ناحية أخرى ورغم حزنه ـ كان واثقا فى الله ، عارفا بأنه امتحان منه تعالى ، وابتلاء له يجريه على يديه ، ليجربه ويعلمه بعض أسراره .. ويفتح له أبواب حكمته ..

ثم جاء الأمل بعد كظم الغيظ والصبر على الفاجعة ، وذهبت الغمة إلى غير رجعة .. والهم بلا عودة .. فدخلت إلى نفسه وقلبه جميعا السكينة والأمن والطمأنينة ، عندما بشره الله أن ابنه حى يرزق ، فقال:

« انى أعلم من الله ما لا تعلمون » (يوسف . ٩٦)

فكظم الغيظ إذن خطوة فى الطريق إلى الله، وهو بداية المعاناة والمكابدة.. ومع كظم الغيظ لا يرفع عن الإنسان حزنه وألمه، لكنه ـ مع ذلك ـ لا يفقد ثقته بالله ، فالثقة موجودة ، بدليل أن هناك صبراً على الابتلاءات ، وكظم الغيظ فى الفاجعات .. إلا أن ذلك لا يمنع من حزن الحزين .. ولا من أنين الواجد إلا إذا تولاه الله برحمته .. ومنّ عليه بسكينته .. وأفاض عليه من حكمته.. فأمده برحمته ..

وليس معنى ذلك أن الحزن بالمعنى السيكولوجى الحديث .. لم يبين فى الاسلام .. وانما نحن نبين هنا أن الحزن الحق هو حزن فى الله.. وليس حزنا على متاع الدنيا .. وضياع لذاتها وشهواتها .. فلقد ذكر القرآن معنى آخر

(١) تفسير الجلالين ـ وكذلك المنتخب فى تفسير القرآن .

الحزن ينصرف فى مقاصده إلى أهل الدنيا .. ويستهدف مرضى القلوب .. وأصحاب الرياء والغرور .. وهذا الحزن يدخل إلى قلوبهم ، ولا يخرج منها إلا إذا تولاهم الله برحمته فيقول تعالى :

« أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم »

(محمد : ٢٩)

وهذا الحزن يزيد الإنسان شكا وريبة ، فهو من تخاويف الشيطان .. وأباطيله ، إذ أنه نجوى .. والنجوى نوع من التناجى ، الذى يفقد النفس اعتدالها وتوازنها واستقامتها .. يقول الله تعالى :

« لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا » (الأنبياء : ٣)

فالنجوى تهامس الخائفين سراً .. مع تضخيم للأحداث وتهويل للوقائع .. وظن فاسد فى الحكم على الأفعال والأعمال ، وبها تشحن النفس بالحسرة والكمد والنكد على فقد الملذات وضياع الشهوات .. ويحسّن اليهــا الشر والفسوق والعدوان .. ويبلى الله قلوب أصحاب النجوى بالأوجاع ، والآلام ، والأمراض ، والرعب ، والخوف ، والفزع .. لقوله تعالى :

« ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم » (آل عمران : ١٥٦)

« فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا » (البقرة : ١٠)

« سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله »

(آل عمران : ١٥١)

وهذا المرض الذى يدخل إلى القلوب .. يكون بتسليط الشيطان عليهم ، وغوايته لهم ، وذلك كما حدث لآل فرعون وموسى عندما شاءت حكمة الله أن يرسل موسى ـ عليه الله ـ اليهم ليكونوا من بعد عدوا لهم .. مثيراً لحزنهم .. منغصا

لعيشهم ، ناقدا لدينهم ، هادما له :

« فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » (القصص : ٨)

إذن هناك نوعان من الحزن .. حزن على الدنيا وما فيها ، وهو يستمر مع الشرك . ويعظم مع الرياء .. ويفقد الإنسان طعم الحياة ، ويوقعه فى الضلالات، وهو الذى قصده علماء النفس الحديث من أنه سبب للانهيار العصبي .. والمرض النفسى ، ونقص الحيوية والمذلة ، والحسرة ، والألم ، وشتى أنواع المكبوتات التى ينتهى بالانسان إلى الفساد والعطب والضياع ..

أما الحزن الحق .. فهو حزن واع صادق ، فيه ثقة بالله ، وعلم من الله ، وفيه لا يحزن الإنسان على ضياع لذات ، أو فقد شهوات أو مفارقة الأهواء ، وانما حزن فى الله .. ومن الله .. وبالله . ولله ..

وهذا الحزن هو باب لتطهير النفس من أدرانها ، ودرجة فى طريق تنقيتها من أوهامها ، لتتحقق لها الطمأنينة ، والسكينة والأمن ، وما يحظى به المؤمن منّة من الله وفضلا .

الفصل الحادي عشر

الاضطرار والافتقار[1]

يغوص علم النفس الاسلامى إلى أعمـــاق النفس البشرية . . فيتعرف على جواهرها . . ورمالها . . وأحجارها . . ويكشف عن معادنهـــا الثمينة والخسيسة . يتفحصها تفحص الطبيب الجسور فى أحوالها المختلفة . . وصورها المتعددة ، لا فهم المتوهم .. المتخيل .. المغرور ....

وقد استخلص الأئمة فى سياحاتهم النفسية .. وسياحاتهم الروحية فصوصا نادرة . . . وعلوما جامعة . . فى طبـــائع النفس وعادتها . . وصفاتها . . وأوصافها . . وأمانيها . . وأحلامها . . وميولها . . وشهواتها .

ومن ثمرات ذلك الغوص إلى باطن النفس البشرية .. وجدوا أن الناس تميل إلى التطبيع عادة بمـــا تميل اليه نفوسهم ... فيحبون ما تحبه . . ويكرهون ما تكرهه .. كما أنهم رأوا أن النفس بطبيعتها تسعى إلى الحسى الملموس ... وتتجنب العقلى غير المنظور ...

والنفوس تقبل على الملذ والمستطاب .. وتتجنب المؤلم والمستكره ، فتطلب بلا توقف ما يلذ .. ولا تشبع من ذلك . وتبتعد عما يؤلم فى أى صورة من الصور . . .

والنفس إذا سعيت بفطرتها لتحقيق لذاتها ... استدرت الشهوات واكتسبت الرعونات .. وتزينت بالاغترار .. وفتنت بصحة بدنها الذى تحمله . وتعجبت

---

(١) لمزيد من الاطلاع راجع كتاب ألفاظ الصوفية (الفقر) ٢٠١ - ٢٠٢

بجوها الذي تمايشه . . فترضى عن ذاتها كل الرضا . . وتعادي كل ما يعوق لذتها المأمولة .. لأنها عابدة لذاتها . ساهرة أبدا على تنفيذ شهواتها المحمومة .. حتى لو عادت غيرها وحاربت في تحقيقها الناس جميعا . . وذلك للوصول إلى ما تهدف اليه من اشباع ، فاذا تركت لأهوائها . . وقعت في مسالك هاوية ، وطرق مضللة ..

ومن حكمة الله امتحان النفس بشق أنواع الابتلاءات حتى يصقل معدنها ... وتتطهر بالاختبارات من نقائصها ، وتتشذب بالفاجعات من غرورها . . وتعجبها ..

وفي هذه الأحوال تضطر إلى الالتجاء إلى الله . . فتعرف أن لا ملجأ لها إلا اليه ... وفي هذا المقام تعرف بافتقارها اليه . . وأنه — تعالى مستغن عنها بالكلية ... وأنها ضعيفة بدونه ... وأنه القوى على الحقيقة ..

والصادق يرى في الاضطرار إلى الحق تعالى ضرورة ، لذلك فافتقاره اليه قويا . . مستمرا ودائما ، إذ يتحقق بالاحتياج وجوده ومهما بلغت نفسه من الكمالات الأخلاقية ، فانه يعلم أن ذلك بفضل الله ونعم الله عليه . . إذ لا تجسد نفس الصادق إلا عظيم قدرته وواسع حكمته .. ثم أنها ترى فقرها وضعفها مهما حظيت به — منة وفضلا منه تعالى — من درجات ومنازل ومقامات . .

والصادق مع الله .. لا يرى غير الله ولا يستطيب عيشا بدونه . . فلا حياة ولا وجود إلا به .. إذ أنه يشعر بوحشة مع الناس ولا يأنس إلا بالله .. (١)

---

(١) الشيخ ابن عطاء الله السكندري — التنوير في اسقاط التدبير — ٣ — ١٩

الفصل الثاني عشر

محاسبة النفس

على الانسان أن يعرف نفسه على حقيقتها ، فما من خير يسعى مجاهدا لعمله إلا وتنازعه نفسه فيه وتريد خلافه ، وما من شر يقبل الانسان عليه إلا وكانت نفسه داعية اليه ، ولا ضاع منه خير إلا وكان بسبب جنوحها وهواها ،ولا مال إلى حرام أو محظور أو مكروه إلا من محبته لنفسه وجنوحه إلى طاعتها وارضائها ..

وإذا أراد الانسان الحياة الباقية وسعى اليها . . سحبت نفسه إلى الدنيا الفانية .. طالبة الراحة فيها ، والغفلة عن الآخرة ، وإن حاول تذكيرها بالآخرة وتفكر في خلود نعيمها .. بخلت وتشككت وتبرمت وطلبت زخرف الدنيا وأكثرت من التمني في طول العمر والأماني الكاذبة فيها . .

ومن صفات النفس أنها عندما ترضى (1) ، تتصف بالعلم ، ورحابة الصدر ، وتزعم كظم الغيظ وتجنب الحمق ، لكنها عندما تغضب تنسى حلمها ، وتتنكر لقولها ، فيظهر منها السفه والحنق والحمق والحقد ، وسوء الخلق ، وهي تبذل الشيء ادعاء ونفاقا عندما لا تحتاج اليه ، ثم أنها تمنعه عند الحاجة والشدة . . وهذا من صفاتها المذمومة .. فهي تدعي الاخلاص وهي مرائية كذوبة . .

لقد وعدت بالصبر عند الغيظ ، وبالحلم عند الغضب ، لأنها تعلم أن ذلك مفتاح نعيم الجنة . . وإنها إذا غفلت أغضبت الله تعالى مما يوجب نقمته

---

(1) المحاسبي — الرعاية ص : ٢٩٢

عليها ومن ثم عذابها فى النار .. ولكن ذلك علم نظرى ينقصه السلوك العلمى (١) ..

وإذا امتحنتها عند الاحتياج رأيتها يائسة من رحمة ، قانطة من عفوه تعالى ، ثم أنها تسلك إلى الوساوس والمخاوف ، وتستبعد طريق نجاتك من العذاب ، وهكذا أن شاورتها غررت بك ، وأن سألتها كذبت عليك ، وان امتحنتها هربت منك ، وان ذكرتها غفلت وتغافلت ، فاخلاصها قبل العمل .. تظاهر بالنيات فحسب ، والنيات النفسية إنما صادرة من الخوف .. خوف النفس أن يحبط عملها ، ويضيع ثوابها ..

فاذا امتحنت النفس بالعمل والجهاد ، وضعت الحواجز ، واصطنعت الحجج وأدعت الأكاذيب ، فاذا تمت مواجهتها وكشفت ادعاءاتها ثارت .. حانقة ، وفزعت ساخطة ، وفرت من وعدها ، وهاجت شهوتها ، ولبست الحق بالباطل وبذلك تمتنع عن الاخلاص ، وتفسد العمل الطيب ..

والنفس لا تصدق حيث تتنكر دائما لوعدها .. كما أنها لم تقل سلفا أنها ستراثى عند امتحانها بالعمل ، وإنها ستمتنع عن تنفيذ ما وعدت .. لكنها أدعت الاخلاص .. وعندما طالبتها بالعمل وقت وقت الحاجة .. تنكرت وحنثت بوعدها ..

وكذلك حالها فى إدعاء الورع .. إذ أنها تدعى الورع ، وليس موجوداً لديها ما تمتحن به . فتزعم أنها تتق الله خوفا من عذابه ، وتبعد عن المعصية رجاء الفوز بالثواب (٢) ..

---

(١) العريمة والخطيئة :: للمؤلف — الدار القومية للطباعة والنشر

(٢) الرعاية — ص ٢٩٢ وما بعدها .

وإذا جاء ميعاد الوفاء .. وقت الامتحان .. مالت إلى الشهوة ، وشرهت فيما زعمت أنها زاهدة فيه ، بل وطلبت المزيد شحا وبخلا .. وامتنعت عن القيام بما أدعت القيام به من الورع .. ومثلها فى ذلك مثل العدو الخبيث يعطيك من الأمن ما يجعلك تغتر بفنون أحاديثه .. وعذب كلامه ، وتطمئن اليه ، فلا تخشى مكائده ، وتسكن عن الظن فى سوء مقاصده ، فلا تتيقظ له ولا تحذره ، ثم إذ به على حين غرة ينقلب وحشا كاسرا عند ركونك اليه ، وحاجتك إلى معونته ، فبدلا من أن يعطيك يظلمك ويطلب هلاكك ، وينكث وعده ، ويفتك بك ..

هكذا النفس دائما لا تصدق ، فان وعدت بالزهد عند زيادة المال والأملاك فانها تراجع .. بخيلة شرهة ، ضنينة مقترة .. بل أنها تطلب الزيادة وترغب فيما لا حق لها فيه ، ولا تشبع من تضاعف الثروة وكثرة المال .. إنما تجدها حريصة لا تقنع .. طامعة لا تزهد .. (١)

وإذا أدعت النفس — وهى سليمة ومعافية — أنها سترضى بالمفاجعات وستصبر عند اختبارها فى المحن ، حنثت فى وعدها وكذبت عند امتحانها بالابتلاءات، فتنكر عند نقص المال ، وتعترض على الأمراض والأوجاع وتجزع عند نزول الشدائد ،.وتتبرم من قضاء الله .. وحكم الله ..

كما أن زعم النفس الرضا فى كل حال إنما يصدق متوسما قبل نزول البلاء .. وهذا لا يعد صدقا ، إنما الرضا الحق فى صدق العبد فى تجربة البلاء ، والصبر على الأذى ، وتحمل النوازل ، ومكابدة الأهوال ، فإذا رضى العبد على حكم الله وقضائه تعالى كان راضيا .. لا يتبرم ولا يسخط .. وهذا مقام عال لا يصل اليه إلا الصالحين ..

---

(١) الرعاية — ص ٢٩٢ وما بعدها .

كما أن النفس تزعم التوكل (١) على الله ، وإسقاط التدبير معه تعالى ، والثقة به عز وجل .. ما دامت فى خلاد الراحة والنعيم ، ووافقتها الأسباب ، ولم تنازعها فى حظوظها وما تبغى من الشهوات .. فإذا عرض لها عارض .. وتغير الحال ، استشعرت فى أمر يحتاج فيه إلى الالتجاء إلى التوكل تعلقت بأطماعها الشهوانية ، وتشبثت بأحوالها الدنيوية .. ومالت إلى حظوظها البشرية .. ونافقت الخلق لتبقى لها عزها وجدها ، وابتعدت عن الحق رياءا ونفاقا .. وأفسدت التوكل ، وذلك بترجيح العمل على اشباع لذاتها ، ووقفت حجابا بين الانسان وتوكله ، كأنها لم تكن هى الداعية اليه ..

فإذا حاسب الانسان نفسه على مذموم أفعالها ... وعرفها بحقيقة ريائها ، ووعظها ... العمل على اسيانها ، وداوم على تأنيبها على اقتراف المستكرهات التى تقودها إلى الهلاك ، وذكرها بوعد الله ووعيده .. وماسيسأل عنه غدا .. وعاون العقل الراجح فى هدايتها ، فزجرها وأيقظها من غفلتها ، وأبان لها طريق الخير الفاضل ، واليقين الذى لا مراء فيه ، وأثبت لها الفؤاد بالبصيرة النافذة ذلك جميعا وتحققت منه .. وقهرها بالحجة الدامغة .. رجعت بعد طول عناد عن شهواتها الظاهرة ومطالبها العاجلة التى لا تشبع ..

لكن النفس مع ذلك لا يأمن (٢) لها حيث أنها تتظاهر ولا تخلص وتوافق العقل لفترة حتى تقوى عليه ، فتتزى بزى المتقين ، وتتستر خوف الافتضاح ، فإذا أحيل بينها وبين الشر الظاهر ، وافقت وتظاهرت بعمل الخير إلى حين ، رغم أنها تميل إلى الشر الباطن ، فهى مخادعة مرائية .. لا يعتد بكلامها ، ولا يثق

---

(١) الرعاية — ص : ٢٩٢ وما بعدها

(٢) المرجع السابق

فى وعودها .. فهى تريد الدنيا وإن تظاهرت بحب الآخرة ..

أن فى معرفة الانسان لنفسه وحذره منها ، ويقظته فى تقلبها ... ضرورة ما بعدها ضرورة لتحقيق الصحة النفسية .. فالنفس إذا غفلت سكنت إلى الراحة والخمول ، وإذا ايقظت نازعت واعترضت لتشغل الانسان عن معرفة الله ، كما أن هواها هو الذى يقهر العقل فيغفل وهى كعدو متربص لك لا تقدر أن تقتله ولا تستطيع منه هروبا ، فآمالها لا تنتهى عند حد ، مثلها كمثل رجل له ابنين هما النفس والعقل ، لا يستطيع التخلص من أى منهما .. إذ هو مطالب برعايتهما واعالتهما ، وبينما هو نائم اذ بأحد ابنيه « النفس » يحضر حجرا ليهشم رأسه ، واذا بالابن الآخر « العقل » يوقظه وينبهه ، فيقوم من نومه ليتلقف الحجر من الساعى الى قتله .. ويلقى بالحجر بعيدا ، إلا أن الأب لا يستطيع الانتقام من ابنه .. بقتله .. وإن قرر تأديبه على فعلته ..

والأب الحكيم يجب أن يكون حذرا على الدوام ممن شرع فى قتله ، متهما له فى أفعاله ، متشككا فى كلامه مقرا بالفضل لمن نبهه وأيقظه .. وبذلك يسلم من كيد النفس .. أما الابن الثانى فعليه أن يحسن الظن به لحسن صنيعه عندما نجاه من موت محقق ، وخطر داهم ، وبذلك يسلم من كيد النفس اللوامة ..

واذا استقامت النفس بعد طول مكابدة ، وشفيت من أمراضها بعد عناء المجاهدة ، واذا عرفت الحق وحظيت بالمنة — فضلا من الله ونعمة — اقتربت من الله خوفا وطمعا ، وهرعت اليه ثقة وتوكلا ، وأقبلت على طريقة تعالى رجاء وأملا ..

اذا عرفت نفسك اذن عريتها من قناعها المستتر ، وكشفت زيها المستعار ، وتأكد لك ما استهدفه من حيل ومحاولات لموافقة الشهوات وربما تتفنن فيه

لتحقيق حظوظها ، وبذلك تأمن شرها وشرورها . . فلا تقدر أن تلعب بك ، وتجعلك عبدا لها ، تسيرك كيفما تشاء ، إذ أنك عندما تصدقها النصيحة لا تنافقها ولا تداهنها فتكون بذلك حاكما لها ، سيدا عليها ..

فأفضل ما تفعله أن تفتش (١) عن نفسك ، وتتهمها فيما تجهله عنها من غامض أحوالها ومن مستور كيدها ، وتظاهر تقواها ، وتناقض أفعالها ولا تيأس من رحمة الله ، ولا تقنط وتتسلم فينقطع عنك الرجاء ..

وإذا أقدمت على الخطأ فاطلب العفو ولا تشكك في واسع رحمته تعالى بل عليك أن تلجأ اليه طالبا العفو والصفح ، غير ملزم له تعالى بتحقيق عفوه وصفحه وإنما تطلب منه وأنت خائف عدم تحققه ، راج تحققه ، ومن يخاف ، يعفو الله عنه ، لأنه صدق في رجائه ، ومن ألزم الله بتحقق مطلبه فقد كذب في ادعائه ، واغتر بعفوه ورضائه .. ومن اغتر بالله .. غضب عليه .. ومن غضب عليه فلن يعفو عنه ولن يصفح عن سيئاته . لأنه لم يعرف الله حق معرفته ..

الطريق الحق لمحاسبة النفس إذن أن تخاصمها ، كما تخاصم عدوك الظالم ، البليغ الحجة ، القوى البيان ، المعتد بنفسه الظالم المتزين بالأكاذيب وعليك ألا تصالحه حتى يرجع عن غية بعـــد أن تكشف أمره فاذا كشفته فقد عرفته ، وإذا عرفته إنهارت حجته ، وفقد أسلحة الغواية واستسلم لك بالكلية ..

وإذا تكبرت النفس وتجبرت فارفع أمرها إلى الكتاب والسنة ، وهما الحكم العدل .. وبهما يحسن تأديبها ، وبهما تقام عليها الحجة ، وينزل بهما الحد الواجب الاتباع من الوعظ والحبس والضرب ، فترفع عنها بذلك الرياء والكذب والحنث

---

(١) الرعاية — ص : ٢٩٢ وما بعدها

والضلال .. وتنقطع معاذيرها ، وتتراجع عن ادعاءاتها وعليك ألا تتوقف عن تأديبها وتربيتها إلا إذا انقادت النفس إلى الحق وتبعت طريق العدل والاستقامة ولم يكن لها بد إلا الاذعان والندم والعزيمة .. والاسترسال مع الحق تعالى ، ورغم ذلك فعليك ألا تتغافل أو تغفل ، وإنما عليك أن تكون حذرا منها .. متوجسا من أن تعاود الجنوح إلى طريق الباطل أو الميل إلى الهوى واتبـــاع الضلالات .. (١)

عليك أن تهددها بين الحين والآخر بالعذاب والقصاص إن فكرت في الرجوع إلى الظلم والغدر ، وأظهر لها أبواب العطاء والثواب أن استمرت طائعة مخلصة .. واستعن بالله عز وجل في محاسبة نفسك ، وتوكل عليه في كل أمر من أمورك .. وأحسن الظن به تعالى .. تفوز فوزا عظيما ..

---

(١) الرعاية – ص ٢٩٥ وما بعدها

الفصل الثالث عشر

معرفة النفس

من الموازين الدقيقة التى يستخدمها علم النفس الإسلامى لمعرفة حال الإنسان فى الحياة الدنيا والآخرة، استجلاء الإنسان دخيلة النفس، وسبر غورها ليتبين صدق وكذب دعاويها، ويستهدف هذا التقييم معرفة حقيقة مقام النفس . .

فالإنسان يستطيع أن يزن بهذا الميزان قدره . . ومنزلته . . بعداً . . وقرباً، ورعاً وغروراً ، إخلاصاً ورياءاً . . ولا يتطلب هـــذا الميزان إلا الصدق والإخلاص فى معرفة حال النفس . .

فإذا تساءل الإنسان عن حاله . . ومقامه . . أجابه المربى إذا أردت أن تعرف مقامك، فانظر أين تعالى أقامك(1) ! ! فإذا كانت منزلة الله فى قلبك عظيمة كان مقامك عظيما . حبك لله المقياس والميزان والمعيار .

فالحكم على أفعال العبد وأعماله يمر بامتحان ما يغلب على قلبه، وما يهفو إلى حبـــه . . وما يكرهه . . وعن طريق سلامة القلب ومرضه يعرف مقام النفس . .

فإذا وجد الإنسان نفسه وقد أقامها — الله — على حب الطاعات، وأسبغ عليها نعمة الامتثال لأوامره، ورضاؤه الدائم لحكمه وقضائه . . عرف الإنسان بقربه من الله ورضاه عنه، وأنه تعالى قد أحبه لأنه يسره إلى طاعته :

(المائدة : ١١٩)

« رضى الله عنهم ورضوا عنه » .

---

(1) الشيخ عبد الحميد الشرنوبى — شرح تائية السلوك ص ٧٢ وما بعدها .

أما إذا وجد قلبه مشغولا بمتاع الدنيا الزائل ، راغباً فى حظوظها وشهواتها ولذاتها ، شرها فى الاستزادة منها ، فعليه أن يطلب من الله الرحمة ، ويسارع إلى الخيرات ، ويخالف حظوظ نفسه وحاجاتها التى لا تشبع إذ أنه بعيد عن الله ، حيث يظن القرب .. غافل عنه حيث يتوهم الرضا ..

وهذا قياس فريد لحال النفس ، يشترط فى المستجلى عدم الرياء ، حتى يصدق ميزانه ، ويتمكن به الإسراع فى إصلاح حاله .. فإذا كان غافلا ، فعليه أن يزيد من طاعته ، وإذا كان ذاكراً ، فعليه أن يحمد الله ويشكره على نعمته .. وإذا كان خائفاً عليه أن يرجو الله ويثق فى وعده .

القلب إذن مقياس دقيق(١) .. والمدار عليه فى الحكم على النفس ، فإذا وجد المستجلى حب الله فى قلبه عظيما ، فإن مقامه عند الله عظيم ، وإذا وجد فى قلبه اعتراضاً ، فعليه أن يتهم نفسه ، ويتشكك فى دعاويها ويعرف أنه محجوب عن الحق ، وعليها أن يرفع سيف المخالفة ، ويبدأ بالرياضة والمجاهدة ، ويسقط التدبير مع الله ليتوب عن اعتراضه .. وغروره بنفسه ، إلى أن يتخلص من هذه الآفات ، ويشرف قلبه بالنورانية ومحبة الله ..

والنفس لا تصدق ، والقلب لا يكذب .. والله ــ سبحانه وتعالى ــ يعرف ما فى نفس كل إنسان ، إذا كان يسير فى طريق الطاعات أو فى عمى الضلالات والمخالفات ...

وفى ذلك يستفتى عيسى بن مريم ــ عليه السلام ــ قلبه ، ويقيم نفسه كما ورد فى قوله تعالى :

---

(١) الشريعة والحقيقة ـ عجائب القلب ص ٥٧ ــ ٧٠ .

«قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ؛ إن كنت قلته فقد علمته .. تعلم ما فى نفسى ، ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب» .

(المائدة : ١١٦)

نبى صادق .. يعرف مقامه كعبد .. ويعرف أن الله وحده هو الرب .. ومالكه .. وخالقه وأنه تعالى وحده العالم بما فى نفسه ، فكيف لا يطيعه وهو موجده وكيف لا يخلص له وهو سيده ، فلا يمكن أن يعترض على قضائه وحكمته ، لأنه منشغل أبداً به ، مسقط لتدبيره معه ، فلا تدبير إلا له تعالى ، يفعل ما يشاء ، يعذب من يشاء ، ويغفر لمن يشاء :

«إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك العزيز الحكيم» .

(المائدة : ١١٨)

لقد استجلى عيسى — عليه السلام — قلبه ، فوجده سليما مع الله ليس به شبهة اعتراض ، ولا تهمـــة اغترار ، ليس فى قلبه اعتراض لله فهو طائع على الحقيقة ، عارف بمقامه ، لا يتعداه ، يعرف أنه عبد الله مهما أفاض عليه من النعم الظاهرة .. والباطنة ، مخلوق ضعيف إلا به تعالى محتاج إليه على الدوام ، مفتقر إليه على الاستمرار ، يسره — سبحانه — حسب مشيئته وينعم عليه حسب قضائه ، فهو متقلب فى رحمته .

والإنسان فى حاجة دائمة إلى هذه الوقفة الفاحصة ، بين الحين والحين ليراجع نفسه ، ويستفتى قلبه ، حتى لا يغفل ويتعجب ، أو ينسى ويغتر أو يبتعد لاهياً متوهماً .. إنه يسعى فى طريق الحق وهو يتخبط فى هوى النفس ، ويغرق فى جحيم البعد .. ويتردى فى ظلمة القنوط واليأس .

ولقد اشتهت(١) نفس أحد الصوفية السفر إلى الجهاد ، وألحت عليه .. فتأملها .. فوجدها ترجو لذة فى هذا الجهاد .. فتعجب من أمرها وتشكك فى طلبها ، واتهمها بالرياء .. ثم أنه استفتى قلبه واستخار ربه .. فعلم إنما نفسه تريد هذا الجهاد لا لصدق نواياها ، ولا لإخلاص فى عملها .. وإنما هروباً من تحمل عبء العبادات ، وعنت المجاهـــدات ، فتمردت من كثرة المكابدة والمعاناة حيث أن صاحبها يقتلها كل يوم مائة مرة .. فأرادت أن تقتل مرة واحدة .. بعد أن يئست من التنعم بالراحة والخمول وإشباع الحظوظ واللذات .. ولم تجد طريقاً آخرا سوى مطالبة صاحبها بالجهاد ...

عند ذلك كشف الصوفى عن دعواها الكاذبة مخالفها مخالفة العـــدو لعدوه ، وحبسها فى زنزانة الطاعات وألزمها بالآداب والعبادات ، وعلاج ما ألم بها من آفات .. وعمل على تهذيبها بمختلف الرياضات ، وتربيتها لعلاج ما ألم بها من نقائص ورعونات ...

(١) الشيخ عبد المجيد الشرنوبى ـ شرح تائيه السلوك ص٧٢ .

الباب الرابع

استخدامات علم النفس فى المجالات المختلفة

مقدمة :

إن الصعوبة الأولى التى تواجه الطبيب النفسى ، ترجع الى عدم جلاء البواعث فى السلوك الفردى ، وكذلك الى الأسباب الخفية التى تجعل النفس تميل الى العدوان أو الكراهية أو الانطواء أو الانبساط .. الى غير ذلك من صفات النفس وأوصافها البشرية .

كما أنه لا يمكن تفهم طبيعة الشخصية الإنسانية بمجرد التأمل والنظرة المتفحصة ، أو حتى بطريق التجريب المعملى ، أو القياس العقلى ، أو التحليل النفسى ، اذ أن الدراسات النفسية التحليلية والتجريبية والقياسية ، انما تصلح فيما يتعلق بالمادة الجامدة التى يمكن أن تصدق عليها أو تكذبها ... حيث أن المادة يمكن تحليلها وتجزئتها الى شرائح ، ومن ثم يمكن عملياً اجراء التجارب عليها والبرهنة على صحة الفروض المقننة مسبقاً .

أما النفس الإنسانية فهى عالم عجيب ، يتغير فى كل لحظة مثل حديقة تتغير ألوانها وأشكالها وطرقاتها ، فمن يدخلها أول مرة لا يعرف طريقه الى الخروج منها ، نظراً لتغير ألوانها وأشكالها تغيراً مستمراً دائماً ، فكيف يمكن للباحث سبر غور هذه النفس ، وتشريحها الى شرائح ، وتفتيتها الى أجزاء ، كما يتم ذلك بالنسبة للمادة الجامدة والأشياء والموضوعات الخارجية مستخدماً المناهج العلمية والتجريبية والمعملية .. وكيف يمكن أن تخضع دراسة النفس لهذه المناهج بقصد الوصول الى نظرية تفسر الشخصية الإنسانية .

إنه لمن المستحيل دراسة النفس دراسة سليمة ومتكاملة خارج إطارها النابض بالحياة ، وبعيداً عن تفاعلها مع الذات ومع الآخرين عند توافقها وتكيفها وتنافرها وتوحدها وجنوحها وانضباطها مع البيئة والمجتمع .

كما أنه لا يمكن دراسة النفس إلا في تمثلها بالمعايير الخلقية ، وارتباطها بالعقيدة الدينية ، بل وأيضاً حين انعزالها عن القيم وانحرافها عن العرف وفي تحررها من المبادىء والمثل العليا .

وهذا يتطلب من عالم النفس أن يكون أخلاقياً بالضرورة ، ظاهراً وباطناً ، فكراً وعملا ، ليتعرف على الوسط العدل الواجب اتباعه ، والخير الفاضل التي تتصف به النفس المتكاملة ، حين تكتمل لديه المعايير السليمة ، والموازين الدقيقة بذلك يمكنه أن يصف بصدق حال النفس عند التشخيص والعلاج ـ ومن هنا تكمن قدرات المعالج ونجاحه وفشله ... الذى يرتبط بصفات غالبة وأوصاف ثابتة ، تتميز بها النفس موضوع الفحص والدراسة ، فمثلا لا يمكن الحكم على شخص فى موقف دفاع عن الدين أو الشرف أو العرض أو المال ، بأنه عصبى المزاج ، لأن هذا الموقف مؤقت ما يلبث أن يرجع صاحبه إلى طبعه الأصلى من الحلم والتسامح ، وكذلك لا يجب أن نحكم على فرد بأنه انطوائى من مجرد انسحابه من المجتمع وانعزاله عن الناس ، إذ قد يرجع سبب ذلك إلى ظروف مؤقتة أو حوادث أليمة ما تلبث أن تنتهى آثارها ، ويرجع هذا الفرد إلى طبعه الأصلى .. وكذلك الحال بالنسبة للشح والبخل والكرم والجود والسخاء .. وجميع الطبائع ..

إن عالم النفس لعجيب حقاً ، يركن الإنسان فيه أحياناً إلى التقليد والمحاكاة والعادة ، ثم يتمرد حيناً على الحس والمحسوسات ، وكثيراً ما يطمح الفرد ويغتر

باستخدامات العـــلم واستنباطات العقل ، ويتطلع إلى موازين كمية ، وأحكام تقريرية مخالفاً ما تلقنه من مفاهيم واعتاد عليه من عادات وتعلمه فى مجتمعه وبيئته من أخلاق . . بيد أن النفس لا تقنع فى بعض الأصول بعد سيرها فى طريق الإيمان، واكتسابها الصدق والإخلاص بأحكام العقل وموازينه ، وإنما تطلب ما هو يقينى يمثل الحق والصدق فتلهم بالحقائق - منة من الله وفضلا - بعلم لدنى حسب حالها من المجاهدة والرياضة ، وبما أودعه الله فيها من حكمة ، فتدرك ما لا يدركه الحس والعقل جميعاً ، وتتجلى عليها الأنوار . وتفتح لها بعض الأسرار ، وينعم عليها بالرؤى وتبشر بالإلهامات ، وتحظى بالفراسات .

إذن ليس هناك حكم واحد على النفس ، يصـــدق كوصف لها فى مقاماتها المختلفة ، وإنما يجب أن تعرف النفس من خلال أحوالها التى هى مواهب ، ومقاماتها التى هى مكاسب ، كما تعرف فى حال ظلمتها وحجبها عندما تسير مع منطلق الشهوة وغواية الشيطان وموافقة الحظوظ النفسية . . بل أيضاً عند ما توهب السكينة والحكمة . . .

وإذا تم وصف حال النفس فى مكان إقامتها بدأ العلاج من الأمراض والآفات والعيوب ، إذ أنه من المتعذر تعميم النتائج التى تظهر بين بعض الأفراد ، كما يفعل علماء النفس المحدثين ، كمؤثرات السلوك وأحكام عامة واستخلاص نتائج كمية أو وصفية صالحة للتطبيق على كل الأفراد باعتبارها ضوابط التشخيص وعلاج أمراض النفس ، إذ المعروف أن المعالجات التجريبية استمرت لحقب عديدة دون أن تحرز تقدماً ملحوظاً فى دراسة الشخصية .

وإذا كان كل إنسان يحمل نفساً بين جنباته تعبر عن شخصيته ، ومعدن ذاته إلا أن كل فرد ينزع نزوعاً مختلفاً ، ويسلك سلوكا منفرداً ، مهما تماثلت التربية

وتشابهت البيئة وشخصيات المعلمين والمربين ، ويظهر ذلك جلياً فى التصرفات والسلوك الفردى وما يتبع ذلك من تباين وتناقض عند الحكم على هذه الشخصية أو تلك ، فهناك من يسمى بالانعزالى أو الانطوائى وهناك الانبساطى ، كما أن هناك المتصلب والعدوانى والأنانى ، وذلك حسب كل طبع غالب ، وسمات واضحة جلية .

وحتى الشخصية المتوازنة .. أو كما تسمى « السوية » ، فإنها ليست واحدة فى السلوك بدليل اختلاف الحكم عليها من بيئة لبيئة ، ومن مجتمع لمجتمع ، بل فى المجتمع الواحد ، وذلك حسب نظرة الآخرين ، ومن خلال القيم التى يحكمون بها عليها ، والاتجاهات العامة ووجهات النظر التى يؤمنون بها .

لذلك فإننا نقدم فى هذه العجالة بعض ما نظن أنه جدير بالبحث والدراسة آملين وضع بذرة ، عليها تثمر فتتبعها دراسات عن الطب النفسى الصوفى ، الذى اختط لنفسه طريقاً آخرا فى دراسة النفس البشرية غير الطرق المتبعة عند علماء النفس المحدثين والتى تعتمد فى دراساتها على المناهج العلمانية والحسية والموضوعية والاكلينيكية والتجريبية ، فلقد تعددت هذه الدراسات واختلط بعضها ببعض ، بل وتناقضت الآراء فيها ، وتضخمت الأبحاث الجزئية والتطبيقية حتى صعب التفسير والترشيد ، ووقف الناس يعتقدون أن ذلك هو الفكر المتكامل ، والعلم الحق ، بل العلاج الناجح لكل ما يعانونه من عذاب ويأس وآلام فيما كون كل ما يقدم فى ثوب جديد ، ويتمردون على كل قديم ، ويثورون على كل شىء ، ويلتحفون بكل مستحدث غير عابئين ... إذا كان هذا الجديد يوصلهم إلى الهناء المنشود ويلقى بهم فى حياة أكثر شقاء وتعاسة ، فهم غير حريصين على التأمل فى هذا الجديد الذى يقدم لهم ، والذى يمكن أن يؤدى بهم إلى شط الأمان أم أنه سيكون بعلبة اليأس والمرض والحسرة والخسران .

ويستطيع الإنسان أن يدرك بذاته بما وهبه الله تعالى من العقل .. أى أنه يتأمل ذاته ويعرف أين يقف من طريق الله ، فالإنسان حجة على نفسه ، وهذا وارد فى قوله تعالى :

« بل الإنسان على نفسه بصيرة » .

(القيامة : ١٤)

فإذا تغافل الإنسان ، فإنه يصبح كالأعمى لا يبصر شيئاً ، ويحجب عن العلم والمعرفة ، وفى ذلك يقول تعالى :

« فمن نكث فإنما ينكث على نفسه » .

(الفتح : ١٠)

ومعنى ذلك أن الإنسان يمكنه أن يتعرف على الحق ، لأن آيات الله مبصرة ، فيها الحق الواضح الجلى ، إلا أن الذى يتبع هوى نفســـه ، وينزع إلى غواية الشيطان فهو ضال ، قد نكث بعهد الله ، لمرض فى قلبه أودى به إلى الضياع والحسرة ، والله سبحانه وتعالى عالم بالنفس البشرية ، ومدرك لآفاتها وعيوبها ، لأنه موجدها وخالقها ، وفى ذلك يقول تعالى :

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه » .

(ق : ١٦)

والوسوسة إنما هى خاطر شيطانى ، ناتج عن غواية الشيطان للانسان ونجاحه فى استجلابه إلى حزبه ، وذلك بتحسين أفعاله السيئة ومساعدته على الزنا والشرك وعدم موافقة الله سبحانه وتعالى ...

فالنفس والشيطان يأمران الإنسان بالمعصية ، ويحثانه على التعجب والتكبر

والتجبر والعظمة والعدوان على الآخرين ، كما ورد فى قوله تعالى :

« وكذلك سولت لى نفسى » .

(طه : ٩٦)

والله يعلم ما يخفى وما يظهر ، وأعلم بالنفس البشرية لأنه خالقها ، لذلك أرسل الأنبياء والرسل ، لنصح البشر وهدايتهم ، لما فيه صلاحهم وسعادتهم ، لأنه يعلم أن النفس تنزع بما فطرت عليه إلى الأهواء والحظوظ ، فوجب تقويمها وتوجيهها عن طريق وحى الأنبياء ، وذلك وارد فى قوله تعالى :

« ربكم أعلم بما فى نفوسكم » .

(الإسراء : ٢٥)

فإذا اتقى الإنسان ربه، وأصلح عمله، واتبع إرشاد الأنبياء واقتدى بالرسول — ﷺ — فهو من الفائزين ، أما من اتبع هوى نفسه فقد ظلمها وأساء إليها ، وذلك وارد فى قوله تعالى :

« من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها » .

(فصلت : ٤٦)

وإذا حاول الإنسان أن يتظاهر بتقوى الله ، ولكن باطنه خرب بزعم أن ظاهره قد يخفى قلبه المريض ، فإن ذلك لا يخفى على الله وسيحاسبه عليه حساباً عسيراً ، وذلك وارد فى قول عز من قائل :

« وإن تبدو ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » .

(البقرة : ٢٨٤)

أما إذا تطهر الباطن وأصبح الظاهر والباطن سواء ، فإن الإنسان يشرق

قلبه بالحق ، ويحسن لنفسه ، وفي هذا المعنى ورد قوله تعالى :

« إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم »

(الإسراء : ٧)

فالإنسان في كماله وانحداره ، وفي علمه وجهله ، وفي ضعفه وقوته في تكاسله وجهاده ، وفي انحلاله وورعه ، واضح لله وضوحاً جلياً ، محكوم عليه بحسب عمله في الدنيا ، وبحسب ما وعد به الله في الآخرة ، والإرشاد والنصيحة والمغفرة والتسامح موجود أيضاً في خطاب الله تعالى ، ليعيد الإنسان تأمل ذاته ، وليعبر رحلة الحياة سالماً غانماً ، ويكتسب له التوفيق والفلاح ويبلغ العلم والحكمة ، فيخاطب الله – سبحانه وتعالى – عباده فيقول لهم :

« قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » .

(الزمر : ٥٣)

« خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

(الأعراف : ١٩٩)

« قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » .

(المؤمنون : ١ ، ٢)

« فاستقم كما أمرت » . (هود : ١١٢)

« إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

(يوسف : ٩٠)

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . (الحجرات : ١٣)

كل هذه الآيات إنما تبين للإنسان السلوك السوي الذي يجب أن يسير عليه

فى حياته حتى يصبح له منهجاً وغاية ، فإذا تم له ذلك ، حظى بالحكمة ، وهذه هى الواردة فى قوله تعالى :

« ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » . (البقرة : ٢٦٩)

فكيف نتبع إذن.. فى وصف النفس البشرية منهج أصحاب علم النفس الحديث واجتهاداتهم التى ثبت عقمها فبدل أن تشفى الإنسان وتساعده على انتهاج الطريق المستقيم ، وتيسر له الحياة ، أمرضته بكثرة ما أظهرته من عيوب النفس حتى تراكمت عليه فازداد إنسان العصر شقاء وتعاسة وتعقيداً ...

لقد كانت النتائج التى توصل إليها علم النفس بفروعه المختلفة كما يقول أحد العلماء وهو (أيزنك) ولم يقدم علماء النفس الأكلينيكى والأطباء النفسيين إجابة شافية على تساؤله الذى يقول فيه : إن معدل شفاء العصابيين ثابت فعلياً ، سواء عولجوا بالأساليب المختلفة للعلاج النفسى المعروفة أو تركوا دون علاج[1] .

ولقد صدق (ايزنك) فيما أورده عن علم النفس الحديث ، ذلك أن الانسان لا يمكن تصوره كطبيعة واحدة ، يمكن قياسها والحكم عليها ، فليس سلوك الانسان من النوع الجامد الذى تحدده الغريزة ، كما يدعى (فرويد) وتلامذته على نحو ما نجده فى المستويات الدنيا من الحياة ، كالحياة الحيوانية مثلا ، ولا يمكنُ وضع الشخصية الانسانية فى قوالب جامدة ودراستها وبحثهـــا ، إذ أن الانسان قابل باستمرار لأن يعدل من سلوكه ويغير من اتجاهه ..

ليس الإنسان إذن جامدا فى سلوكه وتصرفاته وإنما لديه المرونة الكافية ، والقابلية للتغيير ، لما يمتاز به من ذكاء ، وهذا الذى يجعل عملية التطبع وتلقين أنواع جديدة للسلوك ممكنة ..

---

(١) د. سيد غنيم — سيكولوجية الشخصية ص ٢٩٦ .

أن القابلية للتغير فى الانسان تجعل لشخصية الفرد طابعا متميزا ومستقلا عن غيره من الأفراد ، بل ومتغيرا كل التغير عن غيره ، وإذا أردنا أن نضعه داخل قوالب ومقاييس جامدة ، فاننا لن نستطيع بحق أن نحكم على الشخصية الانسانية ، ذلك لأننا يستحيل علينا أن نتنبأ بالسلوك المقبل أو التصرف التالى لهذا الفرد أو ذاك ، فرغم وجود بعض تشابه فى سمات وأنماط بعض الشخصيات فاننا رغم ذلك لا يمكننا التعرف عليها واصدار حكم عام بشأنها جميعا ..

لذلك فانه من الخطأ الفاحش وضع تعريف محدد للشخصية الانسانية لأنه كما أشرنا ، أن كل شخصية تختلف عن الشخصية الأخرى ، حتى أن علماء النفس أنفسهم قد اختلفوا فى التعاريف التى وضعوها للشخصية اختلافا بينا ، إذ يوجد حتى اليوم أكثر من مائة تعريف لها ، ليست الشخصية على الحقيقة واحــد منهـــا ..

والواقع أن النتائج التى توصل اليها علماء النفس كانت فى مجموعها غير محققة لأى نجاح لما تهدف اليه من علاج ، بل كانت سببا مباشرا ــ بما طبقته من مناهج علمية وموضوعية ــ فى ضياع الأخلاقيات ، وافساد القيم ، الذى بلغ فى العصر الحديث أسوأ حال ، رغم التقدم المادى الهائل فى مجال التكنولوجيا الحديثة ..

ولو اتبع علماء النفس الرسالات السماوية وهدى الله فى معرفة النفس البشرية وطرق علاجها لأثمرت الدراسات النفسية ، بل وتقدمت وفاقت التقدم المادى بكثير ، إلا أن غرور الانسان الحديث وتعجبه بنفسه ورضاه عن مصادفة بعض النجاحات فى المجالات المادية جعله يوغل فيما هو فوق حدوده وامكانياته الحسية والعقلية جميعا ، فأراد أن يعبر إلى ما هو غيب مقلانى بتطبيق مقاييس ومناهج جعلها

أسبابا يحاول بها أن يصل إلى أحكام تقريرية فى مجـالات النفس الانسانية ، جنحت بالانسان إلى الالحاد والكفر ، بل إلى الجنون ، حتى أن الشائع عن الأطباء النفسيين هو أنهم يحتاجون قبل المرضى إلى العلاج ..

المشكلة اذن انما هى مشكلة أخلاقية ، ذلك لأن علماء النفس يهدفون الى فهم النفس البشرية من خلال تجاربهم ومقاييسهم التى ابتدعوها ، وقوانينهم التى تواضعوا عليها دون أن يتعمقوا فى دراسة النفس دراسة شاملة جامعة ، لذلك فإن دراساتهم للجانب اللامعقول من النفس البشرية كانت فجة ومتهافتة ، رغم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حدد فى رسالاته ماهية النفس ووصفها وصفا كاملا محددا مبينا مثالبها وعيوبها مما لا يحتاج بعد ذلك إلى توضيح أو تفسير ...

لكن المشكلة تكمن فى ارادة وغرور الإنسان الذى لا يريد التنازل عن كبريائه ، لأنه يربط بين ارادته وبين حريته ، بمعنى أنه يريد أن يختار وأن يحدد ويفسر بل أنه يتعدى ذلك ويدعى أنه يخلق ! وهذا الادعاء يقود الى الضلال والتعجب والجدل ، فيجعل من العقل المحـدود إلها يعبد ... تقدم إليه القرابين ، وهى الأدوات المستحدثة التى هى فى تصور العلماء المحدثين ، الوسيلة الوحيدة المؤدية إلى العلم والعرفان .

ولا شك أن ذلك من الغفلة ، بل من النقص الإنسانى ، فالإنسان الصادق هو الذى يعرف حدود نفسه وقدراته ، كما أن الذى يعرف نفسه إنما يعرف ربه .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يعرف كل ذلك ، ويبين لنا فى آياته الكريمة أن النقص الإنسانى إنما ينشأ عن الغفلة ، وأن الغفلة هى فطرة فى النفس خلقها سبحانه وتعالى فيها ، وهى آفة تعبر عن الحركة ، والحركة ضد السكينة ، بل ضد اليقظة والفطنة ، فإذا تركت النفس لأهوائها وشهواتها ، وكنت إلى الغفلة وكثرة الحركة ، واتصفت بالعدوان والشهوة ، وسميت بالنفس الأمارة .

وإذا ما اقتضت المشيئة امتحان النفس لصنوف الابتلاءات لحكمة إلهية، وأمر لدنى ، وذلك لتتلخص من حظوظها ، وتتبرأ من إرادتها وتبتعد عن شهواتها وأهوائها وفى هذا الطريق تفتقر إلى موجدها ومولاها فتعرف الحق تعالى عن طريق الاحتياج إليه ، فهو الغنى على الحقيقة .

فالنفس فقيرة بذاتها ، قوية وعزيزة بالله ... تسكن أحياناً من حال الحركة والعجلة وتتصف بالطمأنينة والسكينة ، وهذا لا يأتى إلا بطريق الابتلاء فإذا نزلت السكينة على النفس فتكون أنجع دواء لها لأن السكينة مزيد من التوحيد والإيمان فتزيد النفس بعداً عن الهوى ، لأنها ضد الهوى وضد الغفلة وضد حركة النفس وشهواتها .

وللنفس صفات فطرية أربع(١) ، مفطورة عليها فى جبلتها ، هى أصول لها تتفرع عنها حظوظها وأهواءها ، تسيرها بمقتضى إرادتها إذا لم تجد مخالفة ومراقبة ومحاسبة ، أو إذا لم تجد منة وفضلا من الله لدفعها وسكونها .

وهذه الصفات الإنسانية تتحدد فى الضعف .. والبخل .. والشهوة .. والجهل ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى :

« وخلق الإنسان ضعيفاً » . (النساء : ٢٨)

« الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل » . (النساء : ٣٧)

« زين للناس حب الشهوات » . (آل عمران : ١٤)

« وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا » . (الأحزاب : ٧٢)

وعلاج النفس من آفاتها وأمراضها فى الطب النفسى الصوفى ، إنما هو طريقة

---

(١) أبي طالب المكي ـ قوت القلوب جـ١ ص٢٧٦ ، ١٢٧ و

فريدة ، وذلك بمحو الرذائل وجلب الفضائل ، أو بتخلية النفس من الصفات المرذولة ، وتحليتها بالصفات المحمودة .

وكما يشخص الطبيب البشرى المرض ليعالج مريضه ، فإن الطبيب النفسى الصوفى أيضاً يعرف أن كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة ، إنما يكتسب بالعادة والتعلم الرذائل ، فينحرف عن جادة الصواب ، ويصاب بالأمراض والأوهام .

ولذلك فإن النفس يمكن علاجها من نقصها ، بالتربية والتعويد ، وبالعلم والأخلاق .

وأفضل طريقة عند أئمة الإسلام لعلاج أمراض النفس هو علاجها بضدها فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، والتكبر بالتواضع ، وحب الذات بالإيثار ، والعدوان بالتسامح ، والشره بالعفة ، إلى غير ذلك من الأمراض النفسية .

ولا يفوتنا هنا أن نقول أن مريض البدن إنما يتخلص من مرضه بالموت أما مريض النفس فرضه يدوم بعد الموت ، أى دنيا وآخرة ، وهذا بخلاف العلاج عن طريق التنويم المغناطيسى الذى لم ينجح كأسلوب من أساليب العلاج ، فليس من السهل استخدامه فى جميع الحالات ، وإذا نجحت بعض المعالجات المرضية كالهستيريا مثلا عن طريق التنويم إلا أن المرض لا يلبث أن يظهر مرة أخرى فى صورة أعراض أخرى ، ولذلك استبدل فرويد طريقة التداعى الحر بالتنويم ، والتداعى هو إجلاء المريض كل ما يجول بخاطره من أفكار ، وبذلك يمكن التعاون مع الطبيب فى حل مشكلاته إلا أن فرويد قد ربط ذلك بنظريته فى الجنس ربطاً منهجياً ، وبذلك جعل أمراض العصاب والهستيريا التى تصور فرويد الجنس أساس لها .

ونحن نتساءل : هل الجنس حقاً هو الغاية من وجودنا ؟.. وإننا لا يمكن

أن ندرس الشخصية دراسة عميقة دون معرفة التفاصيل الدقيقة للغاية من حياة الفرد ، وهذا الموضوع لا يناله اهتمام كثير من علماء النفس ، وبذلك لا بد في العلاج لأمراض النفس من وجود ميزان يتبعه الطبيب في علاج مريده ، ولا يصلح كل دواء لكل مريد ، فمنهم من تناسبه الشدة ، ومنهم من يناسبه التوسط ، وهو يعالج مريديه كلا حسب حاله ، فلا يفرض عليه رياضة نفسية وتكاليف معينة إلا بعــد أن يعرف المريد معرفة تامة ، ما يصلح له وما لا يصلح ..

فإذا كان المريد مبتدئاً ، فالطبيب يعلمه الطهارة من صلاة وعبادات ظاهرة ، وإذا كان منشغلا بشهوات الدنيا ، أو بالمحرمات من الأموال والمعاصى ، فيساعده على ترك ذلك بالتزين بالعبادات والتكاليف الشرعية فإذا ما تطهر ظاهره من المعاصى ، وتخلصت جوارحه من الانحرافات ، بدأ الطبيب النفسى فى معالجة نفس مريده من الداخل ، فيتعرف على أمراض قلبه ، فإذا رأى معه مثلا أموالا زائدة أخذها منه وصرفها على الفقراء ، وفرغ باله من التفكير فيها حتى لا يلتفت إلى شيء من المعاصى ، وإذا رآه متكبراً متعجباً ، أمره بالأعمال البسيطة التى تكسر من حدة النفس لينكسر فيه حب العزة والرياسة ، ويخضع للتواضع ، لأن الكبر هو من الأمراض المهلكة ، وكذلك الرعونة..

وكذلك على الطبيب النفسى أن يعمل على كسر حب التظاهر لدى مريضه إذا كان ممن ينزعون إلى عبادة الذات ، فيأمره بأن يقوم بتنظيف الأوانى وكنس المواضع القذرة حتى تنطفىء فى نفسه الرعونة وحب المظاهر ...

والمشكلة التى يواجهها علم النفس الحديث إنما نجمت عن ميله فى إغفاله دراسة الفرد على أساس أنه لا يهتم إلا بدراســـة المبادىء العامة التى يمكن

استخلاصها من دراسة حالات جزئية عديدة ، بل وضع معايير عامة يمكن أن أن تطبق عليه الحالات الجزئية ومن ثم فهو يسمو إلى قانون عام وليس إلى دراسة الحياة الإنسانية الفردية رغم أهمية دراسة الشخصية المفردة .

ولذلك يلجأ عالم النفس الحديث إلى انتزاع جانب واحـــد من حياة الفرد ويعكف على دراسته بقصد تعميمه ، فهو يقتطع جانب من الشخصية ويخصه بالبحث ، ثم يعود لجانب آخر ويعكف عن دراسته . . وهكذا ولا يحاول أن يربط بين هذه الجوانب باعتبارها متشابكة أو متفاعلة فى الفرد الواحد ، بقدر ما ينظر إليها على أنها خصائص متشابهة فى أفراد مختلفين ، وينتج عن ذلك أن لا يوجد روابط بين هذه الأبحاث أو علاقة استمرار فى الزمان بل وليس فيها حياة أو حركة تمثل الشخصية الإنسانية ، وإنما هى تمثل الأبحاث التى تجرى على المادة الجامدة رغم ما فى الفرد من تغير وحياة .

وقد يتبع الشيخ المربى طرقاً فريدة ، منها طريقة التحويل والتغيير أى يعمل على أن يغير مريده المريض عاداته المذمومة بعادات محمودة ، فإذا كان مدمناً على شرب الخمر ، فعليه أن يحوله إلى تدخين السجاير ، ثم ينقله من حال سوء إلى حاله أخف سوءاً ، وإذا كان ممن يعانون الشره فى تناول الطعام فعليه أن يأمره بالصوم أو التقليل من تناول الطعام ، أو بأمره بتهيئة الأطعمة اللذة ليقدمها إلى غيره من المريدين على أن يحرم نفسه من تناولها حتى تقوى نفسه وتتعود على الصبر وتنكسر بذلك فى نفسه حدة الشره ، ولا أنفع عنـــد أئمة الصوفية لعلاج النفس من الجوع ...

وهكذا يتبع الشيخ المربى طرقاً فريدة متنوعة فى علاج مريديه من كافة أمراض النفس الصوفية ...

والأساس فى تربية النفس هو الوفاء بالعزم ، فإذا هم الإنسان على تغيير طبعه وذلك بترك الشهوة ، فقد تيسرت الأسباب فينبغى أن يصبر ويستمر ، فإذا اعتاد ذلك أصبح طبعاً فيه واختياراً ، أما إذا ترك العزم ألفت نفسه ذلك ففسدت ورجعت إلى حالها الأول ...

لذلك يجب إذا نقض المريد عزمه أن يعاقب نفسه، وبغير العقاب والمحاسبة تفسد رياضة النفس وينحرف المريد عن الصواب ويقع فى الهواجس والأوهام والأمراض ...

ولقد اتضح من البحث أن هناك علاقة بين التوحيد الإلهى وبين علاج النفس الإنسانية ، فالتوحيد هو معرفة تشرق بها النفوس فتتجلى عليها الحقائق والأسرار وتلقى إليها المعارف ، فتهدى إلى الطريق المستقيم والقيم العليا فتتعرف النفس على مكاسبها ومثالبها ، وتطهر بالتوحيد من عيوبها وهواها وآثامها داخل إطار التربية والتخلق وترويض النفس ، ذلك أن التوحيد استرسال مع الله تعالى فى كل أمر من الأمور فتنعقد إرادة العبد مع إرادة الله تعالى ، فيكون الحق والعلم والمعرفة جميعاً .

وفى الطب النفسى الإسلامى ، تظهر النفس فى صورتين ، نفس أمارة ، ونفس مطمئنة ، ولكن مع ذلك توجد درجات أخرى ومقامات للنفس مختلفة .

وتتميز طبيعة النفس الأمارة بالتغير والتقلب والميل إلى الحظوظ والركون إلى الأهواء ، أما النفس المطمئنة فتمتاز بالسكينة والرضا والتوكل والإيثار والصبر على الابتلاء وإسقاط التدبير مع الله ، فتصل الى أعلى الدرجات والكمالات الأخلاقية ، فلا خوف ولا قلق ولا ضياع ولا ضجر ، انما أمل فى الله .. ولله وبالله .. ومن الله .. أما عامة الناس ، انما تسيرهم مقتضيات العادات ومألوف

الطبائع فينشأون على أخلاقيات مجتمعاتهم ومحاكاة سلوك ذويهم .. وذلك بحسن ظنهم بهم وثقتهم فيهم ، فيشعرون بما يشعر به آباؤهم من مشاعر شتى وينفعلون بما ينفعل أقرانهم به من انفعالات مختلفة ..

والإنسان يأخذ العادات المتبعة على أنها الحق والصدق ، ويتبع ما يكتسبه منهم من علم وخبرة حتى ترسخ مكتسباته وعاداته فى نفسه ، ومن ثم يتطبع بها وتصبح آخر الأمر طبعاً فيه وخلقاً ، لا يجد لها بديلا ، لأن ذلك ما تعلمه وتلقنه وخبره أو ما أحبه وارتضاه وألفه .

ويأتى دور الشيخ المربى مع مريده المريض وهو دور فريد حقساً فى مجال العلاج النفسى ، وذلك — كما شرحنا آنفاً بمساعدته على تخلية نفسه من الرذائل وتحليتها بالفضائل ، وهذا هو العلاج الحق الذى يخلص المريض نهائياً وبلا رجعة من الحصر والاضطراب والوساوس وحب الذات وجنون العظمة ، بل من الفصام والأمراض الهستيرية .

كما أن أهمية العلاج النفسى الصوفى ، إنما تكمن فى اتباع آيات الله البينات والقدوة الحسنة فى شخصية الرسول — ﷺ — وذلك أن الله تعالى يقول فى كتابه العزيز :

« وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » .

(النازعات : ٤١)

« إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

(الإسراء : ٣٦)

« ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » .

(الإسراء : ٣٧)

« أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار » . (التوبة : ١٠٩)

فالله سبحانه قد عرف الإنسان بالطريق إلى الصحة النفسية والتي تصلح له في الدنيا والآخرة ، فتخلصه من الأمراض والآفات ، وتحليه بالمكارم والأخلاق، وهذه المعرفة أساسية لأنها موقف علم بين متناقضين « فلا يزني زان وهو مؤمن» إذ أن الإيمان معرفة أي موقف علم حقيق ناتج من حصيلة سابقة العقل الذي يفصل بين الحق والباطل ، ثم أنه اتخذ الحق سبيله ، وترك الباطل . . .

الفصل الأول

الرياضة النفسية

النفس إذا تركت دونما تهذيب وتربية وتأديب ، انحرفت عن الاستقامة وسارت في طريق الغواية ، واندفعت إلى النقائص ، وابتعدت عن السواء ، واغترت بشيطانها ، فتزاحمت عليها الخواطر المذمومة ، واستبد بها الكبرياء والتعاظم ، وغلبها الرياء والنفاق ، فتدور في فلك الأهواء ، وتتقاذفها أعاصير الوهم والقلق والاضطراب ، وأحاطها الخوف والرعب والفزع إلى الحقد والحسد والعدوان والإسفاف .

وبذلك تهاجم سفينة النفس في بحر متلاطمة أمواجه ، لا شاطىء له ، فلا تنتشل من ضياعها إلا برحمة الله .

ويرى بعض الأئمة(١) أن الفساد يدخل إلى النفس من جهات ثلاثة :

١ - سقم الطبيعة :

ومعناه أن تكون طبيعة الإنسان منحرفة ، غير معتدلة .

٢ - ملازمة العادة :

والمقصود هنا العادات المرذولة التي لا تتفق والقيم العليا .

٣ - فساد الصحبة :

وهو ترجمة صحيحة لغواية الشيطان والرغبة في فعل المنكرات .

---

(١) الإمام الجيلاني - الغنية ص١٨٣ - ١٨٥

ويكمن سقم الطبيعة فى أكل الحرام ، كما تظهر ملازمة العـــادة فى النظر والاستمتاع بالفواحش وفى الغيبة والنميمة ، وأما فساد الصحبة ، إنما يكون فى اتباع شهوات النفس عند احتياجها ومسايرة تمنى النفس وأحلامها فى الملذات المحرمة . .

ومن آفات النفس حبها إلى المدح والثناء العطر والذكر الطيب ، وثناء الخلق ، وربما تتحمل أثقال العبادات ومشاق الطاعات لهذا الهدف بعد أن يستولى عليها الرياء والنفاق .

والدليل على ذلك أن النفس تركن إلى الكسل وتستهدف الفشل عند ماينقطع عنها ثناء الناس ومدحهم ، أو عندما تذم وتنتقد أفعالها وأعمالها .

ولايستبين الإنسان آفات نفسه ودعاءاتها وكذبها إلا بامتحانها ، فيما تدعيه من حق وصدق وعدل ، فإذا امتحنت النفس وقت الشدة والخوف ، تجدها ساكنة . . آمنة . . بل أنها تتحدث حديث الأبرار ما لم تمتحن بالتقوى ، وإذا طالبت النفس بشروط التقوى وجدتها مشركة ومرائية ، مغرورة ، كما أنها تدعى العرفان فإذا طالبت منها ذلك وجدتها كاذبة كذوبة ، كما أنها تدعى الإخلاص وتزعم أنها من المتواضعين فإذا امتحنت عند الغضب وجدتها متجبرة ومتكبرة ظلومة .

ومن الدعاوى التى تدعيها النفس لذاتها . . السخاء . . والكرم . . والبذل والتقى . . والفتوة . . وغير ذلك من الأخلاق الحميدة فإذا ما طالبتها بترجمة ذلك إلى أفعال وامتحنتها ، لم تجدها إلا كسراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجد عنده شيئاً .

« ومن صفات النفس(١) . . حب التزين للناس الذين لا يملكون لها ضرا ولا نفعا » فهي في ظلمة أبدا إلا إذا استضاءت بمصباح الاخلاص ، كما أن من صفات النفس طلب اللذات السريعة دون النظر إلى العواقب .

ولعلاج هذا النقص يبدأ صاحبها بفطمها عن العادات المألوفة والشهوات المرذولة ، واللذات المحرمة وحملها على مخالفة ما تهوى في كل وقت وحين ، فإذا انهمكت النفس في الشهوات ، وجب إحكام لجامها بالتقوى والخوف من الله ، وإذا توقفت عن القيام بالطاعات ، ساق الانسان نفسه بسياج الخوف ، فخالف هواها ومنع عنها حظوظها(٢).

والرياضة النفسية بمجاهدة النفس ، ولا تتم المجاهدة إلا بالمراقبة ، والمراقبة هي في أن يعلم الانسان أن ربه يطلع على سره وجهره ، وأنه لن يصل إلى تمام المراقبة إلا بعد المحاسبة(٣) . والمحاسبة عملية ضبط لجنوح النفس والتزام طريق الحق ، وحفظها عن الآفات والنقائص . .

والرياضة النفسية لا تتم إلا بمعرفة خصال أربع :

١ — معرفة الله تعالى :

« والمعرفة هنا لا تقتصر على القول والإقناع والاعتقاد فحسب بل الإيمان قولا وفعلا أن لا إله إلا الله ، وهذا هو ذروة التوحيد » .

---

(١) راجع كتابه الصريحة والمقيقة للمؤلف (الرياء — حب المدح) .

(٢) سيدى عبد القادر الجيلاني — الغنية ص ١٨٣ — ١٨٥ .

(٣) راجع محاسبة النفس (بالكتاب) .

٢ – معرفة عدو الله إبليس :

وتصدق معرفة الإنسان لعدو الله وعدوه بمحاربته في الظاهر والباطن ، ومخالفة كل خاطر شيطاني يهجم على النفس والتعوذ الدائم من وسوسة الشيطان وتهاويله وأباطيله ومخاوفه وأفزاعه .

« إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً » (فاطر : ٦)

٣ – معرفة أن النفس أمارة بالسوء :

والنفس كما سبق الاشارة لها أماني تود تحقيقها وشهوات لا تشبع منها وآمال في الدنيا لا تنتهي .

« وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء » . (يوسف ٥٣)

٤ – معرفة العمل لله تعالى :

والعمل هنا مجاهدة أو جهاد أكبر في سبيل الله .

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم » . (التوبة : ١٠٥)

وإذا عاش الانسان عمراً مديداً[١] دون أن يعرف كل ذلك ، فلن تنفعه عبادته وإن كان مجتهداً فيها ، ذلك لأنه جاهل بربه ونفسه وعدوه وعمله جميعاً ، إذ يظن أنه يعبد الله وهو يعبد الشيطان الذي يحسن له أفعاله ويزكيها له دون أن يدري أو يعرف !! .

ولذلك يجب أن تكون الرياضة النفسية نابعة عن المعرفة .. ولذلك يحدد بعض الأئمة الطريق العملي للرياضـــة النفسية في عشرة خصال يجب أن يتصف بها الإنسان :

(١) سيدي عبد القادر الجيلاني – الغنية ص ١٨٤ – ١٨٥

١ ـ أن لا يحلف الانسان صادقاً ، ولا كاذباً حتى لا يعود لسانه على ذلك .
« ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا » . (البقرة : ٢٢٤)

٢ ـ أن يتجنب الكذب هزلا أو جداً ، حتى لا يتعود على عادات سيئة ..
يقول الرسول ـ ﷺ ـ « يظل الرجل يتحرى الكذب حتى يكتب
عند الله كذاباً » .

٣ ـ أن يتجنب أن يخلف وعده إلا لسبب أو عذر فوق طاقته ، ذلك لأنه
لا إيمان لمن لا أمانة له .

٤ ـ ألا يؤذى أو يلعن أحـــداً من الخلق ، لأن الذى يؤذى الآخرين
يستمرىء ذلك فيتولد فى نفسه الحقد وحب الاعتـــداء والسخرية
والاستهزاء وهذا باب الجنوح عن الحق والوقوع فى الضلال .

« لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم » .
(الحجرات : ١١)

٥ ـ ألا يدعو على أحد من الناس وإن ظلمه ، ليبقى قلبه متطهراً ، تصديقاً
لقوله تعالى :

« فادفع بالتى هى أحسن » . (فصلت : ٣٥)

٦ ـ أن لا يحكم على أحد بالشرك أو الكفر أو النفاق ، وذلك خوفاً من
الوقوع فى الاثم .. والتعجب أو النظر إلى نفســـه بعين الكمال ،
إذ ربما يكون الآخر عند الله أفضل منه .

٧ ـ أن يتجنب النظر والهمة إلى شىء من المعاصى .. ظاهراً أو باطناً
فإذا داهمته الغواية ، فعليه التوجه إلى الله وذكره تعالى ليساعده عنده

الشدة ولن يخذله تعالى ما دام صادقاً فى طلبه ، وعليه أن يمسك جوارحه عن الاقدام فى المعصية ، وهذا أفضل الأعمال ثواباً .

٨ ـ أن يتجنب ما استطاع أن يحمل الناس حاجته صغيرة كانت أو كبيرة ، لأن الارتكان على الغير يعود النفس على الخمول والاهمال والتكاسل عن السعى ، وهذا باب التقاعس عن حقوق الله على الانسان أن يسد بابه .

٩ ـ أن ينقطع نهائياً عن الطمع فى نفسه وفى الخلق ، وهذا سبيل الصدق مع الله ، إذ الطمع يولد كثرة الطلب للحظوظ ، والنفس لا تشبع من الحظوظ مهما أعطيت ، فإذا اعتادت الطمع شرهت الحرام ووجدت لذتها فيه .

١٠ ـ أن يتواضع ، والتواضع هو أصل الطاعات كلها ، وهو كمال التقوى فلا ينظر لأحد من الناس إلا ويراه أفضل منه عند الله ، إذا كان صغيراً يقول : هذا لم يعص الله وأنا قد عصيت ، فلا شك أنه خيراً منى .. وإذا كان كبيراً يقول : هذا صلى وصام وعبد الله قبلى فهو أفضل منى ، وإن كان عالماً يقول : هذا أعطى ما لم أبلغ ، ونال ما لم أنل ، وعلم ما جهلت .. فهو أفضل منى ، وإن كان جاهلا يقول : هذا عصى الله بجهله ، وأنا أعصى الله بعلمى ، ولا أعرف بما يختم الله له ، وما يختم لى .. وإن كان كافراً قال : لا أدرى عسى أن يسلم فيختم الله له بخير العمل ، وعسى أن أكفر فيختم لى بشر العمل(١) .

ولقد أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ النبى ـ ﷺ ـ بمخالفة النفس ، لأن العبادة كلها ثقيلة على النفس التى تريد الراحة والتكاسل ولذلك لا بد من مخالفتها لقوله تعالى :

---

(١) الغنية ص ١٨٩ .

« واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » (١) (الحجر : ٩٩)

وليس المقصود هنا شخص محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على التحديد .. حيث أنه معصوم عن الأهواء ، ولكن المقصود هنا محمد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى عليه البلاغ للأمة بالرسالة ، وهى مواصلة العبادة حتى الانتقال إلى الدار الآخرة ...

فالخطاب هنا موجه للكافة ، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أعطى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ القوة على كبح جماح النفس ، كما أسكن شيطانه كى لا يضراه ، ويحوجاه إلى الاشتغال بالمجاهدة والرياضة وذلك بخلاف أمته التى عليها مجاهدة النفس ورياضتها حتى الموت .. (٢)

والنفس إدعاء وأمانى وشهوات ولذات ، فاذا خالفتها ، كان الانسان خصما على نفسه ، كما أوصى تعالى داود عليه السلام :

« يا داود أن تكون خصما على نفسك تتحقق حينئذ عبوديتك لله عز وجل وتأتيك الأقسام هنيئا مريئا ، مطيبا وأنت عزيز ومكرم ... وخدمتك الأشياء وعظمتك وفخمتك لأنها بأجمعها تابعة لربها موافقة له ، إذ هو خالقها ومنشئها ... (٣)

ويقول الامام عبد القادر الجيلانى (٤) ، كلما جاهدت نفسك وغلبتها وقتلتها

---

(١) اليقين : أى الموت

(٢) الامام عبد القادر الجيلانى — فتوح الغيب ص : ١٤٣ — ١٤٤ هامش بهجة الأسرار

(٣) المرجع السابق

(٤) الامام عبد القادر الجيلانى ـ فتوح الغيب ص : ١٣٤

بسيف المخالفة ، أحياها الله ، فإذا بها تنازعت وتطلب منك الشهوات واللذات ، الجناح والمباح ، كي تعود إلى المجاهدة والمسابقة ليكتب الله لك ثوابا دائما وهو ما يقصده الرسول — ﷺ — بقوله :

« رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر »

لأن النفس تداوم أبدا وتستمر إلى ما شاء الله في طلب الشهوات واللذات التي لا تشبع منها ...

لذلك كانت الرياضة النفسية قوما دائما ، وطريقا واضحا في معالجة أمراض القلب ، وبابا إلى الصحة النفسية للخلاص من النقائص والآفات ...

كيف تتم الرياضة النفسية :

يرى الأئمة أن الرياضة كسلوك واجب التطبيق ، يجب أن يسارع اليه الإنسان مجاهدا ، إنما يتحدد في قسمين :

١ — رياضة الأدب :

والأدب المقصود ليس الأدب الظاهري ، ولكن أدب الظاهر والباطن معاً ، وتتم رياضة الأدب بمخالفة أهواء النفس وحظوظها ، وهذا النوع من الرياضة يسعى إلى سلب الأوصاف المذمومة كالكبر والغرور والريـــاء والشرك الخفي والتعجب ...

٢ — رياضة الطلب :

أما رياضة الطلب فتحدد بالاخلاص ، والصدق في مجاهدة النفس ، وهذه طريقة إيجابية في علاجها ، وذلك بتحلية النفس بالأوصـــاف المحمودة كالمحبة والشفقة والرحمة والتسامح والايثار .. ويمثل بعض الأئمة لهذا النوع من الرياضة

بعلاج الجسم ، فكما أن الجسم يعالج لاكتســاب الصحة ومحو المرض ، فكذلك النفس فى حاجة إلى محو الرذائل ، وجلب الفضائل وكسب الأخلاق المحمودة ...

ويبين لنا الامام الغزالى (١) الأسلوب الواجب اتباعه فى رياضة النفس فيقــول :

« أن كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، ذلك لأنه عن طريق الاعتقاد والتربية والتعلم تكتسب الفضائل والرذائل ، فكما أن الجسم يحتاج فى التربية إلى الغذاء لينمو ويكتمل ويقوى ، فكذلك النفس تخلق ناقصة ، ولكنها قابلة للتكامل عن طريق التربيــة الأخلاقيــة والعـــلم ...

وإذا كان الجسم صحيحا فانه يتوجب المحافظة على هذه الصحة بتطبيق القوانين الصحية اللازمة كالتطعيم ضد الأمراض الوبائية مثلا ، أما إذا كان الجسم مريضا ، فيجب أن يعالجه الطبيب ليكتسب الصحة ، وذلك بتقرير الدواء اللازم والعلاج الضرورى له ...

والأمر كذلك بالنسبة للنفس ، فالنفس الذكية الطاهرة يلزم وقايتها من من الأمراض للمحافظة على حالها من الصحة ، وذلك بتدعيمها بمزيد من القوة لتزداد صفاء ، كما أنها إذا كانت مريضة ينبغى علاجها لجلب الصحة لها ...

وإذا كان الداء المسبب لاختلال حال الجسم ووقوعه فريسة المرض لا يعالج

---

(١) الامام أبو حامد الغزالى — أحياء علوم الدين ص : ١٤٤٧ — ١٤٤٨ ج ٨ مطابع الشعب

إلا بضده ، كأن يكون بالجسم حرارة ، فيكون علاجه بالبرودة ، أو يكون به برودة فيتم علاجه بالحرارة ، فكذلك الأمر بالنسبة لأمراض النفس إذ أن علاجها الناجع إنما يكون بالضد ، فيعالج الجهل بالتعليم ، والبخل بالسخاء ، والكبر بالتواضع ، والشره بالتكلف عن الاشتهاء ، وإذا كان مريض الجسم يتحمل مرارة الدواء، ومبضع الجراح ، وترك المشتهيات والصبر عليها ليبرأ من أوجاعه ، فكذلك الأمر بالنسبة لأمراض القلب ، إذ يجب احتمال مرارة المكابدات والرياضات والصبر عليها ...

والطبيب لا يستطيع أن يعالج مريضه إلا إذا تم له تشخيص مرضه ثم يوصف له الدواء ، ومقدار هذا الدواء ، حسب حال الجسم من القوة والضعف، فاذا كان الدواء لرجل كبير طاعن في السن كان له مقدار ، أما إذا كان صبيا صغير السن كان له مقدارا آخر ...

كما أن على الطبيب أن يعرف صناعة المريض وثقافته ، وسائر ظروفه الاجتماعية ، فاذا عرف كل ذلك أمكنه وصف الدواء الصالح له ...

كذلك الأمر بالنسبة لطبيب النفس ، فان عليه ألا يهجم على المريض بالرياضات والتكاليف ، إنما عليه أن يتعرف أولا على أمراضه الباطنية وأخلاقه المستترة ، قبل أن يشرع في علاجه ، إذ أن الطبيب الذى يصف دواء واحد لكل مرضاه طبيب عاجز لأنه يعرضهم للموت بجهله ، وكذلك طبيب النفس ، فانه إذا عالج الطالبين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم ، إذ أن المطلوب منه أن ينظر أولا إلى :

١ ـــ ما هو نوع المرض ..

٢ ـــ حال المرض من القوة والضعف ..

٣ — ظروف الطالب الأسرية والاجتماعية والثقافية ..

٤ — السن - مزاجه - مدى قدراته البدنية على تحمل الرياضة .. الخ ، فاذا تم الطبيب معرفة كل ذلك وضع أسس العلاج وتتلخص فى :

١ — إذا كان الطالب جاهلا بحدود الشرع ، فإنه يبدأ بتعليمه أسس الطهارة والصلاة والعبادات الظاهرة والفرائض والتكاليف الشرعية ..

٢ — إذا كان الطالب منشغلا بجمع المال الحرام أو سائرا فى طريق الشهوات أو فى معصية ، فيأمره بتركها ، كما أن الذى يساعد على التخلص من الآفات والأمراض التزين بالعبادات الظاهرة (كالصلاة والصوم والزكاة) فانها تطهر الجوارح وتجعلها قابلة النظر إلى الباطن ، وبهذا الطريق تنكشف الأمراض ، ويتعرف الطالب على أمراض قلبه ، ويفطن إلى أخلاقه الظاهرة والباطنة ..

والطبيب هنا يحاول أن يفرغ قلب الطالب مما يشغله من الشهوات حتى لا يلتفت مرة أخرى اليها ، فاذا زالت علامات الرعونة والكبر وعزة النفس عن الطالب فان على الطبيب أن يساعده على التخلص نهائيا من هذه الآفات بغسل المراحيض وخدمة الفقراء وعيادة المرضى والمساكين ، والقيام بالأعمال البسيطة والالتجاء إلى مذلة الطلب من أقل الناس ، وذلك العمل على اذلال النفس المتكبرة حتى تنكسر حدة الاستعلاء والعزة لأن الكبر من الأمراض المهلكة ...

وإذا رأى الطبيب الطالب يهتم بالملابس المبتذلة والأناقة الزائدة ، أمره بالجلوس مع العامة ، والاشتراك فى غسل وكنس المراحيض ، حتى تتغير رعونته ويتجنب الاهتمام بنفسه وارضائه لها ، لأن الذى يهتم فقط بالمظاهر والزينات ، كالذى يعبد نفسه ، وهو كالذى يعبد صنما لأنه محجوب عن الله ...

الرياضة النفسية إذن طريقة عملية واقعية لعلاج أمراض النفس ، وهى تستخدم أسلوبا مرحليا فى المعالجة ، إذ لا يستطيع الطبيب علاج الطالب من من أمراضه دفعة واحدة ، ذلك لأنه يتدرج معه العلاج بأن ينقل الطالب من خلق مذموم آخر أخف منه أثراً وأقل ضررا ، ومثل ذلك كتنظيف الأوانى بإضـــافة مادة كاوية ثم إعادة تنظيفها بالماء فإذا كان الماء لا يزيل الوسخ دفعة واحدة من الآنية ، كمثل من يعاون الطفل فى الانتظام فى المدرسة عن طريق اللعب بالكرة ، ثم يتدرج معه بترغيبه فى اللعب ثم شراء الملابس والأدوات المدرسية ، حتى يرغبه فى نهاية الأمر فى الانتظام فى الدروس المدرسية ..

وبالمثل فانه يمكن علاج أمراض النفس بطريقة فعالة ، وذلك بالتعود على ممارسة الفضائل ، وتجنب الرذائل ، ومثال ذلك معالجة الشره والبخل والأنانية فان الطبيب يطلب إلى الطالب الصوم يوما فى الأسبوع ، ثم يطلب إليه بعد الصوم الافطار بقليل من الطعام ، ثم يطلب اليه تقديم الأطعمة إلى غيره عند الافطار ، على أن لا يأكل منها ، وبذلك يتعود على الصبر وتنكسر حدة الشره والأنانية فى نفسه ..

وكذلك طالب الجماع ، فانه يؤمر بالصوم ، ثم يؤمر أن يفطر ليلة على الخبز دون الماء ، أو بالماء دون الخبز ، ويمنع عنه اللحم حتى تذل نفسه وتنكسر حـدة شهوته ، إذ أن من أفضل أنواع الرياضات النفسية الجوع ..(١)

وكذلك فإن علاج سرعة الاهتياج والغضب ، إنما يكون بالضد ، والضد للغضب الحلم ، ويتم ذلك بتسليط سليط اللسان على سريع الغضب أو يحمله طبيب

---

(١) راجع ألفاظ الصوفية للمؤلف (الجوع)

بملازمة الثقلاء وخدمة أصحاب الأخلاق المرذولة حتى يعود نفسه على التحمل والصبر على الأذى ...

ومن الأمثلة لطريقة الرياضة النفسية أن أحدهم أراد أن يعود نفسه على الحلم وكظم الغيظ ، فاستأجر من يشتمه على ملأ من الناس حتى صار الحلم عادة له يضرب به المثل ...

كما يروى عن أحدهم أنه كان يعود نفسه على الشجاعة لاستشعاره فى نفسه ضعف القلب والجبن ، فكان يسافر بحرا فى الشتاء ، وخاصة عنـــد اضطراب الأمواج ... ليقوى قلبه ويكتسب الشجاعة ... كما أن أحدهم كان يجد نفسه خولا فى العبادة ، وكسلا عن قيام الليل للصلاة ، فألزم نفسه بأن يقف على رأسه طوال الليل عقابا لها ...

وهناك أمثلة (١) عديدة للرياضات النفسية وتتلخص فى أن الطريق إلى الصحة إنما هو بسلوك الطريق المضاد لأهواء النفس ، فاذا مالت إلى شىء وجب سلوك ما هو ضده ، والذى يساعد على ذلك هو تقريع النفس ولومها على كثرة الطلب والميل إلى الحظوظ والسعى وراء الشهوات ، وعلى طالب الرياضة النفسية أن يحذر مبدأ التأجيل وعدم الوفاء بما اعتزم عليه ، ولا بد أن يصبر ويعود نفسه على ذلك وإلا فسدت النفس عند ترك العزيمة ...

وإذا عزم الشخص على القيام برياضة نفسه ثم شعر بنقص عزمه ، فعليه أن يعاقب نفسه ، وذلك بمضاعفة ما سبق أن اعتزم أن يقـــوم به ، إذ أنه من لا يعاقب نفسه ، سهل عليه تناول الشهوات ، وبذلك تفسد الرياضة الكلية ...

---

(١) الامام أبو حامد الغزالى — أحياء علوم الدين ص ١٤٤٩ ج ٨ مطابع الشعب

وإذا عدنا إلى الطرق المتبعة فى علم النفس الحديث ، وعلى وجه الخصوص ما يسمى (Psychotherapy مداواة النفس (١) ـ أننا نجد أن طريقة العلاج النفسى تتشابه إلى حد كبير فى الوسائل المتبعة فى علم النفس الاسلامى إلا أن الغايات ليست واحدة ، وتتم هذه الطريقة على أساس تغيير السلوك للمريض ، فالمعالج والمريض يعى كل منهما وعيا واضحا ، أن هدف العملية هو أحداث تغيير فى أفكار المريض أو أفعاله ، أو فى كليهما معا ، وذلك لتزداد درجة الاستحسان والقبول .. ومن ثم نجاح الطرق العلاجية ...

يقول الأستاذ على الخواص : (٢)

إنما سومح المريد بمجاهدة نفسه لكونه يرى نفسه لنفسه ، ثم إذا بلغ الكمال شهد نفسه ملكا لربه ، وقد وصاه الله تعالى عليها بقوله تعالى :

« ولا تلقو بأيديكم إلى التهلكة » (البقرة : ١٩٥)

كما نهاه تعالى عن ظلم نفسه ، وعن تحميلها فوق الطاقة ...

ويبين لنا الامام الشعرانى (٣) كيف تتم الرياضات النفسية فيقول: «والمعروف عن أخلاق المريدين فى طريق الصوفية مجاهدة نفوسهم ، وذلك بالجوع والسهر المفرطين ، وإتعاب نفوسهم بتحمل الأعمال الشاقة فى بداية أمرهم بطريقة شرعية حتى إذا بلغوا النهاية المعروفة لدى الصوفية كان الأدب مع الله » ...

ويشرح الامام الشعرانى هذا الأدب فيقول :

---

1 — Robert A. Harper — Psychoynalysis and Psychotherapy Page 11.

روبرت هاربر ـ التحليل النفسى والعلاج النفسى ص : ١١ ترجمة د . سعد جلال

(٢) الشيخ عبد الوهاب الشعرانى ـ الاخلاق المتبولية ـ تحقيق د. منيع عبد الحليم ج ١

(٣) المرجع السابق

« فن الأدب مع الله » . الشفقة على النفس . . والرحمة بها . . واطعامها اللذيذ . . وتنويمها على الفراش . . وعدم تعاطى الأعمال الشاقة اكراما لها من حيث أنها وديعة الله تعالى وأمته وعبده » ، وكأن صاحبها جرد نفسه عنه وجعلها كالجار له ، وكأنه هو غيرها . كما يقول الانسان قالت لى نفسى : كذا فقلت لها : لا . . وهى القائلة أفعل كذا . . فأقول لا أفعل . . وإن قالت لا تفعل فانى أفعل (١) ...

---

(١) وردت : لا وهى القائلة أفعل أولا تفعل لا غيرها

الفصل الثاني

التربية النفسيـــة

لا شك أن التربية تشتمل على التعليم وتكوين الملكات الخلقية والعقلية ، والتربية النفسية . . رغم أهميتها البالغة في تكوين أخلاق الأفراد والشعوب ، إلا أنه للأسف الشديد . . ليس لها نصيب وافر في التعليم في المراحل المختلفة في عصرنا الحديث . .

وأما التربية العقلية . . فينصب الاهتمام فيها على الذاكرة . . بمعنى أن تربية العقل تنحصر في الاهتمام بالحفظ .. فالامتحانات التي تعقد لطلبة المدارس الثانوية بل وفي الجامعة ، هي امتحانات لاختبارات ما شحن بذاكرة الطالب ، وليست دليلا على ذكائه .

ونحن نرى أن كثيرا من الشباب الذين يتخرجون في المدارس الثـــانوية والجامعة يسخطون كثيراً على كم المعلومات التي يتلقونها . . بل ويشعرون أنها لم تفيدهم في قليل أو كثير(١) .

والواقع .. أن التربية اللفظية التي تلقن بطريق المحاكاة والاستظهار والتعالي لا تصلح في الحياة الواقعية ، إذ أن العـــلم الذي يمس كل شيء دون أن يتعمق في شيء ، هو علم من الواجب تجنبه ، ذلك لأنه في تصورنا ليس من المهم شحن ذاكرة الطالب بالألفاظ والجمل العلمية والأدبية فحسب ، بل أيضاً ضرورة ارتباط ذلك بالتطبيق العملي والممارسة الفعلية في الحياة والمجتمع...

كما أنه من الصعب أن نطالب المربين الذين خضعوا أثناء دراستهم في الصغر،

---

(١) جوستاف لوبون ـ روح التربية ص ١٠٢ تعليق د. طه حسين .

إلى فحص نظم التربية التى يعلمونها لتلاميذهم ، أن يغيروا تلك المناهج بمناهج جديدة ، لأن معنى ذلك .. أننا نطلب منهم أن يغيروا مزاجهم العقلى .

فمثلا هم قد تعلموا طرقاً تربوية تقوم أساساً على الوصول من المركب إلى البسيط ، مع أن المفروض كوسيلة سليمة انتهاج طريقة عملية للوصول من البسيط إلى المركب .. أو بمعنى آخر البدء من الأيسر والأسهل إلى الأشد والأعسر ..

والرؤية الطيبة التى خبرها الإمام الغزالى(١) ، ووجدها نافعة لتربية نفسه وتقييم معارفه وتثبيت طريقه فى الحياة والمجتمع . . تبدأ بالمحسوسات وهى الأيسر والإسهل . . لما لها من ارتباط بالجزئيات والمشخصات .

ثم أنه شك فى هذه المحسوسات ، وبين أنها لا تؤدى إلى المعرفة السليمة ويقول : « من أين الثقة بالمحسوسات ، وأقواها حاسة البصر ، وبه ينظر الإنسان إلى الظل فيراه واقفاً غير متحرك ، فإذا به يحكم بنفى الحركة ثم إذ به بالتجربة والمشاهدة ، بعد ساعة يكتشف أن الظل يتحرك ، وانه لم يتحرك طفرة ، وإنما بالتدريج . . ذرة ذرة ، أو دفعة دفعة ، ومعنى ذلك أنه لم يتوقف قط .

وكذلك ينظر الإنسان إلى الكوكب فيراه صغيراً فى مقدار الدينار ثم أن الإثباتات العلمية والهندسيـــة تدل على أنه أكبر من الأرض فى المقدار ... . وهكذا . فإن حاكم العقل يكذب حاكم الحس ، ثم يتشكك أيضاً فى حاكم العقل ، لأن حاكم الحس يقول له : إن ثقتك بى كانت كاملة حتى جاء العقل فكذبنى ، وربما هناك حاكم وراء العقل يكذبه أيضاً . فلماذا تصدق العقل وتكذبنى ؟ ،

---

(١) الإمام أبو حامد الغزالى ـ المنقذ من الضلال ص١ـ٧

ثم ينتهى آخر الإمر إلى التشكك فى حاكمى العقل والحس جميعاً ، إلى أن يصل إلى الأمن واليقين ، وليس ذلك بادلة حسية وعقلية ، أو بطريق الاستنباط والاستدلال .. ولكن عن طريق الإيمان ، وهو نور يقــذفه الله فى القلب ، وعلامته أن الدنيا هى دار الغرور .. وأن الآخرة هى دار الخلود .

وقد بدأ الإمام الغزالى تربية نفســه بالأيسر . . ثم بالأشق والأعسر .. أى من البسيط إلى المركب . . ومن الأسهل إلى الأصعب . . وهذا هو منهج التربية الأقوم ....

وإننا نؤمن أن التربية هى الوسيلة الوحيدة التى يملكها الإنسان لتحقيق التطور الاجتماعى ، وتثبيت المثل والقيم الأخلاقية ، ولكى يتحقق ذلك فلا بد من تحويل ما هو ظاهر إلى ما هو باطن .. أو بمعنى آخر من تحويل المظاهر الخارجية الصحيحة ، إلى عقيدة إيمانية ، وذلك بتحلية النفس بالأوصاف المحمودة وتخليتها من الأوصاف المذمومة ، ولا شك أن ذلك يتطلب منهجاً واعياً ، لغرس مبادىء الحق والعلم والفضائل فى نفسية من يتولى تربيتهم(١) .

كما أن هذا الطريق يحتاج إلى مثل أعلى . . أو قدوة حسنة ، تلتف حولها القلوب للخروج من حياة الجهل إلى العلم ، ومن الغرور إلى الإيمان ، ولا شك أنه بدون التحلى بالإيمان الإلهى ، وما يستتبعه من قيم عليا ، يؤدى ذلك إلى التحلل فى وحدة الأمة فتتفكك، وتأخذ قوتها فى الاضمحلال وبالتالى يؤثر قطعا فى أفراد هذه الامة ذلك لان المثل الاعلى الجامع لوحدة الامة ، والذى يتجمع حوله الافراد ، ولهم فيه أمانى مشتركة قد ذهب بذهاب المثل والقيم العليا ...

---

(١) جوستاف لوبون ـ روح التربية ص١٠٢ تعليق د. طه حسين .

وفى تصورنا أن تلقين مبادىء الأخلاق ، وغرس قيم أخلاقية ، إنما يتطلب تجنب الشر والإقبال على الخير ، ولن يمكن ذلك إلا بمخالفة النفس بالرياضات ، والبعد عن الشهوات ، وذلك عن طريق التأديب والترويض وتحقيق الخير وبالتمثل بالقدوة الحسنة .. والممارسة الواقعية تدل على أن الخير أفضل من الشر . . وأن الأمم إنما تشكون ثقافتها وحريتها وارتقاؤها إذا سادت بها الأخلاق ، وأنها ترجع إلى الظلمة والجهالة عند ما تترك الأخلاق ..

علينا إذن أن نتحرر فى مجال التربية من القوالب والصيغ إلى الأسلوب العملى فى استخدام الإرشاد والتوعية بالقيم والمبادىء ، ثم توفير الحرية للتفكير مع وجود رقابة ، أما التركيز على حفظ المواعظ والحكم ، ثم فرض رقابة شديدة على الشباب ، والتشكك فى قدراتهم وملكاتهم ، ونزع الثقة منهم ، فإن ذلك يؤدى حتما إلى النفاق العلمى والخداع والرياء ولا شك أن ذلك مصدر من مصادر الشر والجريمة فى حياة أى أمة من الأمم ...

ليكن هدفنا الأساسى أن تصل القيم إلى باطن الشباب وتصبح غاية عملية يطبقها فى حياته جميعاً ، يتوارثها جيلا عن جيل ، فالفضائل العليا كحب الخير والإيثار والإحسان ، والأخوة والمحبة . . إنما هى ثمار البيئة الحسنة .. ونتاج مكارم الأخلاق عند الجماعة والأفراد .

ولا شك أن التربية النفسية تعمـــل على تكوين الرجال ، والتحلى بمكارم الأخلاق وليست هى إذن الحصول على أعلى الشهادات دون تطبيق العلم فى الحياة كسلوك أخلاقى يعاون على تجنب الشر واتباع الخير .

وفى تصورنا أن التربية الخلقية السليمة ، لا تعتمد على المواعظ الجامدة والتعبيرات المطاطة ، وفى الألفاظ المكررة ، والحكم المتواترة ، فى الكتب المترجمة ،

وإنما تعتمد أساساً على المربى الفاضل ، صاحب الخبرات الذى يوجه تلميذه إلى الخير والحق بما له من الحنكة والتجربة .

والتجربة التى نقصدها هنا تتمثل فى معرفة مصلحة الجماعة ، ومصلحة الجماعة هى القانون الثالث فى الشريعة الإسلامية ، بعد القرآن والسنة .. والتى لا يمكن مخالفتها ، أو الاستبداد بحملها ، وإلا استتبع ذلك وقوع المخالف تحت طائلة العقاب الذى تحدده الجماعة .. فضلا عن الجزاء الأخروى .

إن وسائل التربية فى الوقت الحاضر تعتمد على عملية تلقين فحسب إذ أن الأستاذ يعلم التلاميذ علم الأخلاق مثلا بقوله : إن علم الأخلاق إنما يبحث فى حب الاسرة والمجتمع .. والجهاد فى سبيل الله ، وأن حب الوطن مقدس .. وأن الجهاد فى سبيل الله شرف للانسان .. ثم أن الاستاذ نفسه ، ربما يكون متشككا فى قيم الاخلاق التى يدرسها ، ولذلك فإن دروس الاخلاق تبدو عديمة القيمة لانها غير مؤثرة تأثيراً إيجابياً ..

علينا إذن لكى ندرس الاخلاق دراسة سليمة صالحة للحياة العملية ، أن نربطها بالعلاقات الإنسانية ، كما علينا أن نربطها بعلاقة الإنسان بربه ، فليست الاخلاق مجرد برنامج دراسى على الطالب أن يحصله ويمتحن فيه فحسب ، معتمداً فيه على التذكر وحفظ الموضوعات المقررة دون أن يكون لها أى نفع فى الحياة العملية والعامة .. وإنما التربية أساساً تقوم على الارتباط الوثيق بالواقع ، فهى تهتم بالحقائق ، وليس بالالفاظ والتعبيرات والحكم .

علينا أن نغرس حب التأمل فى طالبى المعرفة ليستخلصوا الحقائق المجردة ويمتحنونها فى حياتهم وواقعهم ، بل وعقيدتهم الدينية ، ولن يتم ذلك بتغيير البرامج والنظم المتشابهة ، التى نزعم أن بها تطور ثقافتنا ، أو باستخدامنا الادلة

العقلية التى تدعى أن بها تؤثر فى الأخلاق بما استحدثته من نظم وبرامج ...

إنما الذى يؤثر فى الأخلاق حقا، ليس الحفظ وشحن المعلومات وليس المنطق، وإنما المؤثر الحقيقى هو المثل العليا والبيئة الصالحة التى يعايشها أولادنا وإخواننا ...

فالأساس فى إيجاد تربية سليمة،ليس باصلاح البرامج أو تغييرها أو تعقيدها أو تسهيلها، وإنما بإختيار المنهج السليم الذى يجب أن يكون نقطة ينطلق منها البناء التربوى محققا غاية يستهدفها، ويسعى لتحقيقها، فى عملية تربية الأفراد والجماعة، أما تغيير البرامج والأنظمة المعمول بها إلى أنظمة أخرى، فليس الا تغييرا لحذاء قديم بدل حذاء قديم، وأما الشخص واحد ...

أو بمعنى آخر ليس إلا إحياء لشىء عفن، ليس هناك من سبيل لاحيائه لأنه لا سبيل لاحياء الموتى !!

والمنهج المقترح يستقى مصادره من القرآن الكريم .. وهو السراج الأعظم متوخين فى تطبيقه ما أنتهجه الرسول الكريم ـ ﷺ سائرين على هدى الأئمة الذين اتبعوا تعاليمه، وهم القدوة الحسنة التى تعاوننا على تربية أمتنا تربية صالحة فى كل زمان ومكان ...

وتعتبر تربية الإنسان فى الإسلام غاية من الغايات العظمى تستهدف العلم ومكارم الأخلاق، فالرسول ـ ﷺ ـ يقول:

« أدبنى ربى فأحسن تأديبى »

وقوله ـ ﷺ:

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

وخروج الإنسان متكاملا ، واعيا .. عارفا بربه .. سليما فى معاملته مع إخوانه ، غاية فى التربية الإسلامية ، ولكى تتحقق هذه التربية ، تنطلق من محركين أساسيين ، محرك ترغيب .. ومحرك ترهيب ، فالنفس تنزع بفطرتها إلى الهوى وتميل إلى الشهوة ، وتركن إلى تحقيق ذلك ركونا عظيما ، بما أودع فى جبلتها من صفات مذمومة .. يمكن أن تحدث لها العطب والفساد والإنحراف ...

لذلك وجب تحريك محرك الترهيب للقضاء على هذه الآفات أولا بأول حتى لا تعتاد عليها النفس ...

كما تقوم التربية الإسلامية على محرك الترغيب فيما يتعلق بالأفعال المحمودة ، والعلوم النافعة ، والقدوة الحسنة ، حتى يتجلى بها باطن الإنسان ، فتصبح هذه الأفعال هدفا وغاية وسلوكا ...

ولكى يتم تطبيق ذلك عمليا يتوجب تحلية النفس بالأوصاف المحمودة وتخليتها من الأوصاف المذمومة ، والمنطلق الذى تنطلق منه مناهج التربية يقوم على ركيزة مستقاة من القرآن الكريم ، وهى أن الإنسان فطر على نسيان الحق،فإذا لم يذكر به بصفة مستمرة ، إنحرف عن جادة الصواب ، وركن إلى الخمول والبـــلادة ، فيتلقفه الشيطان ، ويوسوس له ويحسن له باطل عمله ، وبذلك تميل النفس إلى طبيعتها ، فتنحرف إلى الأهواء والأمانى الكاذبة ، وتندفع إلى الغفلة والضياع .

ومن هنا كانت أهمية الرياضة النفسية لتقوية العزيمة .. والعزيمة باب الصحة النفسية ، لأنها طريق إلى الإستقامة والعدل التى بها يتحقق الخير والعلم ، إذ أن أبا البشر آدم ـ عليه السلام ـ نسى ولم يستطع الصمود أمام غواية الشيطان .. تصديقا لقوله تعالى :

« ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما » (طه : ١١٥)

فالنسيان إذن آفة مفطور عليها الانسان ، وعليه مغالبته بالعلم . والعلم بهذا المعنى رياضة نفسية ، وممارسة عملية ، وارشاد وتوجيه مستمر لتقوية العزم .. والعزم نقيض النسيان ..

ومن الناحية العملية .. يجب أن تبدأ التربية النفسية بالاقتداء بالقدوة الحسنة ممثلة فى الأنبياء والرسل الصالحين لقوله تعالى :

« فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل » (الاحقاف: ٣٥)

فالعزم يحتاج إلى صبر ، وكظم الغيظ ، وتحمل للابتلاءات ، كما أنه لتحقيق التربية السليمة ... يجب استخدام وسائل الترغيب والترهيب كما يجب التذكير حتى لا ينسى العبد ، لأن النسيان غفلة ، وبعد عن العلم والحق والصدق ، وذلك وارد فى قوله تعالى :

« سنقرئك فلا تنسى » (الأعلى : ٦)

كما أن النسيان فطرة فى الانسان ، فهو ينسى ما يذكر به ، فكيف لا ينسى ما لا يذكر به لقوله تعالى :

« قال كذلك آتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى » (طه : ١٢٦)

التذكر الحق إذن يستهدف به عدم الغفلة ، والعلم بما هو مطلوب عمله ، مع بيان الطريق الصحيح الواضح ، الصالح للتطبيق العملى ...

وقد نبه الاسلام إلى القدوة الحسنة فى شخصية الرسول — ﷺ — ومن استن بسنته من الصحابة والتابعين وتابع التابعين ، فإذا تعامى الإنسان وتغافل ونسى بعد ما أرشد إلى الحق ، ما وجه اليه من الهدى ، ولم يؤمن به ، فإن ذلك علامة الجهل الذى يؤدى إلى العذاب والهوان ، بالاضافة إلى العقاب على تغافله ونسيانه الحق ...

ولقد أراد سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ من الخضر ، وهو عبد من عباد الله الصالحين آتاه الله علما ... وأراد سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ أن يتعلم هذا العلم ، ويربي نفسه على الصبر ، وكظم الغيظ ، واحتمال المكابدة والمعاناة للوصول إلى العلم اللدني ، لكنه لم يستطع مع الخضر صبرا مصداقا لقوله تعالى :

« قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا (الكهف : ٧٣)

ويمكن استخلاص من قصة موسى والخضر عليهما السلام ، هذا المنهج القرآني في التربية النفسية ، فالعلاقة بين أستاذ وتلميذ ، والأستاذ عبد خصه الله بعلم ، والتلميذ نبي حظى ما لم يحظ به أحد في عصره ومع ذلك فهو يتواضع لأستاذه العبد الصالح ، والعبد الصالح يبين صعوبة الدرس ، فيقول له : (١) انك لن تستطيع الصبر على ما أريد أن أعلمك عنه .. إذ أن ذلك يحتاج إلى كظم الغيظ والتمرد بعاداته تحتاج إلى رياضة وسياسة نفسية غير ما سبق أن علمته وخبرته ، وما أوحى اليك ...

التربية الاسلامية تربية سليمة قوامها كسر حدة مألوف العادات ، وتجاوز الرخص الشرعية ، وفي قصتنا يرد عليه النبي الكريم ـ كتلميذ متواضع أخطأ في الدرس ، فيقول له :

« لا تؤاخذني على نسيان مواعظك وارشاداتك ووصاياك . . . ولا تكلفني مشقة في تحصيل هذا العلم ، والأخذ بما كنت أجهله من حقائق وجردية ، فلا تجعل الأمر بالنسبة لي شاقا عسيرا » ..

---

(١) وذلك وارد في قوله تعالى : « انك لن تستطيع معي صبرا » .

إذن التربية تحتاج إلى علم .. والعلم يحتاج إلى تذكر دائم .. كما يحتاج إلى مكابدة ومعاناة ومجاهدة ، حتى يصير سلوكا وأخلاقا وأدبا ، كما فى قـــول عز مـن قائـل :

« لتبتغوا فضلا من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحساب » (الاسراء:١٢)

والعلم المقصود هنا ليس علما نظريا فحسب ، ولا علما عمليا فقط إنما علم جامع النظر والعمل ، صالح للتطبيق فى الحاضر والمستقبل ، إلا أن أئمة الاسلام (١) ينظرون إلى الجزء الخاص بالعلم النظرى على أنه سابق للعمل ، بمعنى أن التربية الصحيحة تقتضى البدء بالعلم النظرى ، ثم تطبيق هذا العلم فى مختلف مجالات الحياة وليس العكس ...

وقد سمى أئمة الاسلام هذا العلم .. بعلم المعاملة .. وقسموه إلى أقسام ثلاثـــة :

١ ــ اعتقاد .. أو تفكير أو نظر ...

٢ ــ تطبيق .. أو سلوك عملى أو معاملات .. أى تنفيذ وتطبيق ..

٣ ــ ترك ... استبعاد وهجر ...

١ ــ الاعتقاد :

هو التعليم المنظم المرتب ـ المبنى على الاقناع ـ لحقيقة الدين ، حتى لا يخامر نفس المسلم الريبة أو الشك فيما يأتى إليه من العلم ، فاذا ما قوى الاعتقاد يبدأ بالتنفيذ والتطبيق ...

---

(١) الامام أبو حامد الغزالى ــ أحياء علوم الدين ج ٤ ص : ٢٨

٢ — التطبيق :

والتطبيق .. ما تلقنه وأرشد اليه من علم ، مثل القيام بالفرائض كالصلاة .. والطهارة .. والصوم .. والزكاة .. والحج ، ويتم ذلك بالتدرج شيئا فشيئا حتى لا تسأم النفس وتتمرد بالعصيان وتثور على الاعتقاد إلى أن يسلس قياد النفس ...

٣ — الترك :

ثم يبدأ المربى بالأصعب من الأمور ،وهو ترك .. أو استبعاد مالا يصلح تعليمه أو تلقينه .. كأن لا يعلم الأعمى ما يحرم من النظر كما أنه لا يعلم الأبكم ما يحرم من الكلام ، كما لا يعلم البدوى ما يحرم من الجلوس فى الأماكن العامة .. إذ أن هذه العلوم لن يستفيد بها صاحبها فى الآن أو فى المستقبل ، فضلا عن أنها ليست صالحة للتطبيق العملى بالنسبة للأعمى .. والأبكم .. والبدوى ، وإنما الذى يجب أن يلقن تجنبه والابتعاد عنه من الأعمال والأفعال ما هو جائز أن يقع فيه الطالب فى الحاضر والمستقبل حتى لا يكون سببا فى انحرافه وضلاله ...

والتربية الاسلامية جانب آخر يختص بتربية القلوب ، وهى رياضة نفسية عملية ، تهتم بالنيات والخواطر ، فتدفع بمبدأ الخواطر والوساوس والنيات السيئة ، كالرياء .. والغرور .. والحسد .. والكبر .. والتعجب ... وغير ذلك من الآفات ...

ولا تترك النفس فى فراغ . بل تدفع اليها مكارم الأخلاق ممثلة فى الايثار والصدق والعدل والاحسان والتواضع ، وتنقية النفس بالخواطر المحمودة ، وفى

ذلك يقول الرسول - ﷺ - :

« ثلاث مهلكات .. شح مطاع ، وهوى متبع .. واعجاب المرء بنفسه »(١)

على المربى إذن أن يعاون تلميذه على التخلص من هذه النقائص... بل يجاوزها فى معالجة آفاته الباطنة ، ، وذلك بتطبيق منهج واع ، وقواعد عملية ، تنطلق من مفهوم اسلامى مؤداه : « من لا يعرف الشر .. يقع فيه » ...

وعلاج هذا الأمر بمقابلة السبب بضدده ، إذ أنه من الأهمية بمكان اتمام عملية التربية بمعرفة السبب والمسبب ...

ولذلك يتوجب تعلم ما يتوقع الانسان وقوعه فى القريب العاجل بل إن ذلك فرض على كل مسلم ومثال ذلك تعلم الطب لعلاج الأجسام ، أو تعلم الحساب من أجل المعاملات .. وبالمثل فى الصناعات والحرف ، لأنه إذا خلا المجتمع من تعلمها وقع فى الأغاليط .. والتكس ..!

ومن ناحية أخرى .. هناك من العلوم ما يجب تجنبه .. مثل تعلم السحر والشعوذة ، التى ليس من ورائها فائدة على الاطلاق ..

وإيمّ ذلك يقينا .. لا بد من مربى ومريد .. أو معلم وتلميذ .. ثم أنه لا بد من رابطة قوية ، أساسها الثقة والأدب حتى تتحقق التربية السليمة ...

آداب التربية : (٢)

الرابطة بين المربى وطالب العلم لها وشروط .. منها :

١ - النصيحة الخالصة التى لا ترتبط بمنفعة أو مصلحة ، فان تدخلت المنافع ، فترت التربية ، ومن ثم شابها العيب ..

---

(١) الامام أبو حامد الغزالى - أحياء علوم الدين ج ١ ص : ٢٨

(٢) الامام عبد القادر الجيلانى - الغنية ج ٢ ١٦٨ : ١٦٩

٢ ـ أن يتحقق في المربي الحلم والشفقة والرحمة بمن يتولى تربيتهم ...

٣ ـ أن يترفق بهم ، وأن يلاينهم عند عجزهم وضعفهم في احتمال المجاهدة ، ويقوى عزائمهم على المجاهدة والسعي والعمل على مخالفة العادات السيئة والطبائع المرذولة ...

٤ ـ أن يعتبر المربي من يربيه بمثابة ابنه ، فيعامله معاملة الوالد الحكيم المشفق الحبيب ...

٥ ـ أن يأخذ المربي من يربيهم بالأسهل ولا يحملهم ما لا طاقة لهم به ..

٦ ـ إذا ما وجد المربي المريد قوي العزيمة ، يأمره بالأشد فالأشد ... ، وذلك بترك محاكاة الطبع .. واتباع الحق .. حتى يخرج من مألوفات العادات وقيودات الطبع وأحكامه ...

٧ ـ أن يعوده على العزم ، فلا يتعلق بالرخص في المباحات ، وإنما يستبدل بها العزيمة .. حتى يتعود على المجاهدات .. وتجنب الخمول والكسل ..

٨ ـ إذا وجده صادقا .. مجاهدا .. صاحب عزيمة .. فانه لا يسامحه في شيء بل يأخذه بالأصعب من الرياضات التي لا تضعف عزيمته ولا تفسد ارادته ..

٩ ـ الا يهون عليه أمره عندما يقع في المخالفات ، ولا يترفق بحاله عندما يشتد طلبه .. حتى لا يقع في الرعونات ...

١٠ ـ أن يحسن تربيته وتأديبه ، ولا ينتظر من ذلك عوضا ، وعليه ألا يختار من يربيهم عن طريق التوصية أو الوساطة ، وإنما يربي المريد الذي جاء من نفسه طالبا تربية نفسه ، فهذا يصلح ويوفق في التربية . . ونجاحه أسرع وفلاحه اتم واثمر ...

١١ - إذا وجد فيه خللا ، فعليه أن يحفظ سره ، فلا يطلع عليه أحد غيره، لأنه أمانة عنده . . .

١٢ - أن يكون ملجأ المريد عند الحاجة ومرشده وموجهه عند الطلب . . وعليه أن يعظه فى السر . . .

١٣ - أن يعذر له أحواله . وأعماله ، لأن التعجب يفسد المجاهدة ، وإذا رأى من بعض المريدين انحرافا ، فانه يعممهم ويقول لهم . . بلغنى أن فيكم من يدعى كذا . . وكذا ، ويذكر المفاسد . . ويحذرهم منها ولا يعين أحــــدا منهــــم . . .

وقد ركزت التربية الاسلامية على الوفاء للمربى ، فالابن يجب أن يبر والديه برا تاما ، وعندما يهرم الوالدان فى آخر العمر ، فعلى الابن أن يتحملها ولا يضجر من طلباتهما ، ولا يزجرهما ببخس القول ، ويجافى المعاملة ، إنما عليه أن يقول لهما قولا كريما . . . لينا ، فيه وفاء واحسان وتكريم لهما لأنهما قد ربياه صغيرا ، وأن يتواضع لهما بلين الجانب والايثار ، ، وأن يكون شفوقا رحيما بهما ، لأن ذلك من حقهما وفضلهما عليه . . .

والاحسان . . وخفض الجناح . . والتواضع ، والايثار والقول الحسن ، ثمرات التربية الحسنة والأخلاق القويمة . . .

ولكن يجدر بنا أن نتساءل هنا . . . أيجوز اتباع المربى المنحرف ؟ . . . وتأتى الاجابة على هذا التساؤل فى الآية الكريمة عن لسان فرعون :

« قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين » (الشعراء : ١٨)

ويأتى رد موسى - عليه السلام - :

« وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل » (الشعراء : ٢٢)

وكان فرعون يشرك بالله ويؤله نفسه ، ويقتل الذكور من المواليد لذلك أبى موسى - عليه السلام - أن تسمى تربية فرعون له نعمة عليه ، لأن سبب التربية الاضطرار ، إذ أن لجوء موسى - عليه السلام - إلى بيت فرعون راجع إلى قتله الأطفال الذكور ، فالقته أمه فى اليم لينجو من القتل ، فآل إلى بيت فرعون ، ولولا ذلك لتربى بين والديه . .

والتربية الصحية تعلم الجلد والمثابرة . . وحفظ اللسان . . والاحسان . . والرحمة ، وقد قال حكيم من الحكماء أن الخصال التى يعرف بها الجاهل هى (١) :

أولا : الغضب بدون سبب . . أى يغضب الانسان على الانسان والحيوان بل على كل شىء يرى نفسه مكره عليه . . مضطرا فيه لمخالفة هواه . . .

ثانيا : الكلام بغير نفع ، لأن العاقل لا يتكلم كلاما لا منفعة فيه . .

ثالثا : افشاء السر فى كل مكان ، وافشاء ما يجب ستره . . .

رابعا : الثقة بكل انسان . . لأن العاقل يقظ فطن . .

خامسا : أن لا يعرف صديقه من عدوه . . فالعاقل يعرف صديقه ويعطيه ويعرف عدوه فيحذره . .

وقد مدح رجلا أحد التابعين ، فضاقه ذلك وقال له : لمَ تمدحنى ؟ . . أخبرتنى عند الغضب فوجدتنى حليما ؟ (٢) . . .

قال : لا !!!

(١) ، (٢) الامام السمرقندى - تنبيه الغافلين ص ١٠٥ — ١١٠

قال : أخبرتنى فى السفر فوجدتنى حسن الخلق ؟ . .

قال : لا !!!

قال : أخبرتنى عند الأمانة فوجدتنى أمينا ؟ . .

قال : لا !!!

قال : لا يحمل لأحد أن يمدح أحدا ما لم يجربه فى هذه الأشياء الثلاثة . .

فالاسلام ينظر إذن إلى التربية نظرة واقعية . . عميقة ونافذة ليبصر بنظام صالح التطبيق فى كل زمان ومكان ، يتعدى حدود الواقع ، بل يتجاوز حدود الدنيا . . . ليوصلها بالحياة الباقية . . .

فالتربية الاسلامية شاملة . . جامعة . . تعالج الانسان ككل ، كوحدة مع الاهتمام بالفروق الفردية والجسمية والمميزات العقلية والخلقية فى العلم والعمل جميعا . . كما تنظر إلى أصحاب التشوهات والعاهات الخلقية نظرة كلها رحمة وشفقة ، يقول الله تعالى :

« ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة » . .

(النور : ٦١)

تبين هذه الآيات الكريمة العلاقات الانسانية التى يجب أن تربط بين الانسان والانسان ، وهى أصل من أصول التربية النفسية فى العلاقات الفردية الأسرية ،

فليس هناك حرج على الأعمى أو الأعرج أو المريض ، كما ليس على الصحيح حرج أن يأكل فى أسرته أو عند أقربائه من جهة الأم أو من جهة الأب ، أو العم والعمة والخال والخالة ، وكذلك فى بيوت الأصدقاء المخلصين ، إذا لم يكن فيها حرمات ، وذلك بعد استئذان رب البيت ...

والناحية الثانية فى التربية الأخلاقية ، الاستئذان عند الدخول على البيوت وتحية أهلها بالسلام لأن بين الناس علاقة وثيقة ، ورابطة لا تنفصم تتمثل فى القرابة والدين ، وهذه التحية مباركة بها تتطيب النفوس وتزداد المحبة والوئام ..

فان الله تعالى يرى أن الانسان الذى يربى تربية كريمة يخرج نسلا كريما لقوله تعالى :

« والبلد الطيب يخرج نباتا بإذن ربه ، والذى خبث لا يخرج إلا نكدا »

(الاعراف : ٥٨)

الفصل الثالث

الاستعاذة

يلاحق الإنسان بخواطر نفسه ، ويحاصر بوساوس الشيطان ، وتختلط الخواطر بعضها ببعض ، وتتزاحم على قلب العبد ، فإذا لم يجد طريقه إلى الله .. فسدت حياته وأظلمت نفسه ، وضلت سبيل الرشاد :

« وإما ينزغنك(١) من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم »

(الأعراف : ٢٠٠)

لذلك فإنه يتوجب على العبد أن يناضل هوى النفس ، وأن يكافح وساوس الشيطان ، وعليه أن يرجع إلى ربه لينتشله من هذه الهوة السحيقة التى يتردى فيها والتى تطارده وتغويه وتفزعه وتخيفه وتملأ نفسه بالأباطيل .. والشيطان قد توعد الإنسان عندما أقسم أن يغويه :

« قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين » (ص : ٨٢)

لذلك كان على الإنسان أن يستعيذ بالله من الشيطان ، ولا يقنط من رحمة الله كما قال عز من قائل :

« يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله »

(الزمر : ٥٣)

فباب الله مفتوح لكل طالب ، فإذا ما توجه العبد إلى الله ، أرشده تعالى

---

(١) ينزغنك نزغ : أى تعرض الشيطان للانسان بالوسوسة ..

وفتح صدره الإيمان ، وكتب له السلامة ، وعرفه بما يتوجب عليه أن يدفع به وساوس الشيطان :

« قل أعوذ برب الناس . . ملك الناس ، اله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والنـــاس »

(الناس : ١ - ٦)

فالاستعاذه هى إحتراز بالله من الشيطان الرجيم ، كما ورد فى قوله تعالى :

« وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » (آل عمران : ٣٦)

وهما عيسى ومريم – عليهما السلام – . . .

الإستعاذة إذن فرارا من الشيطان ، ودعاء إلى الله أن ينجى العبد من الوقوع فى حبائله ، والتعرض لمكائده . . لأنه رأس كل خطيئة ، ومبعث كل ضلال وبيت كل داء . . .

والشيطان هو العدو الحقيقى للنفس البشرية ، تصديقا لقوله تعالى :

« إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا » (فاطر : ٦)

والشيطان يحاول أبدا بكل طريق أن يستجلب كل من يستطيع أن يغويه من بنى الإنسان ، ليكون من حزبه ، وحزبه هم أصحاب النار والسعير . . وقد أضل الشيطان منهم جبلا كثيرا ، وهم أصحاب الشقاوة والرياء المخالفون لـكل حق وفضيلة . . الحسدون لكل نعمة المقلقون لكل راحة وأمل ، المبطلون لكل سعادة ، الفاسقون . . المنافقون لذلك وجب أن يحترز العبد حتى لا يكون الشيطان فى نفسه مقام بسبب من الأسباب . . .

والطريق إلى ذلك إنما يكون بحسن الآداب وبحفظ القلب والجوارح وأداء

الأوامر والتكاليف الشرعية ، والنهى عن المنكر ،والرضا بجريان المقدور فالنفس والمال والأهل والأولاد والخلق أجمعين ، فاذا داوم الإنسان(١) الصادق على ذلك وواظب عليه ولازمه ، كانت له نجاة وآمان من فتن الشيطان ، ووساوسه وهواجس النفس وهواها ، بل كانت له النجاة بعد إنتقاله من الدنيا إلى الآخرة من عذاب القبر وهول القيامة وشدتها ، وألم النار وزفرتها ، وكان فى جوار الله فى جنة المأوى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين لقوله تعالى :

« أما من خاف ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى »

(النازعات : ٤٠)

وإذا نجا العبد من غوائل الشيطان ، فلن يكون وليه ولا قدرة ولا سيطرة عليه .. بل يصبح متقلبا فى نعم الله ، فيحظى بقرب الله ، وحب الله ، ورضا الله ، تصديقا لقوله تعالى فى خطابه للشيطان :

« إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » (الإسراء : ٦٥)

لأن الشيطان يكون فى أضعف حالاته وأخل قوة فى التأثير عندما يلقى العبد الصالح ...

والعبد الصالح هو المنشغل بالله .. المنصرف بالكلية عن الغواية فيقاوم وساوس الشيطان ودسائسه ، ويستمد قوته فى محاربته من نور الله ، فلا يستطيع الشيطان أن يقترب منه ، أو يوقعه فى حبائله ...

لذلك فان السبيل الحق الموصل لمحاربة هوى الشيطان ، إنمـــا يتركز على الدعائم الآتية :ــ

---

(١) الشيخ عبد القادر الجيلانى ــ الغنية ص ٢ ، ٩٢

أولا : الاستعاذة بالله ظاهرا وباطنا ، قولا وعملا من أباطيل الشيطان وشداعه .. والسير في طريق السلامة والاستقامة ...

ثانيا : أن يثبت العبد على دينه ، ويحافظ على أداء التكاليف والفرائض الشرعية واتباع القدوة الحسنة :

« إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » (العنكبوت : ٤٥)

« حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » (البقرة : ٢٣٨)

ثالثا : التقرب إلى الله تعالى بالذكر والنوافل ، كما ورد عن الله تعالى في كتابه العزيز :

« واذكروا الله ذكراً كثيراً » (الأحزاب : ٤١)

« ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (الرعد : ٢٨)

والذكر هو الحصن الحصين الذى لا يستطيع الشيطان أن يطرقه لأن العبد فيه آمن على نفسه من مكائده ...

رابعا : المجاهدة في الله ، وذلك بكثرة الرياضات وعمل الطاعات ، وتربية النفس وترويضها ، وهى الطريق الموصل إلى المقام الأمين، وإذا كان العبد مراعيا لله ، سائراً على طريق الإخلاص ، طائعا ، قاصداً وجهه الكريم ، فيحظى بالمقامات العليا ، ويترقى في سلم الصالحين والشهداء والصديقين .

خامسا : ولا يترك الله — سبحانه وتعالى — هذا العبد ، الثابت على الدين المستعيذ بالله من الشيطان .. المجاهد في طريق الحق ، لا يتركه تعالى — فضلا منه ومنة — يسير وحده ، إنما يمن عليه بالهبات والعطايا ، والرحمات والفتوحات كثمرة يؤيده بها ، وكنعمة يثاب عليه بها ، وهي بمثابة عون من الله لالتجائه إليه واستعاذته به تعالى .

لذلك ينبه بعض الأئمة(١) العبد الصادق بأن عليه لكى يحقق المريد من القربة من الله وتجنب غواية الشيطان وإندحاره أمامه ، ومغالبة هواه فى نفســـه من إتباع الآتى :

١ ــ أن يعرف العبد أن الإستعاذة بالله ، والإلتجاء اليه تخيف الشيطان ، فلا يستطيع التقرب منه ، لذلك عليه أن يدأب على ذكر الله ، والتحرز من الشيطان فى عمله ، وفى أكله وشربه ، وفى يقظته ومنامه ، حتى يأمن مكر الشيطان

٢ ــ يتوجب على العبد الصادق أن يتقرب إلى أهل الصلاح والتقـــوى والعارفين ليساعدوه على نفسه فى محاربة كيد الشيطان ، ليتمكن من التخلص من آفاته حتى يحظى بأنوار المنة وينعم بالطمأنينة والأمن بعد هزيمة الشيطان وحزبه ...

وقد ورد عن الفاروق عمر ــ رضى الله عنه ــ قول الرسول ــ ﷺ ــ « ان الشيطان يفر من ظلك يا عمر » ...

وقوله ــ ﷺ ــ : ما سلك عمر واديا إلا والشيطان سلك غـــير ذلك الوادى » ...

ومعنى ذلك أن الشيطان إذا علم بصدق المريد وإخلاصه لله زهد فيه وإبتعد عنه ، ويأس منه ، وإنما يأتيه بين الحين والحين ، يتلصص عليه حتى يرى ملازمته الصدق .. وعما إذا كان مستيقظا ومترقبا .. فاذا وجده كذلك إبتعد عنه بعد أن يتأكد أن المداوة بينه وبين ذلك العبد مستحكمة ، وأنها طبع قديم فى ذلك العبد ، كما ورد فى قوله تعالى :

---

(١) الإمام السمرقندى ـ تنبيه الغافلين ص ٣١٣ وما بعدها

« فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين »

(ص : ٨٣)

٣ — إن أول ما يستعين به المريد فى محاربة الشيطان هو السير لله على طريق الإخلاص فى الظاهر والباطن ، ومداومة الذكر ، ودعوته لله تعالى ، وذلك وارد عن الرسول — ﷺ — فى الحديث القدسى عن الله تعالى قوله :

« لا اله إلا الله حصنى .. فمن قالها دخل حصنى فقد آمن من عذابى »

يقول النبى — ﷺ — : قد بعثت داعيا ومبلغا وليس إلى من الهداية شىء وخلق إبليس مزينا وليس اليه من الضلالة شيئا » (١)

أى أن إبليس يوسوس للمعصية وليس بيده أكثر من ذلك ، لذلك ينبغى أن يجتهد الإنسان فى دفع وسوسة الشيطان عن نفسه ، ويجتهد فى مخالفته ... لقوله تعالى :

« إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً » (فاطر : ٦)

وينبغى العاقل أن يعرف عدوه من صديقه فيطيع صديقه ، ولا يتبع عدوه ويستعيذ بالله منه ...

يقول - ﷺ — : (٢)

« تعوذوا بالله من جهد البلاء ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء » ...

---

(١) الامام السمرقندى — تنبيه الغافلين ص ٢١٣

(٢) رواه الشيخان عن أبى هريره ..

وكان الرسول — ﷺ — يستعيذ بالله فيقول : (١)

« اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل والبخل والهرم وعذاب القبر ...

اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها

اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها » ...

والاستعاذة طريق الأمن فى الدنيا وباب الصحة النفسية ، وفى ذلك يقول — ﷺ — :

لو أن أحدكم إذا نزل منزلا قال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره فى ذلك المنزل شىء حتى يرتحل منه (٢) ..

وينصح الرسول — ﷺ — المسلمين بالاستعاذة بهذا الدعاء فيقول :

« عليك بجمل الدعاء وجوامعه ، قل :

« اللهم إنى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم ، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأسألك مما سألك به محمد ، وأعوذ بك مما تعوذ منه محمد وما قضيت لى من قضاء فاجعل عاقبته رشدا ... » (٣)

---

(١) رواه مسلم عن زيد بن أرقم ..
(٢) رواه ابن ماجة عن خولة بنت حكيم ..
(٣) رواه البخاري عن السيدة عائشة ..

الفصل الرابع

العـــلاج بالتوحيد

من الواضح أن هناك إرتباطا وثيقا بين التوحيد الإلهى وعلاج النفس الإنسانية فالتوحيد معرفة تشرق بها النفوس فتنجلى عليها الحقائق والأحزان وتلقى اليها المعارف ، فتهتدى إلى الطريق المستقيم والقيم العليا .. فتتعرف النفس على مكاسبها ومثالبها ، وتتطهر بالتوحيد من عيوبها ونقائصها وآلامها ، داخل إطار التربية النفسية والتحلى بالأخلاق الكريمة ...

والتوحيد (١) ، (٢) .. كما يراه الأئمة .. إسترسال مع الله تعالى فى كل أمر من الأمور فتنعقد إرادة المريد مع إرادة الله تعالى ، فيثمر ذلك الصدق والإخلاص والعلم والمعرفة جميعاً ...

وفى الطب النفسى الإسلامى تظهر النفس فى صورتين ، أو خاصتين عامتين ، نفس أمارة ونفس مطمئنة ، كما أنه توجد بينها درجات أخرى ومقامات للنفس مختلفة .. سنذكرها فى حينها . عندما يبين لنا الطريق الذى يرسمه أئمة الإسلام ..

وتتميز طبيعة النفس الامارة بالتغير والتقلب .. والميل إلى الحظوظ والركون إلى الأهواء ...

أما النفس المطمئنة فتمتاز بالسكينة والرضا والتوكل والإيثار والصبر على

---

(١) الرسالة القشيرية - الجزء الأول - ١٠٦ - ١٠٧

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف - ص ١٦٠ - ١٦٢

وللمزيد من الاطلاع ارجع الى كتاب الفاظ الصوفية ومعانيها ص ١٠٩ (التوحيد)

الإبتلاء .. وإسقاط التدبير مع الله فتصل إلى أعلى الدرجات فى الكمالات الأخلاقية فلا خوف ولا قلق ولا ضياع ولا ضجر .. إنما أمل فى الله .. ولله .. وبالله .. ومن الله ...

أما عامة الناس .. إنما تسيرهم مقتضيات العادات .. ومألوف الطبائع ، فينشأون على أخلاقيات مجتمعاتهم .. ومحاكاة سلوك ذويهم .. وذلك بحسن ظنهم بهم ، وثقتهم فيهم .. فيشعرون بما يشعر به آباءهم من مشاعر شتى .. وينفعلون بما ينفعل به أقرانهم من انفعالات مختلفة ...

فالعامى من الناس يظن أن ما يتبعه ذويه هو الحق والرشاد .. فيرفض ما عداه .. حتى تترسخ فى نفسه ما تعلمه منهم وما إكتسبه من خبرات وعادات ويتطبع بها وتصبح آخر الأمر طبعا فيه .. وخلقاً .. لا يوجد له بديلا لأن ذلك ما تعلمه .. وتلقاه وخبره .. أو ما تعود عليه ...

وإذا ترك الإنسان دونما توجيه وتبصير وإرشاد .. فلا شك أن رؤيته ستنحصر فى الرغبة فى تحقيق لذات نفسية ذاتية مما أودع فيه من جبلات ومما قد إكتسبه من مألوف العادات .. فكل ما تعود عليه بفعل العادة يقبله وكل ما يتألم منه يجهله يرفضه ويكرهه وكل رفض إنما هو ناتج من الخوف من الآلام والكراهية لهذا العمل .. وكل حب ثمرة لتجربة وخبرة شخصية سابقة ...

وسواء كانت هذه الخبرات والتجارب والمعارف إيجابية أو سلبية ، فان الشخص الذى اعتاد عليها .. إنما يقبلها لأنه عرفها .. وتعود عليها ، وتفهمها ، وأصبحت جزءا من طبعه وخلقه وسلوكه .. فلا يقبل على غيرها إما لخوف من المجهول .. أو لحب فى المألوف والمعتاد ...

والشخصية التى ليس فى طبعها البحث عن المعرفة ، أو التى لم تظفر بعد بنعمة

حب المعرفة .. تتصرف فى غاياتها إلى التمييز بين مبدأين أساسيين :

الحب والكراهية ... القبح والجمال

وهنا تميل النفس إلى عاداتها فى عدم التعمق فى الإختيار .. فتركن إلى الحسن الظاهرى ، واللذيذ المعروف .. وتهجر وترفض المجهول والمستتر حتى ولو كانت ثمراته أبقى .. ولذاته أتم .. ولا شك أن هذه طفلية لم تنم بعد ولم تتقدم فى طريق العلم والحق والرشاد ...

أما إذا تقدمت هذه الشخصية خطوة فيما التى فى روحها .. أو إذا تيقظت ولم تغفل ،أو إذا ذكرت فلم تنس وأخلصت ولم تنافق .. فانها تعمل على تمحيص « وغربلة » ما تعلمته .. وتتفحص ما إعتادت عليه من خبرات .. وما أرتضته واحبته من أفعال ...

أ ـ التكلف كبداية :

إذا أرادت هذه النفس إعادة تقييم معارفها .. فان عليها التوقف عن المألوف من العادات .. وتغيير مواقفها واتجاهاتها فى مرونة ، وصدق وذلك بتجنب التقليد الأعمى .. ولن يتم ذلك إلا بالإسترشاد بمثل طيبة جديدة .. وقيم عليا تصبو اليها .. تنحو على دربها للتخلص من العادات الرذيلة التى إعتادت عليها .. والأخلاق السيئة التى التى اتصفت بها .. والمعايير المنحرفة التى تقيس بها الأمور والأفعال ...

وفى هذا المقام من المعرفة .. تستطيع هذه النفس أن ترفض ما تلقته وتعلمته ـ بدون وعى ـ إذا لم يكن متمشيا مع المثل الأخلاقية .. التى تصبو اليها وتتخذها قدوة وغاية (١) ...

---

(١) الاحياء ـ الجزء ٨ ص ١٤٤ وما بعدها ـ مطابع الشعب

حقا .. إن النفس فى طبعها الفطرى — نفس أمارة — تختلف عن النفس المطمئنة إختلافا واضحا .. وهى لكى تصل إلى هذه المرتبة الأسمى ينبغى عليها أن تتهر من أخلاقها وطباعها وعاداتها ، وذلك كما سبق القول باتخاذها غاية لها. وهى الوصول إلى الحق تعالى ، وذلك يقتضى المجاهدة وتنحصر فى عمليات تحلية النفس بكل وصف محمود .. وتخليتها من كل وصف مذموم ...

والنفس لكى تتغير من طبعها .. يجب أن تتكلف .. والتكلف هنا من أشق الأمور عليها .. إذ هو مرحلة للانتقال من عادة إلى عادة .. ومن وصف إلى وصف .. لأن فى التكلف إقبالا على المجهول والمستغرب والجديد .. والنفس كما سبق القول تميل إلى المألوف والمعروف والمحبب ...

التكلف إذن تغيير جذرى فى العادات والطبائع .. وهو فى عدم الركون إلى الهوى .. وموافقة الذات ومتابعة الشهوات .. هو ترك العادات السيئة بالجملة ، والبعد عن المحاكاة والتقليد ، ثم هو المجاهدة والرياضة لاتخاذ القدوة .. أى المعرفة الجديدة .. أساسا وطريقا .. وغاية ...

ومهمة الطبيب الإسلامى تتعين فى معرفة حال طالبه .. هل هو يسير بمنطق المحاكاة والعادة .. ويقبل على كل ما يلقى فى نفسه عن طريق الظن ، بلا تمحيص أو إختيار أو امتحان ؟ .. أم أنه قد بدأ يتفهم أمانى النفس الكاذبة ، ورغباتها التى لاتشبع ، والتى تسيّرها العادة ، فلا ترد أن تتكلف شيئا جديداً محموداً ولا تتقدم درجة فى رقيها لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، وإنما تحيا حياة الفزع والخوف والتوتر والقلق والزمت والاضطراب والضياع ...

ينظر الطبيب النفسى الإسلامى إذن بعين فاحصة إلى مريده جاهداً أن يعيد تربيته .. بتخليصه من الغفلة .. والأهواء .. والشهوات .. فيوجه توجيها

واشداً إلى إختيار القدوة الحسنة .. أو بمعنى آخر يوجهه إلى رؤية طريق الحق وهذه مهمة عسيرة .. إذ المطلوب تغيير نفسية الطالب تغييراً جذريا شاملا لإعداد شخصية مستقلة عن الماضي ، تحيا حياة جديدة .. بنظرة جديدة ...

المطلوب إذن أن يتخلى الطالب عن كل ما تقبله بلا تبصر .. وأن يعد نفسه لأن تصبح كالصفحة البيضاء التي يعاد كتابتها من جديد، بنظام واضح .. وترتيب وتنسيق فلا يخلط فيها بين الأوهام والحقائق ، أو بين العادات والمعارف أو الهوى والتعقل ...

وعلى الطالب أن يبدأ بالصدق .. والبعد عن الغفلة ومجاهدة النفس للوصول إلى الطهارة والصفاء .. ودفع الوسوسة والشك والريبة ليحل محلها العلم والإخلاص والطاعة ...

وهذا الطريق لجد شاق — كما سبق القول — فيه مجاهدة ورياضة ومعاناة ومكابدة وفيه بعد عن الحظوظ والشهوات ورفض للعادات وإقبال على أنوار الحق تعالى ، إذ أنه يتطلب إرادة قوية .. وعمل إيماني ونية صادقة ...

وبدون الإرادة والعمل والنية تنعدم القدرة للوصول إلى الأفضل والأطهر والأشرف والأقوم .. كما أنه بانعدام التكلف ، تتصف النفس بالبلادة والخمول والتبطل والسلبية وتفقد القدرة على التغيير الجذري المحقق لارتقائها وكمالها ...

إذن فالبداية واضحة .. والمربي يعرف مثالب الطريق وعثراته .. ويدفع الطالب إليه دفعاً .. فاذا ما صدق المريد وأخلص وأطاع وغالب أهواء النفس، وندم على موافقة الشهوات .. وعرف أن الحق واحد .. وأنه الغاية والمقصد والهدف والأمل والرجاء ، وأن بدونه تعالى لا نجاح ولا فلاح .. إذا عرف المريد ذلك .. وعرف أن الإقبال على طريق الله هو الموصل إلى السكينة

والطمأنينه والأمن وأن به تتطهر النفس من نقائصها .. وتبتعد عن إغترارها ، وغرورها فتسلم من الأمراض التي هي نتيجة لازمة المخالفة والعناد وتعرف أنه يجب أن تحارب في ذاتها الخواطر الشيطانية ليحل محلها ـ بالتطهر والصفاء ـ الخواطر الملائكية ...

إذا عرف الطالب بكل ذلك .. وبدأ في التطبع بالطباع الحسنة والندم على ما اقترف من الذنوب وتاب من ذلك توبة نصوح .. وأسف على ما ضاع في في اللهو والعبث والضلال والجهالة .. هنا فقط يتبصر الطالب بالحياة الحقة القائمة على المعرفة .. فلا ترجع نفسه إلى الهوى أبداً ...

ب ـ السكينة كثمرة :

وهنا تعرف النفس بالاستقامة ما يجب أن يتبع .. وما يجب ألا يتبع ، فتسير مطمئنة تكتنفها السكينة والطمأنينة في طريق الحق ، مبتعدة عن الغواية إذ التوبة عن العادات المرذولة أهم مقومات التربية النفسية .. والندم هو الدعامة التي تساعد النفس على إختيار ما هو حق وصدق ...

وبالندم تبدأ مرحلة جديدة من العمل .. تنطلق اليها النفس ، وبالندم تتجه النفس إلى الأمن والأمل .. بعد أن كان الاضطراب والقلق والخوف والوسوسة طباعا ملازمة لها ...

التوبة إذن بداية لمرحلة جديدة للنفس .. ونهاية لمرحلة قديمة ، أي بين مرحلتين .. مرحلة العادة .. ومرحلة العلم .. إذ التوبة خلاص من العادات السيئة والطباع المذمومة .. ثم أنها الإخلاص والطاعة والصدق .. في أن تبدأ رحلة النفس من جديد في طريق الحق تعالى ...

وفي هذا المقام يستقبل الطالب ثمرات يانعة بعد رحلة المجاهدات والرياضات

والمعاناة والمكابدة .. فيتعرف على معان جليلة .. ويلهم إلهامات عظيمة .. ويبصر بفتوحات جميلة .. فيطمئن الى سبيله .. ويعرف أنه طريق الحق .. فيزداد إيمانا وتوحيداً ، ويبتعد عن الشبهات والغوايات ، ويكون الله له نصيراً ومعينا ، فلا يذكر إلا إسمه .. ولا يتكلم إلا والحق في قلبه ، وإذا غفل لحظة .. أو نسي ساعة .. ذكر ربه ، والذاكرون هم الموحدون الذين تابوا وأصلحوا وصدقوا .. فتاب الله عليهم ...

وإذا سار الطالب في هذه المرحلة .. رحلة التوحيد .. فان الله لا يتركه وحده .. وانما يضيء له طريقه ، فيبعد عنه عثرات الطريق ويخفف عنه المصائب ، يتلطف معه في الابتلاء .. ويفتح عليه من أنواره .. ويبشره بنعمة فتنزل على قلبه الالهامات والرؤى ، ويؤيد بنصر من عنده ، فيشيع قلبه اشراقا ، ونفسه علما وعرفانا ويقينا ...

والتوحيد غاية المريد الصادق .. اذ به يعـرف الأمن بالله لأنه ذاكراً له أبداً .. وذلك تصديقا لقوله تعالى :

« ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (الرعد : ٢٨)

جـ ـ مهمة الطبيب المربي :

أن مهمة الطبيب النفسي ، كشيخ مربي ، متابعة نفس طالبه في كل هذه الأدوار فهو فارس يركض الى قلب مريدة بدخيله نفسه ويسر له حقيقة باطنه .. ولا يخفي عنه شيئا .. بل يكاشفه بما يتتابع على نفسه من خواطر .. وهذا يساعد المربي على نصحه ويعاون على ارشاده .. فيأمره بترك هذا وطلب ذاك . اذ هو الخبير بخواطر النفس الملائكي منها والشيطاني .. حيث سبق له أن خاض

ثمار هذه التجربة وتعرف على المثالب والعيوب .. كما أنه ذاق ثمرة الاخلاص اليانعة .. وعاين ما يعاينه أهل الحق ...

يلقن الطبيب النفسي الاسلامي مريده اذن معنى الطاعة ، حتى تعتاد نفسه على القبول وعدم الاعتراض ولا تذمر ولا تكاسل .. كما أنه يشحن قلبه بحب الحق والتخلق بأخلاق الرسول الكريم – ﷺ – فلا تطالب نفسه عزا زائلا. ولا مجدا فانيا .. انما هي راضية أبدا بما يأتيها من رزق ، متوكلة على الله .. متجهة اليه على الدوام والاستمرار ...

الفصل الخامس

العلاج بالذكر

من أفضل طرق العلاج فى علم النفس الاسلامى « الذكر » ، لأنه يصقل القلوب ، إذ أنه يبدل الخوف أمنا ، والعداوة محبة ، ويحول القلق والجزع والاضطراب إلى سكينة ، والفزع والرعب إلى طمأنينة ...

« فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريباً »

(الفتح : ١٨)

ويغلب بالذكر على الذاكر روحانيته على ترابيته .. فيعرف أن الريبة هواجس شيطانية ، والتوتر وساوس ، وجميعها من تهاويل الشيطان وتخاويفه لافزاع الانسان وارهابه ، فاذا أخلص الانسان فى عبوديته وأطاع ربه وافتقر إلى مولاه ، تولاه تعالى فرفع عنه الهم والغم ، وبذلك ينشغل الذاكر أبدا مع الله (١) ...

ومها تكالبت على الذاكر الابتلاءات وأثقلته الحياة بمتاعبها ، فانه بالذكر يستريح ويطمئن ، ويقنع ويرضى ، ويعرف أن الشكوى لغير الله حقارة ومذلة وأنه مع الله ، هو المنتصر أبدا ، فلا يتملكه يأس ، ولا يستقطبه اكتئاب لأنه مع صاحب الأمر ، المعين .. والمنقذ ، مسترسل معه ، ضيف فى رحابه ، فلا أنين مع الله .. ولا تبرم .. ولا قلق .. ولا زمت ، وإذا ضاقت بالانسان سبل الحياة ، وانغلقت فى وجهه الأبواب ، وتورمت قدماه فى البحث عن الرزق

---

(١) راجع ألفاظ الصوفية ومعانيها ـ المؤلف « الاخلاص ـ النشر

والمؤونة ، فان الله بفضل الذكر يفتح عليه كنوز جــــوده ويكافئه على حسن صنيعه ، ويمن عليه بنعمه واحسانه ، فيعرف أن مطلبه كان تافها لأنه مع الذكر شهد حلاوة صبره ، وراقب جمال توكله .. فستضيء قلبه بالمحبة .. وتمتلأ نفسه بالرضا والأمن ...

وإذا أثقلت الانسان الدنيا بمتاعبها ، ففقد الصحة والجاه ، ثم ذكر الله ، علم أن لا جاه إلا جاه الله .. ولا وجود للجاه إلا معه تعالى ، وأما جسمه فهيكل وتركيب ، بل تراكيبه ليس فيها روح ولا ضمير ، فاذا ما اختل الجسد صحت الروح ، ونمت وأينعت واستضاءت ، فيرضى على أى وجه ويقنع بما يمتحنه الله بالبلاء والابتلاء ، ويرى نفسه وهو ذاكر أغنى الأغنياء وأصح الأصحاء ، وأقوى الأقوياء ، بأنوار الله ..

يقول بعض الأئمة ، (١) أنه بالذكر تنمحى المخاوف ، فاذا ذكر الذاكر الله ، عمرت قلبه الطمأنينة ، وغمره الرضا ، بعد أن كان متوجسا خائفا .. يائسا قانطا .. وأظلته النعم وعلم يقينا أن مسا اعتراه من هواجس يسهل اقتلاعها ، وساوس يمكن كسرها ، وتخيلات باطلة يمكن صرفها ، وأنه مع الله ، لا يخشى شيئا ، ولا يخــــاف شيئا ، ولا يعتريه شيء ، يتأكد له ذلك بما يثبت الله به فـــؤاده ...

« والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما »

(الأحزاب : ٣٥)

يقول الرسول ـــ ﷺ ـ :

---

(١) الامام أبو حامد الغزالى ـ مكاشفة القلوب ص : ١٤٥ ـ ١٤٧

« لا يجتمع قوم ويذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم رحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله تعالى » (١)

أما الغافل عن الله ، والذى تكبر وتجبر ، فقد ظلم نفسه ، حيث اعتقد أنه عاقل وغيره جاهل بل هو فى الواقع أجهل الجاهلين ...

« ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا » (طه : ١٢٤)

أما الذاكر لله فهو الذى يذكره الله ..

« فاذكرونى أذكركم » (البقرة : ١٤٢)

وإذا ذكر الله عبدا ، فان ذلك مكافأة له بالخير والثناء عليه فى الملأ الأعلى ، وإذا ارتكب الانسان إثما شعر بجريمته ، وأقلقه وأفزعه ما وقع فيه من معاصى ثم أنه إذا توجه إلى الله وذكره سرا وعلانية ، فإن الله يغفر له ذنبه ، ويرفع عنه همه وحسره (٢) ..

« والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله »

(آل عمران : ١٣٥)

يقول الرسول ﷺ :

ان الله تعالى يقول أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه (٣)

والذكر توبة وتطهير وصلاة وعبادة لله ، بل من أفضل العبادات وذلك وارد فى قوله تعالى :

---

(١) رواه ابن ماجه عن أبى سعيد ، وروى الضياء عن أنس نفس الحديث مع اختلاف اللفظ « ما جلس قوم يذكرون الله تعالى الا ناداهم مناد فى السماء ، « قوموا مغفور لكم »

(٢) الامام الشعرانى ـ كشف الغمة ص : ٣٣٧ ـ ٣٤٠ ج ١

(٣) ذكره احمد عن أبى هريرة اه

« أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر »

(العنكبوت : ٤٥)

يقول الرسول ﷺ :

« مثل البيت الذى يذكر الله تعالى فيه ، والبيت الذى لا يذكر الله فيه مثل الحى والميت » (١)

والذكر الجماعى يقوى العزائم ، ويتعـــاون على البر والتقوى ، لأن المؤمن ضعيف بنفسه ، قوى بأخوانه ، وإذا قارنا ذلك بالطرق المتبعة عند علماء النفس المحدثين فيما يسمونه بالعلاج النفسى الجماعى (٢) ، لوجدنا أن هنـاك فارقا عظيما ، إذ أن الذاكرين لله يتوجهون بقلوبهم اليه تعالى ، وهـذا سلب لصفات النفس المذمومة ، وتحليتها بالصفات المحمودة ، فيخرج الذاكرون وقد تطهروا مما علق بهم من مخاوف ، وسكنت نفوسهم عن طلب الحظوظ والآفات ، فيقبلون على الحياة بقلوب سليمة خالية من الحقد والكراهية ...

يقول الرسول ﷺ :

« ذكر الله شفاء القلوب » (٣)

وهناك اختلاف بين العلاج بالطرق التنفيسية وبين العلاج بالذكر ، فالطرق العلاجية التى يتبعها بعض علمـاء النفس الحديث تستهدف تخليص المريض من أمراضه عن طريق تعرية الرغبات واستظهار المكبوتات ، وامتصاص الصراعات،

---

(١) رواه الشيخان عن أبى موسى الأشعرى

(٢) د . عزت راجح ـ الأمراض النفسية والعقلية ص ٢٠ـ ٣٥

(٣) رواه الديلمى عن انس

بافتراض أن تفاعل الفرد مع الجماعة وما يتبعه من تأثير متبادل يفضى إلى تغيير السلوك ، والنظرة إلى الحياة ...

وطريقة التنفس تقوم على أساس اسقاط الانفعالات على المجتمع ككل ، بادعاء أن الفرد عندما يكتشف أن متاعبه ومشاكله ليست وقفا عليه وحده ، فانه يلتى بحمله حيث يجد غيره لديه نفس المتاعب ، بل يسبقه فيها غيره ...

كما يعتقد أصحاب تلك الطرق العلاجية أن المرضى يشعرون كذلك أن المشاكل التى هى مصدر متاعبهم لا تستحق أن تكون أساسا التنفيس عليهم ، مما يجعلهم يتوحدون بالجماعة ، ويثقون فيها ، ويشعرون بالانتماء اليها ، إلى أن تصبح الجماعة سندا عاطفيا للمريض تعينه على الاستبصار ، وفهم نفسه ...

ولذلك يلجأ بعض علماء النفس (١) إلى العلاج بالتنفيس كوسيلة لانخراط المريض فى الجماعة ، ويلاحظون أن هذه الطريقة صالحة فى حالات الاضطرابات السيكوسوماتية ومشكلات الحياة العائلية والمالية ، بل وفى المشكلات الجنسية وادمان المسكرات ، كما أنهـا تفيد فى توثيق العلاقات الانسانية فى ميدان الصداقة ... (٢)

وينظر علم النفس الاسلامى إلى هذا العلاج على أنه علاج وقتى لا يغير الشخصية الانسانية تغييرا جذريا ، إذ أنه نوع من الاسقاط على الآخرين ، وذلك بازاحة المشكلات والعقبات والعوائق الذاتية ، كالقاء الأوساخ فى غمرة الاندماج والتداخل فى الجماعة ، ونحن نتساءل : هل يصبح المريض معافيا بعد الانتهاء من

---

(١) د . عزت راجح ـ الأمراض النفسية والعقلية

(٢) المرجع السابق

الإتصال بالجماعة ؟ . . وهل يعطيه هذا العلاج وقاية من الوقوع في نفس الأمراض السابقة التي سبق أن أصيب بها . . .

هناك تشكك كبير في ذلك . . فلا غرو أن تلك الأعراض ستعاوده مرة بعد المرة ، وأنه لن يتخلص من أمراضه ، بل وربما تزداد سوءا عندما يصطدم مرة أخرى بنفس المشكلات التي كانت سببا في مرضه ، وخاصة أن هذا النوع من الأمراض يميل أصحابه إلى التشاؤم والكآبة من فرط ما يساورنه من فزع وخوف ورعب ، وما يرهق كاهلهم من آلام وعذاب . . وما يشعرون به من كبت وإحباط ووساوس . . .

إذن فان الثقة في هذا النوع من العلاج مؤقته وغير مضمونة ، علاوة على أن الأثر التنفيسي عارض زائل لا يمس عمق الداء ، وحتى إذا ما خصص مشرف أو عدة مشرفين لكل مريض ليصلحوا أمر نفسه وليعالجوا حالته ، فانهم مهما أوتوا من علم لن يستطيعوا اكتشاف أبعاد متاعبه النفسية ، وهم وإن صادفوا بعض النجاحات في علاجه فإنما هي نجاحات مؤقتة سطحية ، إذ ما يلبث المريض أن يرجع إلى حالته الأولى ...(١)

والواقع أن هذه الطرق سلبية غير فعالة ، إذ أن المريض لاشك يحتاج إلى تغذية نفسه بعقيدة أصيلة تتجاوز حياته الدنيوية إلى ما بعد الموت ، وتعينه على التغلب على متاعبه ، وتنقله نقلة أخرى إلى حياة التفكير في عالم أكثر أمنا وأفضل غاية حتى يطرح كل ما في نفسه من عوائق مصطنعة ومتاعب كاذبة.. وبلا رجعة ..

والطريقة المثلى — كما يرشدنا علم النفس الإسلامي — إنما تكون عن طريق

---

(١) هـ ـ ج ـ أيزنك ـ الحقيقة والوهم في علم النفس ص ١٦ ترجمة د. رؤوف نظمي والاستاذ قدري حفني .

التفكر فى الله ، باللسان والقلب ، فالذكر لله يساب ما فى النفس من هواجس ووساوس وعفارت ، ليستبدل مكانها السكينة والرضا والأمن والمحبة ، وبذلك يعيد إلى نفس المريض الثقة بالله وفى الله ومع الله ، فلا يفكر فى آفات نفسه وعيوبها ، وإنما يتجه بكليته اليه تعالى فيؤانسه فى وحشته ، ويطمئن قلبه الخائف ، فتسكن سريرته .. ما ورد فى قوله تعالى :

« ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (الرعد : ٢٨)

يقول الرسول ـ ﷺ ـ :

عليك بذكر الله وتلاوة كتاب الله فانه نور فى الأرض وذكـــر لك فى السماء (١) ...

ولا شك أن استخدام الطرق العلاجية الجماعية المؤسسة على المناهج الموضوعية والمادية دون أن تستهدف توجيه المريض إلى الله والعمل على تزكية روح الإيمان فى قلبه ، إنما تعد طريقاً مسدوداً طالما أن المريض قد حجب عن الله وانقطع عن ذكره ، إذ أن إعتماده الكلى هنا يرتكز على الطبيب وعلى التجارب السابقة ، والطرق السلبية المختبرة ... وهى صـــالحة فقط فيما يتعلق بالبدن أو الهيكل المادى فحسب . يقول الرسول ـ ﷺ ـ :

« ما من قوم يقعدون فى مجلس لا يذكرون الله تعالى فيه إلا قاموا عنه مثل جيفة حمار وكان ذلك المجلس عليهم حسرة يوم القيامة (٢) ...

أما الغذاء الروحى .. والذى هو أساس العلاج النفسى فلا يعتمد فى عـــلم

---

(١) رواه أبو يعلى عن أبى سعيد .

(٢) رواه أبو داوود عن أبى هريره .

النفس الحديث كعلاج رغم أنه الأساس الذى يعين المريض على الشفاء إذ يغرى قلب المريض بالأمن والسكينة ، فيستضىء بالنور بعد الظلمة ، ويتعرف على حقيقة نفسه فيبلى سريعا من أمراضه ...

ولا يقوم العلاج بالذكر بترضية النفس وشغلها بعظوظها وأهوائها ، كما يتبع فى العلاجات التجريبية الحديثة ، وإنما يهتم بترويض النفس وسياستها ورعايتها ، ومراقبتها للسير فى طريق الله ...

يقول الرسول — ﷺ — :

« ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل ، قالوا يا رسول الله ، ولا الجهاد فى سبيل الله قال : ولا الجهاد فى سبيل الله إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ثم تضرب به حتى ينقطع ثم تضرب به حتى ينقطع(١)

ليس إذن علاج النفس فى ترضيتها فتزداد شرها وبخلا لتحقيق لذاتها واشباع غرائزها ، وانما العلاج الحق بتربيتها على كظم الغيظ والصفح الجميل والصبر على الأذى والمجاهدة فى الحق عن طريق الاستعانة بالله تعالى الكامل .. الغنى .. العزيز .. الجبار ، فتشعر النفس بصدق عبوديتها فيذوب غرورها وتنمحى آفاتها ، ويستقيم حالها ، وترجع عن غيها ...

أما تجارب علم النفس الحديث على مرضى النفس فإنها ان صدقت أحيانا نجاحا فانها لا تصدق ، وهى بمثابة حقنة مسكنة لمريض بالسرطان قد تفشى داءه والتشر فى خلايا جسمه ، فما يلبث المسكن أن يزول أثره ويرجع المريض الى حالته أكثر سوءا ...

---

(١) رواه ابن أبى شيبة .

وسواء كان العلاج عن طريق العمب ، أو العلاج بالإيحاء ، أو العلاج بالطريق التخديرى ، أو عن طريق مشاهدة المسرحيات والأفلام النفسية ، فان ذلك كله ليس حلا جذريا لمشكلات المريض وما يعانيه من أعصبة مرضية ...

وإذا كان العلاج النفسى الحديث يهدف إلى تغيير ظروف المريض ومشاعره وشخصيته تغييرا جوهريا ، ويأمل أيضا تغيير عاداته وطريقة تفكيره ، وأسلوب حياته ، بما يتبعه من أساليب علاجية يمتحنها عليا .. فان ما يقدمه فى واقع الامر من تصورات ، لا تفيد فى كثير أو قليل ، ذلك لأنه يتوجب قبل الشروع فى العلاج أن نفهم النفس الإنسانية فهما دقيقا فاحصاً ، وان يتوفر ذلك إلا بالرجوع إلى خالقها وموجدها العالم بأوصافها .. الخبير بتركيبها ...

وإذا كان أصحاب العلاج النفسى يتكلمون عن خطوتين للعلاج،خطوة يسمونها بالاستبصارية ، وهى تتلخص فى معونة المريض على فهم نقصه ومعرفة مصدر اضطرابه ، وخطوة ثانية يسمونها بالخطوة البنائية ، ويهدفون منها إلى معونة المريض وإرشاده إلى إتباع أساليب جديدة للتوافق ، أى لحل مشاكله ومواجهة صعوباته ، ويتصورون أن الخطوة الاخيرة هى الأسلوب الجدى فى العلاج .. فإننا نعتقد أن هذين الخطوتين العلاجيتين هما على الحقيقة من الأساليب الهروبية السلبية الفاشلة التى تبتعد عن الداء أكثر من التعرف عليه لعلاجه ...

ذلك أن دراسة الشخصية على هذا النحو دراسة فجة ، ودليلنا على ذلك أن علماء النفس قد وقعوا فى عملية إحتيال هذى فاضح عندما استسلموا لرأى (سيجموند فرويد) الذى غرر بهم عندما أعلن أن شخصية الفرد إنما تتكون فى السنوات الأولى المبكرة من عمره ، وأن ما يكتسبه فى السنوات الأخرى إنما هو إمتداد طبيعي للمرحلة الطفولية المبكرة ...

ولقد أصدر علماء النفس بناء على هذا الفرض الغير دقيق - والذى لم يثبت صدقه حتى الآن — مرسوما بقانون أسموه « قانون الحتمية النفسيـــة » والذى مقتضاه حكموا على الشخصية حكما إستبداديا عن طريق الكبت واللاشعور .. والوراثة ، والعقد النفسية التى تتكون فى المرحلة الطفولية المبكرة ...

وإذا كان هذا الفرض الغير سليم والغير منطقى يخالف مخالفة صريحة وصف الخالق النفس البشرية ، فكيف يمكن أن استنتج من هذه المقدمات الفاسدة نتائج صادقة ؟ .. بل كيف يتسنى لنا تغيير الشخصية تغييرا جذريا وليس لدينـا أدنى معرفة بطبيعة النفس البشرية ؟.. إن التعريفات المتناقضة التى وضعت لتعـــريف الشخصية الإنسانية قد زادت على أكثر من مائة تعريف ليس واحدا منهـا على الأقل صحيحا .. أو صادقا تجريبيا ...

وإننا نتصور أن أصحاب علم النفس بشتى فروعه وتخصصاته لا يستطيعون أن يدعوا بعد كل دراساتهم وأبحاثهم أنهم يعرفون شيئاً عن النفـس البشريه ، ولا أن يفسروا تفسيرا مقبولا سلوكيـا ، ذلك لأن صفات النفس وأوصافها لا تخضع لتجارب ووسائل العلم الحديث الذى يستمد مناهجه من الموضوعية العلمية أى باستخدام منطق الاستنباط والقياس والملاحظة .. وغير ذلك من الطرق المادية التى تستخدم كمحكات ، وقياسات لمعرفة الصدق أو الكذب ...

والعقل الانسانى مهما أوتى له من الفطنة ومهما استخدم الأساليب والأدوات الحديثة ، فانه عاجز تماما .. وسيبقى عاجزا أبدا عن فهم وعلاج النفس الإنسانية ما دام يتبع الطرق التجريبيه والتطبيقيه والتحليلية والماديه فى محاولة لفهم النفس الانسانيه وعلاجها ...

ولاشك أن الطريق الحق الذى يجب أن يتبع .. إذا أريد لعلم النفس أن

يكون عاما على الحقيقة هو العودة إلى نور التوحيد والرجوع إلى الناموس السماوى ، وذلك بأن يتدارس كلام الله ، ويتفحص معانيه ويستوضح ما استغلق على عامة الناس ، وذلك لفهم النفس فهما جديداً بالعودة إلى الله تعالى الذى خلق هذه النفس ، للمستضىء بنوره وحكمته وقضائه فلا نعترض ولا نثور ولا نجادل ، وإنما نسقط تدبيرنا ونأخذ الآيات القرآنية لنطبقها على أنفسنا ونجعلها نبراسا يرشدنا فى طريق العلم والعمل ...

وعلى المهتمين بدراسة الإنسان وحياته النفسية ألا يفصلوا بين عقل الإنسان وقلبه أو بين ظاهره وباطنه ، أو بين شريعته وحقيقته ، ولا يمكن أن يثمر هذا الإتجاه نجاحا إلا بالدخول فى حظيرة بالإيمان ...

وإذا توفر لنا ذلك ، فإننا سنعرف حتما أن أفضل علاج لأمراض النفس وآفاتها إنما يكون بذكر الله ، وبغير الإتجاه إلى الله فلن يستطيع العلم أن يتقدم خطوة فى طريق شفاء الأمراض العصابية ، والنفسية ، بل سيزداد الأمر سوءا والإنسان شقاء وتعاسة وضلالا ، تصديقا لقوله تعالى :

« ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا » (البقرة : ١٢٤)

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه » (الكهف : ٢٨)

« وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا »
(الإسراء : ٤٦)

فالذى يعرف الطريق إلى الله هو الإنسان السليم النفس والقلب،دنيا وآخرة..

« إنما يتذكر أولوا الألباب » (الرعد : ١٩)

يقول الرسول ﷺ : « ليس يتحسر أهل الجنة على شىء إلا ساعة مرت بهم لم يذكروا الله عز وجل فيها »

الفصل السادس

العلاج بالصبر

الصبر في اللغة الحبس .. وكل من حبس شيئاً .. فقد صبر وقد سمى رمضان شهر الصبر ، إذا أن الصابر حابس لنفسه عما تنازع إليه من المشتهيات والشكوى .. والآلام .

وسمى الصابر على الفاجعات صابراً ، لأنه قد حبس نفسه عن الحرج(١) ، وبهذا المعنى يكون الصبر بما يأمر به العقل .. وما تهدف إليه الحكمة وهذه نظرة عميقة لمفهوم الصبر غير النظرة الساذجة التي يراها أصحاب التحليل النفسي الحديث، من أن الصبر نوع من الكبت ، وأن جوهر الكبت يكمن في تجنب ما هو مؤلم وأن مصدره صراع بين رغبات وأهواء متضادة متضاربة تؤدى إلى الكبت(٢) .

ولا شك أن موافقة الأهواء تبعد الإنسان عن الصبر ، لكن الإنسان العاقل يفضل فوائد الصبر — وما يثمره من الخير عاجلا أو آجلا — على مثالب الهوى، وما يجلبه من الشر والرذائل .. تصديقاً لقوله تعالى :

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » .

(الكهف : ٢٨)

إذن موقف الصابر موقف واع .. وطريق اختيارى يفضل فيه تحمل المكابدة على مقارفة الهوى ..

---

(١) الإمام ابن القيم الجوزى — ذم الهوى ص ٥٨ وما بعدها .

(٢) باتريك ملاهي — عقدة أوديب ص ١٨ ترجمة جميل سعيد وأحمد رمزى .

وإذا قورنت فضائل العقل — الذى يأمر بالصبر — بالهوى .. ظهر لنا خساسة الهوى .. الذى ينهى عن الصبر .

والصبر بهذا المعنى .. فى أرق صوره وأجل معانيه على أحوال منها :

١ — صبر على المحبوب : أى صبر على بعد المحبوب .. وعدم الاعتراض عليه .. والمحبوب هنا هو الحق تعالى .

٢ — صبر على المكروه : أى صبر على ما يعانيه الصابر من آلام وتحمل الفاجعات وكظم الغيظ ، وهى الامتحانات .. والاختبارات .. والابتلاءات التى يجرب الله بها الصابر ليتعرف على جهاده فى سبيله والعمل على مرضاته .

ولا تتم الطاعة لله إلا بالصبر فالطاعة مفتقرة إلى الصبر لتكون متوجهة لله حقاً على الوجه الأكمل .. كما أن تجنب المعصية يحتاج أيضاً إلى الصبر لتغلب الإنسان عليها ..

الصبر إذن .. تحمل من أجل غاية نبيلة ليتحقق للصابر من الله أملا عظيما تصديقاً لقوله تعالى :

« ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » (النحل : ١٢٦)

« وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » .
(فصلت : ٣٥)

« فاصبر إن وعد الله حق » . (غافر : ٥٥)

« ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » . (الشورى : ٤٣)

« إن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً » (آل عمران : ١٢٠)

والصابر ليس متوجساً .. أو خائفاً .. أو كاتباً لطاقة شهوية تريد الانطلاق بدون وعي إذا وجدت مثيراً خارجياً ، أو ظروفاً مناسبة إنما الصابر واع لما يفعل .. يفطن لسيره ، عارف بثمراته .. يتحمل في سبيل الله ثقة به ورجاء فيه تعالى :

« إنا وجدناه صابراً ، نعم العبد إنه أواب » . (ص : ٤٤)

الجزع غير الصابر .. والكابت غير الصابر .. فالكابت يحمل نفساً مريضة يخاف أن تفضحه ، وتكشف عن نزعاته الشهوية ، وأهوائه المتقلبة وربما وقع في العلل والأمراض وما يسمى بالأمراض الهستيرية كنتيجة لكبت دوافعه العدوانية أو الشهوانية ...

كما أن الكابت لا يتحمل(١) شيئاً لأنه كالوتر المشدود ، مرتاباً .. قلقاً .. خائفاً يغرق في الهم والغم ، متشائماً ، يرى الحياة بمنظار شديد السواد .

أما الصابر ، فهو قوى بالله .. ومن الله .. وفي الله .. ولله ، يتحمل في جلد ، ويقوى بعون الله على أعدائه : —

« إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا » . (الأنفال : ٦٥)

والصبر تحمل ومكابدة ومعاناة لشتى أنواع الابتلاءات وهي اختبارات تحتاج من المرء إلى الكظم ، والتوكل ، والرضا في جميع الأحوال ، بل يحتاج إلى علم ، إذ الجاهل لا يتحمل شيئاً .. وإنما يختار الأيسر والأسهل ، أو يهرب مما يحاصره من دوافع .. خوفاً وهلعاً من وقوعه تحت طائلة القانون ...

---

(١) باتريك ملاهي — عقدة أوديب — ترجمة ومراجعة جبل سعيد ، دكتور أحمد رمزي .

إذا فضحته نفسه أو خشية انكشاف أمره ، فيحتقره المجتمع ، وتنفصل منه الجماعة ، فهو يكبت ليهرب من النزعات والصراعات ، فإذا وجد باباً لاستظهارها انفجرت المكبوتات في صور ضروب من الأفعال الشاذة ، والنشاط التدميري والسلوك الانحرافي .

الصبر إذن ليس نوعاً من الكبت الذي يخفف المرء فيه عما يقاسيه بكبته في اللاشعور ، إذ هو عملية هروب مستمرة ودائمة . . وكأن ليس هناك ما يصبر عليه ، وما يجب تحمله ، إذ هو فرار من الوعي إلى اللا وعي ، أما الصابر واع لكل ما يفعل ، ومدرك لما يصبر عليه تصديقاً لقوله تعالى :

« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين » . (محمد : ٣١)

« والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس » . (البقرة : ١٧٧)

فالصبر علم ، ثم أنه جهاد ومعاناة ومكابدة في سبيل الحق . . والصابر صادق :

« الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار » .

(آل عمران : ١٧)

الصابر ليس مستذلا ولا مكبوتاً ولا جزعاً . . إنما هو متوكل على الله . . راضي بما يأتيه من خير وشر . .

لقد أوذي يوسف ـ عليه السلام ـ من أخوته ، وألقوه في الجب ، وصبر والده يعقوب ـ عليه السلام ـ على فقده صبراً جميلا ، رغم معرفته اليقينية ، وعلمه اللدني الذي وهبه تعالى اياه ، بإن أولاده جاهلون وكاذبون وأن ما ادعوه افتراء ، فقال لهم ـ كما ورد في الآية الكريمة :

« بل سولت لكم أنفسكم أمراً ، فصبر جميل » .

(يوسف : ١٧)

ثم ابتلى بفقد ابنه الآخر بنيامين ، فلم يتزعزع إيمانه ولم يضعف عزمه ، ولم يتشكك لحظة فى ربه ، وإنما كان واثقاً كل الثقة فى رحمة الله ، فقال عليه السلام ، كما ورد عن عز من قائل :

« فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً » .

(يوسف : ٨٣)

لم ييأس يعقوب - عليه السلام - من امتحان الله بفقد ابنيه ، ولم يقنط من من رحمة الله ، ولم يعترض على حكمه تعالى ، إنما كظم غيظه ، وصبر على بلائه ، إذ أيقن أن ذلك مشيئة الله .. وحكم الله .. وقضاء الله :

« وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » .

(يوسف : ٨٤)

كما أنه لم يشكو لأحد من الناس .. ولم يتبرم .. ولم يتحسر .. ولم يتشفع عند أحد ، لأنه يعلم أن الناس جميعاً لا يستطيعون له نفعاً ولا ضراً ، إلا ما كتبه الله له ، فتوجه إلى الله توجه العبد الصادق ليبث إليه حزنه ويتضرع إليه مناجياً واثقاً من نصرته فيقول :

« إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون » .

(يوسف : ٨٦)

واستجابت السماء لهذا النداء .. وانهالت المنن والعطايا على النبى يعقوب عليه السلام - وجاءت رحمة الله بعد رحلة المكابدة والمعاناة ، وتحمل الفاجعات

والصبر على الابتلاءات، وبشر من الله بعودة الحبيب إلى حبيبه بعد طول غياب :

« قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف » . (يوسف : ٩٤)

ثم تتابع المبشرات ، ويحظى يعقوب - عليه السلام بالنعم الإلهية ، كثمرة لصبره ، ومثابة لتحمله ، وجزاء لصدقه وتوكله .. لقد رجع إلى يعقوب - عليه السلام - فى غمرة البشرى بالقاء الموعود نور عينيه . . بلا علاج ولا دواء كأنه لم يمرض كمداً ، ولم يكابد صبراً ، ولم يتحمل كظما . . وكأن قلبه لم يتفطر ألماً وحزناً :

« فلما جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً » .

(يوسف : ٩٦)

ثم أخذ يذكر أولاده بقوله السابق عند البلاء . . عسى أن يكون ذلك عبرة وتذكرة ، وهو مطمئن النفس . . رابط الجأش . . ساكن القلب :

« ألم أقل لكم أنى أعلم من الله ما لا تعلمون » .

(يوسف : ٩٦)

الصبر إذن ثمرات رائعة ، ونتائج يانعة ، إذ أنه طريق الصحة النفسية فى الدنيا والآخرة ، وليس دليلا على الحقد والكراهية وكبت الاعتداء ، والهروب من الفاجعات . . وستر النزعات والشهوات .. بل الصبر دليل على التحمل للأذى ، والرضا بالقضاء ، والمعاناة فى سبيل أمل عظيم بامتحان قاس ، يريد الصابر به أن يجتاز المحنة لينال ثواب الله فضلا من الله ومنة :

« سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

(الرعد : ٢٤)

كما أن الصابر عارف بالله ، عالم بفضله تعـــالى ، إذ لا يعقل أن يصبر إلا الواعى[1] ، والعـــارف بما يصبر عليه ، فليس ما يقوله فرويد وتلامذته بصحيح من أن هناك صراع من أجل تحقيق الذات والشهوات ، وتجنب المستكرهات .. وأن هذا الصراع أما أن تكتبه البيئة ، أو تعطى الفرد[2] الفرصة لإشباعه وتنفيذ نزعاته وتحقيق شهواته ..

ليس بصحيح إذن ما يدعيه أصحاب التحليل النفسى من هروب الناس جميعاً إلى كبت دوافعهم العدوانية والشهوانية ، وهذا الفرض لا تؤيده أى أسانيد منطقية أو أسباب مقبولة عقلية ، إذ أن الإنسان مسئول عن نفسه ، وعليه أن يختار طريق الخير أو طريق الشر فإما يختار الصبر فى سبيل الله ، أو الكبت وهو غفلة من الله[3] ، ثم أن هناك فى آخر الأمر جزاء من الله ، حسب الإخلاص فى الأعمال ، فإما يكون بالنعم والمنن الإلهية ، أو التندم والعذاب الأخروى .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يأمر الناس باتباع الطريق القويم والصراط المستقيم ، ويبين لعباده أن الصبر الجميل أفضل طريق للانسان فى الدنيا والآخرة :

« فاصبر صبراً جميلا ، إنهم يرونه بعيداً ، ونراه قريبا » .

(المعارج : ٥)

« وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالمرحمة » .

(البلد : ١٧)

---

(١) د. عزت راجح — أصول علم النفس ص ٣٨٨ وما بعدها .

(٢) يرى فرويد أن الكبت هروب من منطقة الوعى إلى منطقة اللا وعى وهو بذلك غير الصبر إذ الصابر يعيش واعياً بما يكابده ويتحمله فى سبيل القربة من الله .

(٣) راجع حقيقة الكبت — بالكتاب .

« وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » .

(العصر : ٣)

يقول الرسول ـ ﷺ في نصيحة لغلام منها :

« . . . . واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب .. وأن مع العسر يسراً(١) .

والصبر كما يرشدنا إليه على ـ كرم الله وجهه ـ هو بمثابة الرأس من الجسد فإذا فارق الرأس الجسد .. فسد الجسد .. كذلك الصبر في الأمور فإذا فارق الصبر الأمر فسدت الأمور(٢) .

أتى رجلا إلى الرسول ـ ﷺ فقال : يا نبي الله ذهب مالي .. وسقم جسمي .. فقال ﷺ : لا خير في عبد لا يذهب ماله ، ولا يسقم جسمه ، إن الله تعالى إذا أحب عبداً ابتلاه ، وإذا ابتلاه صبره(٣) .

---

(١) ذكره السمرقندي في تنبيه الغافلين ص ١٢٩ ، ١٣٠ عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا غلام أو ياغليم ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ؟ . قلت : بلى يا رسول الله قال : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ، قد جف القلم بما هو كائن فلو أن الخلق كلهم أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقدره الله لك لم يقدروا عليه وإذا أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه ، أعمل الله بالشكر في اليقين «وأعلم في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ». وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً .

(٢) نفس المرجع .

(٣) نفس المرجع .

فالواجب على العبد أن يصبر على ما يصيبه من الدنيا ، وذلك لتنقية قلبه من الشوائب ، وصقل معدن نفسه من الاعتراض ، كما عليه أن يوقن من أن الصبر اختبار يجريه الله له ، وامتحان يدخله ليعرف به درجته ومقامه ، كما عليه أن يثق فى أن الله قبل أن يبتليه قد تلطف معه .. وأنه تعالى قد دفع عنه من البلاء أكثر مما أصابه ، وعليه أن يحمده على ذلك .. كما يجب أن يقتـــدى الصابر بالرسول ـــ ﷺ ـــ فى صبره على أذى المشركين .

وبذلك يكون الصبر وسيلة ناجعة لعلاج النفس البشرية من آفاتها إذ هو عملية تخلية وتحلية بإرشاد ربانى وتوجيه رحانى ، والصبر تخلية من العدوان وسلب لنزعات النفس الشهوية ، كما أنه تحلية للنفس بالصفح الجميل وعدم رد الأذى ، والبعد عن الآفات .. وبذلك تتحقق بالصبر الصحة النفسية التى ينشـــدها كل إنسان .

الفصل السابع

العلاج بالأضداد

من الطرق العديدة التي استخدمها الطب النفسي الإسلامي في علاج الطالبين العلاج بالأضداد .. وهي طريقة فريدة تسد المنافذ على هجوم الأمراض والنقائص والآفات النفسية .. كما أنها في نفس الوقت تعاون على جانب الفضائل والأخلاق القويمة ...

والطريقة المثلى لاستخدام هذا العلاج تظهر في توجيه المربي طالبه إلى السلوك العملي الواجب إتباعه ضد ركون النفس إلى الحظوظ والتكاسل عن القيام بالحقوق وطلب التخفف من الأعباء ، وولوج الأبواب اليسيرة ، والمنافذ السهلة التي لا تحتاج إلى كثرة معاناة أو تعب أو عنت .. ومن هنا يدخل الرياء والكذب .. وكل ما من شأنه أن يفسد على النفس صحتها ويوقعها فريسة للأمراض ...

لذلك يتبع أطباء النفس الإسلاميين أسلوبا عمليا في العلاج ، فمثلا إذا تلبس على إنسان أمران ، لا يعرف على الحقيقة أيها جدير بالإتباع ... إذ عليه أن يفاضل بين الالتحاق بالدراسات العليا بجامعة أو معهد ليزداد علمه وتحصيله أو يسعى للعمل لتلبية احتياجات بيته وأولاده ...

ويحتار الشخص العادي في الأمر .. وربما يصيبه القلق ، ويعتصره الألم ، وتندفع اليه الهواجس ، فهو يميل من ناحيه إلى زيادة علمه ليرفع مستواه الأدبي والإجتماعي .. وهو من ناحية أخرى يريد أن يلبي مطالب أسرته واحتياجاته

الضرورية من مأكل ومشرب ومسكن .. كما أن عليه أن يسعى لعمل إضافي يرتزق منه ليزيد دخله وماله ...

والقاعدة العامة التي يحكم بها الشخص العادي في هذا الأمر أن يرى ما هو أنفع له وأكثر فائدة عنده .. فيتبعه .. وربما كان ذلك ليس بحق على المدى البعيد ، وإنما إختياره تم عن هوى في نفسه ...

ينصح بعض الأئمة الطالب في هذه الحالة أن ينظر إلى الأمرين نظرة فاحصة ليهتدي إلى أثقلها على النفس ، فيتبعه لأنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقا وصدقا(١)

فالنفس تميل دائما إلى الأخف والأسهل والأيسر ، وتبتعد عن الأشق والأعسر والأثقل ...

ولذلك فإن مخالفة حظ من حظوظ(٢) النفس هو الأولى بالإتباع ، لأنه عند إنحرافها مما يحقق للطالب فائدة أعظم ، ونتيجة أثمر ...

وليس معنى إتخاذنا موقفا محددا عند حظوظ النفس يصلح لكل حالة ، إنما ذلك تأييداً لقاعدة إسلامية أساسها أن النفس لا تصدق .. ومع ذلك فلا بد أن تتخذ الوسيلة العلاجية حسب ظروف كل طالب وشخصيته، وعلمه وماله ، فما يصلح لطالب ربما لا يصلح لطالب آخر .. إلا أن الأصل في العلاج بالأضداد واحد .. إذ أنه لا بد من معيار يتبعه الطبيب ، ولو أن لكل مرض دواء،ولكل مريض ما يناسبه من علاج لتحقيق الشفاء ...

والطبيب البشري لا يستطيع أن يعالج المريض بالسخونة إلا إذا عرف درجة

---

(١) الشرنوبي ـ شرح الحكم العطائية ص : ٨٢ وما بعدها .

(٢) الإمام أبي حامد الغزالي ـ أحياء علوم الدين ج ٨ ص ١٤٤٨ .

حرارته ويفحص سائر بدنه ، كما أن عليه أن يعرف بيئته وعمله .. فربما إرتفاع حرارته أو انخفاضها راجع إلى طبيعة صناعته ، أو مناخ بيئته ، أو نواح أخرى إجتماعية ...

وبالمثل بالنسبة للعلاج النفسى ، فلا يقتصر على نمط واحد من العلاج أو على نوع واحد من الرياضة النفسية ، يعمم على كل طالبى العلاج .. فربما إتبع المعالج طريقا معينا كان من أسبابه أن تلفت نفسية الطالب ومالت فى نفسه الرغبة فى الشفاء وذلك من كثرة الأوامر والنواهى .. إذ يجب أن ينظر المعالج إلى حال المريض ، وسنه ، ومزاجه ، وعمله .. وما يمكن أن يحتمله ، وما لا يحتمله من تجارب .. وهذا رهن بقدراته وإستعداداته قبل أن يبدأ فى العلاج[1] ..

ويستخدم بعض الأئمة مقياس آخر لطالب العلاج. فمثلا فى المثال الذى سقناه ينصح الطالب أن يضع نفسه فى حال الموت .. ثم يتساءل :

أى من الأمرين أفضل سعادة له :. عندما يكون بين يدى الله ؟ ...

أو ما الذى يسعده أن يقبل به على الله ؟ ...

طلب زيادة فى العلم ... أم ... الزيادة فى المال ؟ ...

فإذا وجد أن ما يسعده عند ملاقاة الله هو زيادة فى العلم،فلا شك أن إختياره هو العمل الصالح .. وهو الحق الواجب الإتباع .. وليس هـــذا إلا إمتحانا يسيرا للنفس ، يكشف عن باطنها ، ويظهر حقيقتها ، ولا يحتاج هذا الأمر إلى طول تأمل ، أو كثرة تفكير .. إذ أنه ضد الهوى النفسى فحسب ...

والإنسان لا يصدر حكما فى هذه الحالة باطلا .. وإنما هو يهتدى إلى العمل

---

(١) الشرنوبى ـ شرح الحكم العطائية ص : ٨٢ .

الصالح الذى لا رياء فيه ، والخالص من شوائب المادة .. لأنه فى موقف يقتضى قصر الأمل فى الدنيا وزخارفها وزينتها ، لذلك فالموقف الذى يختاره فى هذه الحالة هو أصل حسن العمل .. فى الدنيا والآخرة ...

والنفس كطبيعة لا تصدق فى طلبها ، وإنما غايتها أن تحقق ما فيه لذتها ، وما يستجلب — فى زعمها — منافعها .. لذلك، فإن العمل بضد هواها هو الطريق إلى الصحة النفسية ...

واذا مثلنا النفس بالطفل الصغير .. فإنه اذا لم يؤدب ،ويخالف فى طلب ما يظن أن فيه لذته .. انقاد الى أهوائه .. وأفسد نفسه من حيث يظن أنه يعمل لخيرها ، ولذلك فإن المربى يلزمه بأمور عليه أن يتبعها مع علمه أنه يشق عليه القيام بها ، وربما بكى الطفل وقاوم ما أمر بإتباعه .. لكنه عندما يبلغ مبلغ الرجال يتبين له أن ما أمره المربى به كان لنفعه وصالحه ...

ولذلك وجب على الطالب أن يعرف نفسه ، ويسعى للمحافظة عليها ، ولا يتم له ذلك بإشباع حظوظها ولذاتها فحسب ، وانما بزيادة صفاتها وجلائها ، وسد أبواب النقص الذى تعانيه .. فيعالجها من الجهل بمزيد من التعلم ، ومن التكبر بالتواضع ، ومن الأنانية بالإيثار والتضحية ، ومن حب العدوان والتسامح ، ومن الشره بالتعفف ، ومن البخل بالكرم والسخاء ...

وعليه أن يتحمل مخالفة طلبات النفس ، ويسعى الى الدواء الشاق ، فيأخذه رغم مرارته من أجل اصلاح نفسه ، ويصبر على تجنب الشهوات ليسمو على المطالب النفسية الزائلة ...

وهذا العلاج النفسى عن طريق اتباع المضادات لطلب النفس، ليس سلوكا عمليا صالحا من أجل الصحة النفسية فى الدنيا فحسب ، بل أنه يتعدى ذلك الى الحياة الآخرة

فمريض الجسم إذا لم يعالج من أمراضه وأسقامه .. فلا شك أنه سيتخلص من مرضه بالموت .. فمهما استمر المرض ، فسيأتيه الموت إن عاجلاً أو آجلاً ، ليخلصه من أوجاعه .. وآلامه ...

أما مريض النفس ، فإن مرضه يدوم بعد الموت ، لأن نفسه لا تزول بزوال الجسم وإنما تبقى على حالها من الصحة أو المرض .. وهذا هو العذاب المقيم .

ومن غرائب السلوك الانسانى ، أن الناس إذا نصحت بالتخلى عن الأعمال الفاسدة والتحلى بالأخلاق الصالحة ، وامتثلت للأمر كرهاً منها فإنها تسرع إلى نوافل الخير من صيام وقيام ، ومن ناحية أخرى تتكاسل عن القيام بالحقوق الواجبة ، والسنن المقررة ، والتى لم تؤديها ، كدفع ظلم شاركت فيه ، أو إتمام عمل لم تستوفيه ، أو استيفاء دين لم تؤديه .. أو فرض لم تقم به .

والنفس الذى هذا حالها .. تقبل على كل عمل خفيف ، وتتكاسل عن كل عمل تراه ثقيلا .. وهى تستهدف من ذلك الظهور أمام الناس بحسب مظهر التكامل ، لينسب إليها الفضل والعلم والتقوى والورع .. وتذكر عندهم بالطيبة والصلاح ..

فالنفس فى بداية توبتها تلغى الأصول ، وتهتم بالمظاهر والزخارف والأشكال والرسوم ، وإذا ظنت أن إتيان الفضائل أهم من الفرائض والواجبات ، فهى مخدوعة ، حيث تظن الصدق ، مردودة حيث تأمل القرب .

والله تعالى خالق النفس الانسانية ، عالم بسرها وجهرها ، كما ذكر فى كتابه الكريم ، فمن طبعها الميل إلى التسويف فى العبادات والرغبة فى تأجيل استيفاء الحقوق ، ولذلك ألزمها — سبحانه — بطاعته ، مصلحة لهــا ، وأمرها بتأدية الفرائض والحقوق فى مواقيت حددها تعالى ، خوفاً من تخاذلها وتسويفها ، ،

ولو لم يؤمل ذلك تعالى ، لهلك كثير من الخلق بارتكابهم إلى أهواء النفس .. واسيائهم ، وتغافلهم عن تأدية ما فرضه تعالى من الواجبات والتكاليف .. وهذا من حكمة الله .. العليم الخبير ...

فهم لا يحتاجون إلى التخويف .. والترهيب .. والتحذير .. لسيرهم فى طاعة الله ، ولاشراق قلوبهم بنور المحبة الالهية .. فهم يؤدون الواجبات ، ويقومون بالفرائض والتكاليف بنفس راضية ، وقلب سليم .. كما أنهم يضيفون إلى ذلك أعمال البر ، ونوافل الخيرات .. حتى صارت أعمالهم قربات وقربات .

والحب من خصائص النفس الانسانية ، وربما تحب شيئاً وفيه شرها ، وربما تكره شيئاً وفيه خيرها ، وما أحبت النفس شيئاً إلا وكان صاحبها عبداً له ينقاد إليه ، ويعمل لارضائه .. الا أن الله تعالى لا يحب أن يحب غيره ، ولا يرضى عن الغافل عنه ، الذى غرته الأمانى ، وغره بالله الغرور ، وفى ذلك يقول الجنيد(١) :

. إنك لن تكون على الحقيقة عبد الله .. وفيك شىء ما زال مسترق (عابد) لغيره وإنك لن تصل إلى الحرية ، وعليك حقوق الله فى عبوديتك ، فالمدين مديناً ما بقى عليه درهم .. ومحبة الشىء تلزمه العبودية له .. فاجعل محبتك خالصة لمن تلزمك عبوديته ...

---

(١) الشرنوبى — شرح الحكم العطائية ص ٨٢ وما بعدها .

الفصل الثامن

علاج ظلم النفس

أصل الظلم .. وضع الشيء في غير موضعه .. ومنه ظلمه(1) .. أى نسبه إلى الظلم ، والظالم هو كثير الظلم .. ويقال لمن جنح عن الحق وانحرف عن العدل وبغى واغتر أنه ظلم نفسه .. أى جهل صالحها .. وأبعدها عن طريق النور .. وأودى بها إلى طريق التهلكة والضلالة .

والنفس لجبلة فيها تميل إلى الهوى ، فهى عدو يحتاج إلى التربية والتأديب ولا يصدق الإنسان حتى تصدق نفسه ، ولا تصدق النفس إلا بمعرفتها ، ولا يمكن معرفتها إلا بامتحانها .. واختبارها .. ثم محاسبتها .. والاعتراض على أحوالها واتهامها فى أفعالها ونياتها(2) .

وإذا عرفت نفسك فقد عرفت عدوك الذى بداخلك .. وهنا يمكن أن تحذرها وتتفقدها لأنها أمارة بالسوء(3) ، متبعة للهوى ، ظالمة ظلومة .

والذى يعرف نفسه ، فإنه يكشف عن حيلها وفنونها فى الغواية والرياء والكذب والنفاق ، فالنفس أنانية بطبعها ، تحب التملك والسيطرة والسطوة على الآخرين ، فإذا لم يتمكن من ترويضها فإنها تتعسف فيما تظنه من حقها ، وذلك بهدف الإضرار بالآخرين ، والاعتداء عليهم ..

---

(1) مختار الصحاح ص ٤٠٥ وكذلك المعجم الوسيط ص ٥٨٣ الجزء ٢ .

(2) الشريعة والحقيقة — « جيلات النفس » .

(3) المحاسبى . الرعاية ص ٣٦٦ وما بعدها .

وأقبح أنواع ظلم النفس ، الشرك الأكبر ، وهو الكفر بالله ، والإلحاد بالخالق عز وجل ، وهذا وارد فى نصيحة لقمان عليه السلام لولده على لسانه تعالى :

« يا بنى لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم » .

(لقمان : ١٣)

وكذلك فى قوله تعالى :

« يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل » .

(البقرة : ٥٤)

« والكافرون هم الظالمون » . (البقرة : ٢٥٤)

كما أن ظلم النفس هو كذبها ونفاقها ورياؤها ، وهو الشرك الأصغر ، فمع تسليمها ظاهراً بالإله رباً .. والمخلوق عبداً .. يبقى فى النفس غرورها بالله وكبرها ، واستعلاؤها على الناس :

« ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً » .

(الكهف : ٣٥ ، ٣٦)

وهذا الظالم يحسن الظن بنفسه(١) ، ويعتقد مزهواً أن ما أعطاه الله هو حق مكتسب له فى الدنيا والآخرة ، وإن انتهى مقامه فى الدنيا فسيستمر هذا العطاء له فى الآخرة ، وهذا منتهى الغرور الإنسانى ، والأمانى الكاذبة التى يظنها الظالمون .

---

(١) المحاسبى — الرعاية ص ٣٦٦ وما بعدها .

« إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً » .

(فاطر : ٤٠)

الظالم إذن . . ادعاء وغفلة ورياء ، والظالم لا يفلح فى ادعائه ، ويخيب أبداً فى مسعاه إن آجلا أو عاجلا ، فإذا استمرأ الظلم ، فلن يصلح له حال ، فيحيا أبداً ظالم لنفسه . . أما إذا تاب وأناب واختار طريق الحق ، وابتعد عن الغرور والغفلة والنسيان . . فإن الله غفور رحيم .

كما أن من ظلم النفس . . الافتراء . . والكذب ، وما يزال العبد يكذب ويكذب حتى يكتب عند الله كذاباً ، والكذاب يدعى ما ليس له ، وينسب لنفسه الصفات المسلوبة عنهـا ، والفضائل التى لا تتحلى بها ، كل ذلك ليذكر عند الناس بها زهواً وكبراً وتعالياً ، وهذا من ظلمة النفس وجهالتها :

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » .

(المائدة : ٤٥)

« إنه لا يفلح الظالمون » .

(الأنعام : ٢١)

« فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات » .

(فاطر : ٣٢)

ويمكن تقسيم العباد بحسب ما ورد عن الله تعالى إلى أنواع ثلاثة :

١ — ظالم لنفسه :

وهو الذى تعدى حدود الله أما بالشرك الأكبر أو الشرك الأصغر . .

— عادل معها :

أى مقتصد .. لم يسرف فى السيئات ، ولم يكثر فى الحسنات .

٣ — سابق الى أعمال البر والخير والاحسان :

وهو الذى غلب هوى النفس ، ولم يتبعها فى ظلمها ، وإنما خالفها واتبع الحق .

والظالم لنفسه يستطيع أن يتوب من ظلمه وينتصر على نفسه الأمارة ، بعدم طاعته لظلمها ، وتجنب غفلته وضلاله ، فإذا فعل ذلك فإن الله يتوب عليه :

« فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه » .

(المائدة : ٣٩)

وليس ظلم النفس موقف حتمى وقسرى ، كما يدعى أصحاب التحليل النفسى — وليس هناك ما يسمى حتمية نفسية ، أو أفعال قسرية لا يستطيع الإنسان عنها فكاكا .

فالانسان — كما بين الله تعالى — يختار طريقه بعد أن أعلمه الله بالصراط المستقيم ، والحق الواجب الاتباع ، وإما أن يختار طريق الاستقامة وإما يظلم نفسه فيختار طريق الغواية والضلالة .

والله لا يظلم أحداً ، ولكن الانسان يظلم نفسه باتباع الشر ، وموافقة الشهوات ، ومقارفة الرذائل :

« وما ظلمهم الله ، ولكن أنفسهم يظلمون » .

(آل عمران : ١١٧)

« إن الله لا يظلم مثقال ذرة » . (النساء : ٤٠)

والدليل الذى لا مراء فيه أن ظلم النفس موقف اختيارى ، أن باب التوبة مفتوح أمام الخاطئين ، وأن الظالم إذا عدل عن أفعـــاله الآثمة ، فإن الله غفور رحيم :

« ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر ، يجد الله غفوراً رحيما » .

(النساء : ١١٠)

فالله واسع المغفرة ، يتوب عن العاصى والظالم ، بل يتوب عن المشرك إذا رجع عن شركه ، وتاب عن ظلمه لنفسه ، كما أنه تعالى يغفر للذى تعدى حدود الله والذى يأكل مال الناس ، والذى يعتـــدى على الآخرين ، والذى يغتر كبراً واستعلاء ، والكذاب الدعى ، ومرتكب الفواحش والسيئات ، والغافل عن طاعة الله .. كل هؤلاء جميعاً يغفر الله لهم ما داموا قد رجعوا عن ظلمهم لأنفسهم :

« وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون » .

(البقرة : ٢٧٩)

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً » .

(الأنبياء : ٤٧)

فإذا رجع الظالم عن ظلمه ، فإنه يكون كما ولدته أمه ، نقياً .. تقياً .. طاهراً .. آمناً .. مطمئناً :

« الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن » .

(الأنعام : ٨٢)

أما الذى يظلم نفسه .. ويتبع هواه .. ويأكل أموال الناس .. فإنه يحيا حياته فى خوف وفزع وقلق واضطراب ، ويحسب أنه ناج وهو مردود حيث يظن القرب ضائع حيث يظن النجاة ..

« فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء » .

(البقرة : ٥٩)

« إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، فى بطونهم ناراً » .

(النساء : ١٠)

خاتمة

وبعد .. ما أحوجنا الآن إلى نشر الفكر الإسلامى فى مناحى الحياة المختلفة لقد استطاع من قبل .. وسيستطيع فى كل وقت وحين أن يثبت أنه الفكر الرائد .. الصالح للتطبيق ، المواكب للفطرة المعتدلة .. والعقل الرشيد .. والقلب السليم ..

والقرآن الكريم زاد المؤمن وعدته وعتاده .. يعرفه بنفسه وربه .. ويغذيه بما يحتاج إليه فى رحلة الحياة ، وعندما تتحدث آياته البينات عن الكون ونظامه والخلق وكماله ، والطبيعة وأسرارها، يشعر الإنسان الصادق أن الحق تعالى لم يبخل عليه بالمعارف التى تضىء له نور الحياة .. كما أنه تعالى يحثه على التأمل والنظر .. ويبين له أن العمل الصالح جهاد يثاب عليه فى الدنيا والآخرة .

والحق تعالى يوضح للإنسان من هو على الحقيقة .. تكويناً وعلماً وتركيباً وما أودع فيه من مواهب .. وما نفخ فيه من روح .. وما سلط عليه من قوى شيطانية .. وما تتضمن جبلته من ضعف وبخل وشهوات وحب المدح والرياء :

« هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً » .

(الإنسان : ١)

« خلق الإنسان ، علمه البيان » . (الرحمن : ٣ ، ٤)

« علم الإنسان ما لم يعلم » . (العلق : ٥)

« وبدأ خلق الإنسان من طين » . (السجدة : ٧)

« ثم سواه ونفخ فيه من روحه » . (السجدة : ٩)

« لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » . (التين : ٤)

« فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن » . (الفجر : ١٥ : ١٦)

« ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه » . (ق : ١٦)

« كلا إن الإنسان ليطغى » (العلق : ٦)

« ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير » . (الإسراء : ١١)

« الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » . (الماعون : ٦)

ثم يبين الحق تعالى للانسان بعد أن عرفه حقيقة نفســه . . ما هو الطريق الواجب الاتباع . . وما هو السبيــل للقربة من الله . . ليحظى بنعيم الدنيا والآخرة ، فينبهه بمسئوليته ، ويوصيه بالابتعاد عن غوايه الشيطان ، وأن لا يسأم من أعمال البر والخير . . وأن كيد الشيطان ضعيف :

« وأن ليس للانسان إلا ما سعى » . (النجم : ٣٩)

« وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه » . (الإسراء : ١٣)

« إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً » . (فاطر : ٦)

« إن الشيطان كان للانسان عدواً مبينا » . (الإسراء ٣٥)

« لا يسأم الإنسان من دعاء الخير » . (فصلت : ٤٩)

« إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » . (النساء : ٧٦)

ويوضح لنا تعالى أنه بالخير الفاضل يكون توجهنا إليه . . وبالفطرة السليمة التى خلقنا عليها دون تكلف أو رياء . . وهذا مقتضى العدل الذى لا إسراف فيه ولا تقتير . . فكما أن النظام الكونى . والناموس الإلهى لا يقبلان الفوضى

إذ يسيران على صراط مستقيم .. كذلك يجب أن يكون الانسان حتى يبلغ كماله وأمنه .. ونعيمه .

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » . (البقرة : ١٤٢)

« ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا » .

(الاسراء : ١١٠)

« ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحاً » .

(لقمان : ١٨)

والتوبة ميلاد جديد .. إذ أنها تغسل ما قبلها ، وتمسح السيئات ، بل إن الله يثيب التائب ويعظم أجره ويدخله جناته :

« إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » .

(النساء : ١٧)

« وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً » .

(هود : ٣)

« ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا » .

(الطلاق : ٥)

« ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار » .

(الفتح : ٥)

هكذا يعرفنا تعالى بأنفسنا .. وينظم لنا واجباتنا نحوها ، ويعلمنا طريق معالجتنا لأمراض القلب .. وهو العالم بالنفس وضعفها .. وشرها وبخلها .
لذلك يبين للانسان كيف تكون علاقاته الاجتماعية بالآخرين .. فيشرع له

قواعد ينبغي أن يتبعها لتقوية الصلات بين الأرحام .. والأزواج .. والأبناء والآباء .. والأخوة في الإسلام .. ولتدعم الروابط الاجتماعية بين الانسان والانسان .. وذلك كله في آيات موجزات معجزات .. تؤسس لنا علماً اجتماعياً فريداً :

« إدفع بالتي هي أحسن .. فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » .

(فصلت : ٤٣)

« ولا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالذي ينفق ماله رئاء الناس » .

(البقرة : ٢٦٤)

« وبالوالدين إحساناً فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً » .

(الإسراء : ٢٣)

« وقولوا للناس حسناً » .

(البقرة : ٨٣)

« فاصفح الصفح الجميل » .

(الحجر : ٨٥)

« فاعفوا واصفحوا » .

(البقرة : ١٠٩)

« وإذا قلتم فاعدلوا .. ولو كان ذا قربى » .

(الأنعام : ١٥٢)

« من قتل نفساً بغير نفس أو فساداً في الأرض كأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » . (المائدة : ٣٢)

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض » .

(النساء : ٣٤)

ولا يحتاج الإنسان عند ما يأخذ بالشريعة الإسلامية إلى التفكير في وضع قوانين جديدة .. ولا إلى صياغة دساتير أو تقنين أحكام ولا إنشاء قواعد أخلاقية . فالقانون الإلهي كاف بنفسه .. جامع .. شامل .. واضح صالح للتطبيق في كل زمان ومكان . ميسر العمل به متى صفت القلوب ، وتطهرت النفوس .. ورجحت العقول .

« وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له .. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » .

(المائدة : ٤٥)

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا » .

(المائدة : ٣٨)

« ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا .. إعدلوا هو أقرب للتقوى » .

(المائدة : ٨)

« ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها » .

(النساء : ١٤)

« هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم » .

(النحل : ٧٦)

ثم أن القرآن الكريم يبين لنا فقه المعاملات فيبيح أن يتعامل الناس في تجارة

ويحظر التعامل بالربا الذى يقصد منه زيادة فى الأموال بالباطل وهذه الزيادة لا يقبلها الله .. لأنها بغير القسط والعدل والاقتصاد السليم :

« أحل الله البيع وحرم الربا » . (البقرة ٢٧٥)

« وما آتيتم من ربا لتربوا فى أموال الناس فلا يربو عند الله » .

(الروم : ٣٩)

فالله تعالى يوضح لنا فساد الاقتصاد القائم على الربا ... لأن المرابى تصبح غايته المال ولذته فى جمعه . كن قد ملكته غواية الشيطان .. وشهوات النفس .. فانحرف عن العدل :

« الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » . (البقرة : ٢٧٥)

والمؤمن حقاً لا يستسيغ أن يأخذ دينه من أموال الناس أضعافاً مضاعفة لأن المال إذا ترك خاملا بدون عمل أو تجارة أو بيع أو شراء لا يولد مالا :

« اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين » .

(البقرة : ١٧٨)

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » .

(النساء : ٢٩)

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة » .

(آل عمران : ١٣٠)

وبعد .. لقد قدمنا هذا الكتاب كمحاولة للتعرف على قطرة فى بحر الشريعة الإسلامية التى يمكن أن تشبهها فى فهم النفس وعلاجها .. فهما طبياً ، كما يمكن

أن ترشدنا فى القانون والاجتماع والأخلاق والاقتصاد .. بل وفى الفن أيضاً .. وكلما استحدثنا علماً وظننا أننا اكتشفنا جديداً نجده مسطوراً فى الناموس الإلهى قد بصرنا به تعالى من قبل .. وأرشدنا إليه فى آياته المبدعات .

ولسنا فى حاجة إذن لنوهم أننا نخترع جديداً ونخلق مستحدوماً ونكتشف علوماً اجتماعية وأخلاقية أو نفسية .. أو نشرع قوانين عادلة لم يذكرها القرآن الكريم فذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ...

وما علينا إلا أن ننظر فيه ونتأمل نصوصه وفصوصه وجواهر علومه ، ونطبق ما جاء به نصاً وروحاً .. وسنعلم إذا صفت النفوس . وصدقت العقول وصلحت القلوب أنه ليس هناك أصدق من الله حديثاً ...

المراجـــع العربية

الشيخ إبراهيم السمرقندى : تنبيه الغافلين

الشيخ ابن القيم الجوزيه : الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية

(تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد)

الروح

الشيخ محي الدين بن عربى : رسائل ابن عربى كتاب إصطلاحات الصوفية

» » » » » : مشكاة الأنوار

الشيخ بن عطاء الله السكندرى : التنوير فى إسقاط التدبير

: تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس

: الحكم العطائية

الشيخ أبو الأعلى المودودى : مبادىء أساسية لفهم القرآن .

ـ نظرية الإسلام السياسية .

ـ الإسلام اليوم

ـ حقوق أهل الذمة فى الدولة الإسلامية .

ـ موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه .

ـ تفسير سورة النور .

ـ المصطلحات الأربعة فى القرآن .

ـ شهادة الحق .

ـ القانون الإسلامى وطرق تنفيذه .

ـ نظرية الإسلام وهديه .

الشيخ أبو بكر محمد الكلاباذى : التعرف لمذهب أهل التصوف .

الشيخ أبو بكر بنانى : مدارج السلوك إلى مالك الملوك .
الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى : طبقات الصوفية .
الإمام ابن سيرين : منتخب الكلام فى تفسير الأحلام .
الإمام أبو حامد الغزالى : إحياء علوم الدين من جـ١ — جـ٣ ١٦ .
« « « « : الكشف والتبيين .
: الجام العوام .
: المنقذ من الضلال .
: مكاشفة القلوب .
: المضنون به على غير أهله .
: المضنون الصغير (المسمى بالأجوبة الغزالية) .
الشيخ ابن شاهين الظاهرى : الإشارات فى علم العبارات .
الامام أبو طالب المكى : قوت القلوب جـ١ ، جـ٢ .
الامام أبو النصر السراج الطوسى : اللمع جـ١ ، جـ٢ .
الشيخ أبو سعيد أبى الخير : أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ سعيد
تحقيق إسعاد عبد الهادى .
د. أحمد عزت راجح أصول علم النفس .
: الأمراض النفسية والعقلية .
الشيخ أحمد ضياء الدين : جامع الأصول .
د. أحمد فؤاد الأهوانى : النوم والأرق جـ١ .
الحارث المحاسبى : الرعاية لحقوق الله (تقديم د. عبد الحليم محمود)
أرنست جونز : التحليل النفسى (ترجمة د. م الشليطى)
الحكيم الترمذى : كتاب الأكياس .

الشيخ الشبلنجى	: نور الأبصار .
الشيخ الشيخ الشطنوفى	: بهجة الأسرار .
الشيخ الهروى	: مدارج السالكين .
المحب الطبرى	: الرياض النضرة فى مناقب العشرة .
هـ ج إيزنك	: الحقيقة والوهم فى علم النفس (ترجمة بإشراف د يوسف مراد)
باتريك ملاهى	: عقدة أوديب .
د. باروى	: المشكلة الأخلاقية والفكر المعاصر ترجمة د محمد غلاب .
الشيخ جمال الدين أبو الذهب	: قوانين حكم الاشراق .
جوستاف لوبون	: روح التربية (تعليق د طه حسين) .
روبرت هاربر	: التحليل النفسى والعلاج النفسى .
د رؤوف عبيد	: الانسان روح لا جسد .
سيجموند فرويد	: الموجز فى التحليل النفسى .
	: تفسير الأحلام ترجمة الأستاذ مصطفى صفوان .
د. سيد غنيم	: سيكولوجية الشخصية .
د. صبرى جرجس	: التراث اليهودى الصهيونى والفكر الفرويدى .
الشيخ عبد الغنى النابلسى	: تعطير الأنام فى تعبير المنام .
د عبد الفتاح بركة	: الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية جـ١ ، جـ١
الامام عبد القادر الجيلانى	: الغنية .
الامام عبد القادر الجيلانى	: الفتح الربانى والفيض الرحمانى .
	: فتوح الغيب .

الامام عبد الكريم القشيرى : الرسالة القشيرية جـ١ ، جـ٢ .

: التحبير فى التذكير .

الشيخ عبد المجيد الشراوى : شرح تائية السلوك إلى مالك الملوك .

الشيخ عبد المجيد النقشبندى : الأنوار القدسية .

الشيخ عبد الوهاب الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ١ ، ٢ .

: الأخلاق المتبولية (تحقيق دكتور منيع عبد الحليم)

: اليواقيت والجواهر جـ١ ، جـ٢ .

: الكبريت الأحمر .

: تنبيه المغترين .

: الكوكب الشاهق فى الفرق بين المريد الصادق (مخطوط) .

الشيخ عفيف الدين اليافعى المكى : روض الرياحين فى حكايات الصالحين .

ك. هوك لندزى : نظريات الشخصية .

وحيد الدين خان : الدين فى مواجهة العلم .

: حكمة الدين .

: الاسلام والعصر الحديث .

: الاسلام يتحدى .

أبو الحسن الندوى : النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن .

: نحو التربية الاسلامية الحرة فى الحكومات والبلاد الاسلامية .

يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية .

مراجع افرنجية

- C. G. Jung : Anthony Stoar New York.
- Charles D. Spielberger : Clinical and Community Psychology.
- D. H. Borchardt : How to find out in Philosophy & Psychology.
- D. W. Harding : Social Psychology and Individual values.
- D. W. Theobald : An Introduction To The Philosophy of Science. London.
- Edward Glover : The Birth of The Ego
- H. J. Blackham : Six. Existentialist Thinkers.
- D. Hambarto Nagera : Basic Psychoanalytic Concepts on the Libido Theory.
- « « « : Basic Psychoanalytic Concepts on The Theory of Dreams.
- Jean Piaget : Psychology and Epistemology.
- John Cohen : Homo Psychologicus George Allen & Unwin.
- Mary Warnock : Existentialism opus 52 Oxford University Press.
- P. Henderson : Disability in Childhood and Youth — Oxford University Press.

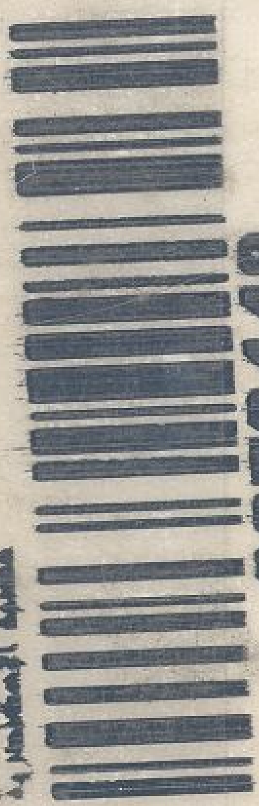
فهرست الموضوعات

الباب الثالث

الفصـــــل الرابع

مطبعة الوادى

شارع ابن زنكي أمام ٢٢ — ت ٨٠٨٩٧١


Bibliotheca Alexandrina
0272448